ديديه كونفار

المثلث السري

الجزء الثاني

فرسان هيكل يسوع الخمسة

ميليشيا البابا «حراس الدم» تقتل وتضطهد بحثاً عن أسرار يسوع الخمسة





المثلث السرِّي II

LE TRIANGLE SECRET II

المثلث السرّي II

تأليف: ديدييه كونفار

ترجمة: د. عصام المياس / د. سليم طنوس



دار الخيال

للطباعة والنشر والتوزيع

بناية يعقوبيان بلوك ب طابق ٢ ـ شارع الكويت

المنارة ـ بيروت ـ 2036 6308

لبنان ـ تلفاكس : 009611-740110

E-mail: alkhayal@inco.com.lb

التنفيذ الفني دار الخيال للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى صيف 2009

ديديه كونفار

المثلث السري

II

فرسان الهيكل الخمسة

ترجمة

د. عصام المياس   د. سليم طنوس

دار الخيال للطباعة والنشر والتوزيع

الحياة هي مجموع الوظائف التي تقاوم الموت

كسافيير بيشة

الجزء الأول

السفر إلى القدس



1
الصليب الأول

كانون الأول(ديسمبر) 1107

بدأ هطول الثلج بغزارة مع هبوط الليل، فأقفرت الطرقات، وغطى السطوح دخان خفيف يتصاعد من المداخن بنفثات ناعمة تتلاعب بها الرياح الباردة معكرة صفو هدوئها.

نور خفيف ينسل عبر شقوق نافذة خشبية في الطابق الثاني من البناء العالي.

في إحدى غرف البيت الصغيرة المنحنية، رجل في الأربعين من عمره يكتب بريشة بطيئة وهادئة على مخطوطة من الرق، منكباً على كتابة حروفه بعناية ودقة. موقد تعلوه كومة من الجمر تبعث الدفء في الغرفة المليئة بالملفات والمخطوطات.قنديل من الزيت موضوع على صندوق ينشر نوراً برتقالياً تلاعبه النسمات المنسابة من الفتحات المهترئة.

يرتدي الكاتب ثوباً سميكاً وقفازات تخرج منها أطراف أصابع يديه.

جبهته عارية، وما تبقى من خصلات شعره الطويلة البيضاء والشقراء ينسدل على رقبته، قدماه تستريحان على مقعد خشبي صنع بعناية فائقة.

يزيّن بنصره الأيمن خاتم مطعم بالحجر الأحمر، يلتمع بشكل عابر كلما واجهه الضوء. مركز وهادىء، لا يتوقف عن كتابة مذكراته على جلد سميك. إنها مذكراته التي يحررها، قصة مثيرة لخمسة فرسان سافروا قبل ثلاث سنوات، بحثاً عن أكثر الأسرار قساوة على القلب... خمسة أخوة يجمعهم سر يعجز عن الوصف وهم:

اسمه آرسيس دوبريين، رفيق هوغ دوشامباني، هوغ دوبياني، جوفروا دو سانت ـ أومير وباسيل لوهارنيه.

وهو يتذكر أرض القدس الصلصالية المحرقة،وسماءها المرصعة بالنجوم، وجوّها المفعم برائحة التوابل.. قرية المجذومين، القبر.

القبر!

ارتجفت يده قليلاً عند استحضار هذا الاسم، يكاد لايلاحظ ذلك لأنه تمرس على التحكم بانفعاله، مرغماً عقله وقلبه على ألا تجتاحهما الأفكار التي زعزعته سابقاً.

هو يعرف منذ الآن. لقد اكتشف الحقيقة، كذبة الكنيسة، الدَّجل...

لذلك هو يكتب ،منكباً على مكتبه، وعيناه المتعبتان تغمضان عند كل كلمة جديدة، ووجهه المترهل مسمّر كقناع من الشمع.

كان هزيلاً بارز التقاطيع. غطى الزمن عظامه بالسمنة التي أكسبته هيئة سيناتور روماني.

خلف النوافذ، يكتم الثلج أخفت الأصوات، حتى الرياح أضحت خرساء. هذا الصمت المخدّر، يناسب آرسيس دوبريين الذي يسترسل لذكرياته. وهي تفرض ذاتها بذاتها واضحة جلية كما في أيامها الأولى.

لا يمكن لأفكاره أن تتوجه نحو الله، مع أنه أحب أن يصلي له في تلك اللحظة. روحه فارغة منذ الآن، لقد تحول الى قشرة جافة فقدت نسغها أثناء حملته في الأرض المقدسة. روح ميتة...بقايا إيمان قديم ورع.

وهكذا كان يكتب، خوفاً أن تنسى ذاكرته العاجزة ذات يوم جسد شاب مثقوبة قبضتا يديه وقدميه، ومجروحة خاصرته. إنه يكتب لنفسه. وهذا ما يطمئنه قليلاً. إنه يكتب... باجتهاد وبمنهجية... متذكراً الأحرف الأربعة التي رسمها الرومان على رقيّم أعلى الصليب للتعريف بذلك الذي قد عُرف بيسوع.

I.N.R.I

ومعناها: «يسوع الناصري ملك اليهود». ***Iesus Nazarenus Rex Iudaeorum***

لكن آرسيس دوبريين، كما رفاقه الأربعة، يعرف الآن أن هذه الكتابة المتشابكة تخص رسالة سرية خفية، سيؤدي الكشف عنها إلى هدم أسس الكنيسة المقدسة.

هنا، تحت هذا اللفظ يكمن مفتاح المعرفة. إنها معادلة الخلود.

*

* *

تقدّم الشبح على قمة سقف مسكن أرسيس دوبريين، شكلٌ عكّر وضوحه الثلوج والرياح بنسبة كبيرة وحولته إلى طائر عظيم كاسر. وفي الواقع، يشبه الشبح هذا الكائن الرشيق الذي يتحدى التوازن من خلال تلاعبه بألواح القرميد المغطاة بالثلج المتجمد، معطف فضفاض ذو قبعة يخفي وجهه، وفأس مشدودة تحت حزامه.

إنه شبح ظل يطير على السطح من حافة الى حافة ، يتعلق بمدخنة هنا، ويترك نفسه متزحلقاً هناك على طول أحد ميازيب الواجهة المطلة على الباحة الداخلية

للمسكن، ثم يحط على شرفة نافذة واسعة مغلقة بمصراع من الخشب.

وفـي حينها، توقف لحظة ليلتقط أنفاسه بسرعة، ويستل خنجره المعلق فـي وسطه الأيسر. شرع فـي محاولة خلع مصراع النافذة. وفـي أقل من دقيقة تمكن من تحطيم لسان القفل، لينفتح دون أية ضجة.

دخل المنزل سالكاً ممراً مظلماً يهب بداخله تيار هواء جليدي، تسلق الدرج بخفة كالهر وتوجه نحو باب مكتب آرسيس دوبريين الذي يتسرب من أسفله شعاع ضوء خافت. أخرج فأسه من تحت حزامه وأمسكها بقوة بيده اليمنى، وبهدوء بالغ دفع الباب بيده اليسرى.

ومن الخلف راح يراقب الكاتب المنحني على طاولته، والذي تلتمع قمة رأسه تحت ضوء سراج الزيت. توقف لحظة دون حراك، ممعناً بالمشهد كلياً، محدداً مكان أدق التفاصيل..

ودون شك، سمع آرسيس دوبريين قرقعة خشب أرض البيت، التفت خلفه ظناً منه أن زوجته حضرت للقائه. حدق ملء عينيه ليراها، إذ يجب عليه أن يعتاد على الظلام الخفيف السائد فـي الغرفة.

ـ هيلين؟

بيد أن هذا الشكل الضخم لم يكن هيلين. وفـي الحقيقة، لم ير سوى أن الزائر الذي يتقدم نحوه بخطوتين واسعتين يحمل فأساً. لم ينتبه للأمر إلا متأخراً. بقي برهة مسمراً فـي مكانه حيث السلاح يرتفع فوقه، بينما أصابه ضيق شديد فـي بلعومه. فـي غفلة من الوقت.. إخترق المكان سهم من النور، شعر آرسيس دوبريين بالاختناق وهو محملق إلى الفأس القاطع، سمع صراخاً حاداً كصراخ وحش مذعور.

عمّ الصراخ الحاد المنزل، وصل صداه إلى هيلين دوبريين التي تغط فـي نومها. إنتصبت المرأة مذعورة فـي سريرها، محاولة فهم الحقيقة التي حجبها أيضاً حلم قد انقطع.

ـ آرسيس!

توقف صراخ زوجها فجأة. أحضرت هيلين المصباح والقداحة الموجودة على الصندوق قرب السرير ثم أنارت الغرفة واتجهت نحو الباب.

هناك صراخ آخر أشبه بأنين محتضر. تملك الخوف هيلين، فتقدمت بضع خطوات داخل الممر صعدت تتسلق الدرج والمصباح فـي يدها ينشر نوره الضعيف. قدماها العاريتان على البلاط البارد جعلتاها ترتجف. عليها الصعود إلى الطابق الثاني، إلى مكتب آرسيس، باستخدام الدرجات الخشبية ذات الأشواك الحادة.

ـ آرسيس...

البرد. وتيار هواء عنيف. «فُتحت النافذة!». صعدت...اجتازت السلم وسط ثقل القلق الجاثم على الصدر والمعدة المنقبضة والساقان الثقيلتان.

إنها السطيحة أعلى الدرج. باب مكتب آرسيس مفتوح. اقتربت هيلين مانعة نفسها من تسريع خطاها. نور ضعيف ينبعث من الغرفة، ضوء خافت يرسم مستطيلاً شاحباً على أرض الممر.

دخلت المكتب وعنقها متقدم إلى الأمام، يقظة قلقة.

- آرسيس عزيزي.

لقد أُلقي زوجها خارج مقعده، إنه يرقد دون حراك على الأرض في مستنقع من الدم وسط مخطوطات وملفات مبعثرة ممزقة وقد داستها الأرجل.

تقدمت غير مبالية بالوثائق المبعثرة التي تدوسها بقدميها، كيانها منجذب كلياً نحو جسد آرسيس الممدد على الأرض، ونحو الدم المراق حوله كتويج زهرة.

كانت عيناه مفتوحتين، لكنه لا ينظر إليها، فهو لن يراها أبداً بعد الآن. إنه ميت وتعابير الرعب تشوه وجهه. وقد رسم على جبينه بدمه الرقم 1 وإشارة صليب:

+1

فيما بعد، اكتشفت هيلين أن قبضة يد آرسيس اليمين قد بترت. اليد التي تحمل الخاتم ذي الدرّة الحمراء اختفت .

لم تستطع المرأة التي أصابها القرف أن تمنع السائل الصفراوي القارص الذي تقيأته وقد انتابتها التقلصات. إنها منهكة ومرعوبة، وتظن أن القاتل ما زال في المنزل فتخشى على حياتها. أصابها الذعر، تفحصت ظلام الغرفة، لم تشعر بأي وجود غريب. ما كادت تسكّن روعها حتى خرجت من المكتب والمصباح بيدها ينير أمامها طريقاً دائرياً مختصراً. أصبح المنزل بأكمله مصدر تهديد.

نزلت إلى الطابق الأول، سالكة الممشى والدرج الثاني المؤدي للخارج، هل ينتظرها القاتل في أحد أركان هذا البناء الكبير؟ أي قاتل؟ لماذا اعتدى على زوجها وبتر يده اليمنى؟

غمرت الدموع عيني هيلين وهي تهبط الدرج. شعرت بصعوبة في التنفس، وكان الظلام يذرّ الرمل في حلقها. وكان هبوط كل درجة يمثل جهداً وألماً لا يطاق...

الليل يهرب عن الجدران الكلسية، تحركه تبددات مشؤومة ترافق هبوط المرأة على الدرج، إنها على وشك الوصول إلى أعلى درجة من الطابق الأول، ورغم القلق الذي يشد قلبها غامرت وسلكت الممشى.

تقدمت بخطى ثابتة وحذرة، وبقدر كبير من الصمت، قالت لنفسها أنها عندما تبلغ منعطف الممر ستبدأ بالصراخ طالبة النجدة من الجوار. لم يبق أمامها سوى هبوط عدة درجات للوصول إلى الشارع. لكن فجأة، وبعنف فتح بابٌ، وصدمت إحدى درفاته كتفها قاذفة بها إلى الخلف وافقدتها التوازن...

قلنسوة عريضة خطفها نور مصباح هيلين، شبح أسود يقفز حاملاً فأساً مدمى بيده اليمنى، ويد آرسيس المقطوعة باليد اليسرى.

فيشتعل من خاتم الطرف المبتور ومض لامع أحمر.

تجنبت هيلين ضربة الفأس الذي أصاب نصله الجدار مباشرة فوق رأسها ، مسبباً تساقط ذرات الجبس التي تغطيه. تهيأ القاتل لضربة ثانية، لكن المرأة الأكثر شباباً من زوجها، هرولت بسرعة فـي الممر الضيق، متجهة نحو الدرج لتهبطه بسرعة طالبة المساعدة. القاتل يجري فـي أعقابها محطماً كل ما حوله من آجر الجدران ودرابزين الدرج، زافراً مثل حطاب ينقض بفأسه على قطعة من الحطب اليابس.

لم تتوقف هيلين عن الصراخ. وصلت الدرجة الأخيرة من السلم الخشبي. لهب مصباحها يرقص بجنون. أما القاتل، الجاد فـي إثرها، فيتابع شق المكان بفأسه.

كاد يصل إلى هيلين فـي الرواق. لم يبق سوى ثلاث أو أربع خطوات ليصل اليها. استدارت بسرعة نحو الخلف فأدركت على الفور أن ساعتها أزفت إذا لم تقم بردة فعل مناسبة.

بدا القاتل وكأنه ملتصق بظله بحيث يبدو الليل كأنه تقمص مادة تتحرك فـي خيال معطفه وقبعته وهيئته كلها. يلتمع نصل الفأس تحت الضوء المنبعث من قنديل الزيت.

قذفت هيلين مصباحها بوجه مهاجمها. تلقاه بنهاية معطفه الذي التصق على ساقه اليمنى. وفيما يتصارع المهاجم مع اللهب، تمكنت المرأة من الخروج من المنزل لتبلغ الشارع المغطى بالثلج. وكانت حبات الثلج المتساقط تئز في عتمة الليل.

ابتعدت المرأة عن باب منزلها. فُتحت نوافذ الجوار. وأطل من النافذة رجل بدين مندهش، كان رأسه أشعثاً بفعل النوم:

ـ هذه أنت من يُحدث كل هذه الجلبة يا هيلين ؟

ـ رؤوس أخرى أطلت على الشارع حيث الهاربة تمشي على الثلج حافية القدمين، وتدور حول نفسها، كدمية مذعورة تفتش بعينيها عن سبيل النجاة.

ـ صرخت بأعلى صوتها: لقد قُتل آرسيس فـي غرفة مكتبه.

خرج القاتل من المنزل. خلع معطفه الملتهب، وما زال يحمله بيده كأنه يرقص حوله مثل لسان اللهب. رجعت هيلين إلى الخلف كرد فعل طبيعي، وميزت بغموض نظرة شيطانية تحت معطف الرجل. كانت عيناه كعيني هرّة تصطنع الإبتسامة.

رفع الرجل يد آرسيس دوبريين كأنها كأس نصر، تخلص أخيراً من معطفه، فألقى به على الثلج كما لو كان بقعة من الدم الأسود ليحترق كلياً. أفل هارباً، تاركاً هيلين ترتعد من شدة البرد والألم، تبكي خائفة تائهة، لقد مات حبها القديم: زوجها آرسيس، الطيّب، الذي كانت تحبه أكثر من أب.

2
ملك القدس

القدس ،لثلاث سنوات خلت.

الطقس الحار الرطب يلصق الثياب بالجلد. ملك القدس الشاب بودوين شقيق غودفروا دوبويون المتوفـي عام 1100 ،يطلع برفقة الفارسين برتراند وأندريه على المخططات. أوراق كبيرة تعرض على طاولة الملك الذي أنهى لتوه حلاقته، فيسيل العرق وقدكان على عنقه،فيما كانت اصبعه الكسول تتبع الخطوط التي رسمها أفضل مهندسيه المعماريين.

الصالة واسعة، وفـي إحدى زواياها أقواس تطل على رواق خارجي ظليل، يحفظ النذر اليسير من رطوبة الليل.

لقد رفعت هنا وهناك أعلام صغيرة ورايات حرب وصفوف من الأعلام والبيارق كعلامات فخر لفرسان صليبيين اقتحموا ساحة هيكل سليمان وملحقاته حيث أشادوا معقلاً محكم التحصين بغية المباشرة بالتنقيبات عند أساسات المنزل الكنسي وحول المسجد الأقصى.

منذ زمن غير بعيد، جرى اكتشاف بعض الآثار التي أعاد المهندسون تاريخها إلى الحقبة الإسرائيلية. مئات عمال التنقيب انكبوا على حفر أرض حمراء قاسية تحت أوامر مشرفين حذرين من ضربة معول يأتي على كسر جرة قديمة أو تحطيم تمثال صغير من الذهب...

الرجال يغنون كي تشتد هممهم، وقد كانت ظهورهم عارية تلفحها الشمس الحارقة، وأيديهم خشنة من استخدامهم الأدوات الثقيلة، وحناجرهم جافة ومملوءة بالغبار الكثيف، بحيث لا تروي عطشهم المياه المنعشة مهما كانت كميتها، مع ذلك فهم يغنون مازجين لهجاتهم الإقليمية كعمال بابل.

يطوي الشاب بودوين المخططات ليركنها فـي زاوية من الطاولة، ثم يتناول رسالة أعاد قراءتها مراراً فـي الأيام الأخيرة.

ـ هل نحن فعلاً بحاجة لدعم زعماء الشامبينوا؟ تساءل بينما يتصفح الرسالة من

جديد. إن زعيمهم الكونت «هوغ» بالغ الثراء ولن يكترث لشأن جند المسيح أمثالنا!

- مع ذلك علينا الظهور أمامه بمظهر لائق يا صاحب الجلالةبودوان.

قال برتراند مبتسماً:

يوجد رجل رابع يقف جانباً قرب ستار سميك ويبدو عليه أنه لا يرغب المشاركة بالمحادثة. إنه الإسقف بوسيلين، سفير البابا باسكال. كان نظره تائهاً، وهو منهمك في تقشير برتقالة بعناية شبه أنثوية، وقد ارتسمت على شفتيه الناعمتين علامة احتقار.

- قال اندريه محدداً: هناك وفد ينتظره في عسقلان منذ أكثر من أسبوع..

تنهد الملك وهزّ كتفيه ساخراً:

- أخشى أن لا يأتي هوغ ورفاقه إلى القدس إلا من أجل تلبية ذوق الناس الذين يصرون على رضى الله.

- يشير برتران ،قد يصل برفقة الفارس هوغ دوبرين الذي سمعت عنه أحياناً..

ويعقب بودوان باستخفاف:

- أنا أيضاً! هناك سر كبير لهذه الشخصية الفريدة التي قلما يفترق عنها هوغ كما يبدو.

- لدرجة أنه يقال عنهما أخوان، أضاف برتراند. في نهاية الأمر قد يكون باينس ولداً غير شرعي للكونت تيبو الذي لم يعترف سوى بهوغ الكونت الحالي وريثاً! إشاعة أحيطت بغلاف بالغ السرية في شامباني حيث يعلم الجميع أن تيبو ارتكب بعض الخيانات الزوجية مع «أديل دوفولوا».

همَّ بودوان بالنهوض عن الطاولة التي ظل منحنياً عليها لفترة وجيزة، ناظراً بلا مبالاة إلى الرسالة المهورة بخاتم دو شامباني.

قال: ليكن. سوف نتفاوض مع هؤلاء الناس وفي نهاية المطاف فالكونت شامباني هو زوج كونستانس ابنة الملك فيليب، وقد يكون ذلك مفيداً لنا!

- أمسك أندريه بقارورة صغيرة فارغة، وسكب كوباً من الماء حمله إلى شفتيه، وبعد شربه دفعة واحدة نظف فمه بمؤخرة كمه وقال ضاحكاً:

- الواقع لو توصلنا إلى الدفاع عن قضيتنا فسيكون لدينا الجرأة لطلب بعض العطاءات!

- بالتأكيد. نوه برتراند وهو يداعب شعره الكث الأصهب بيديه بحثاً عن القمل: أكيد.. كانت حاميتنا تتعرض لهجمات متواصلة من العصابات العربية. وسنقبل بكل العطايا، رجالاً وأسلحةً ومؤناً.

- طبعاً، قال الملك الشاب مؤكداً، نحن جيش الله.. جيش من هذا النوع يجب أن لا يكون معدماً أبداً.

في الوقت ذاته يحدّق بالزرقة الدائرية حول عيون رفاقه، وبوجناتهم الهزيلة، بجلدهم المتشقق الذي شاخ باكراً.. إنه يرى أمامه صعاليك معدمين يخالون أنفسهم خبراء بالحرب،

مقاتلين ما زالوا في مقتبل العمر. «جميع فرساني، كذلك فكر الملك، جميع قادتي، وشجعاني، كل الصليبيين التابعين لي! إنهم عصابة من المغامرين، قتلتهم الحمى وشرّدتهم».

-يا صاحب الجلالة...

التفت بودوان نحو الإسقف:

- نعم يا سيدنا؟

همس السفير البابوي ببعض الكلمات في أذن ملك القدس الشاب، دون أن يسمعها أندريه وبرتراند.

اعتذر بودوان من أصدقائه مبتسماً:

- إن الإسقف الذي نقدر جميعنا سريته، يود محادثتي على إنفراد. تابعوا أنتم مباحثاتكم حول آخر تقارير مهندسينا ريثما أنهي حديثي مع الإسقف.

غادر بعدها الإسقف والملك الغرفة ليسلكا الرواق الخارجي للباحة ذات الأعمدة الممتدة حول البناء. وفي الحال انشرح صدر بودوان بفضل طراوة الجو. احتذى خطى الإسقف وتسلى برؤيته وهو يضع بتأنٍّ مضحك قدماً أمام الأخرى على طريقة البهلوان، متنقلاً على حبل ممدود فوق هوة وهمية.

رائحة كريهة من عرق الجسم ترافق الإسقف.

- أنت لن تتخلى أبداً عن ملامحك المتواطئة بوسلين؟ أتخيل عن أي موضوع سوف تحدثني.

- مهمتنا يا صاحب الجلالة...

أغاني الحفارين تصل إليهم. صوت قوي يعطي النغم وينظم الإيقاع. صفارات رؤساء العمال تنهي الغناء الجذاب.

- مهمتنا الحقيقية، تابع النائب البابوي، هي العمل السري الذي تموهه هذه الحروب الصليبية...

- سأبذل كل شيء في سبيل القيام بمهمتي، تستطيع انت ان تضع البابا في االصورة .لقد استأنفت بحماس التحقيق الذي بدأه أخي المرحوم غودفروا.

يطل الرواق على باحة الإسطبلات ويظهر أمام الرجلين درج فيسلكانه ويتوقفان عند قمته. ومن هناك يراقبان الورشة. رافعة معلقة على بناء تدفع قوائمها الخشبية في سماء بيضاء إلى حد ما.

تعالى غناء العمال، وبدأت أصوات لهاثهم الخشن تجعل الغناء مؤلماً.

- ليس لدي أي لوم أوجهه لك، يا صاحب الجلالة. لا شيء تسرّب عن عمليتنا. قبر السيد المسيح المُسلَّم يبقى خدعة مثالية بينما نحن نبحث عن قبر الدجال.

- أعرف تلهفك لإيجاده، إلا أن عمالنا يحفرون دون توقف و..

نزلا الدرج المؤدي إلى باحة حيث سائسو ومروضو الجياد الشباب يعتنون بالخيول. رائحة الروث والبول تسبب الإحساس بالتقيؤ عند بودوان. تأمل للحظة متذكراً الروائح العفنة في المزرعة حيث كان يهوى التجول عندما كان طفلاً.

طفولته.. لم تظهر له إلا على فترات، إنها تهيج على شكل ذكريات مؤلمة، مضرجة بالدم، بالصراخ والبكاء والعويل، مغطاة بالحرب.

- ماذا كنت تريد أن تقول لي، يا صاحب الجلالة؟

- نعم.. تابع الملك، اسأل نفسي أحياناً ما إذا كان السرَّ الذي ورثته ليس سوى وهم أو خرافة!. رجال الدين الذين لديكم قد يكونوا أخطؤوا أو ارتكبوا أخطاء في الترجمة.

يقول بوسلين بغضب:

- كلا يا بودوين، كلا! يجب على الكنيسة أن تكتشف قبر المسيح وتخفي الجثة الموجودة فيه. هل تريد أن تتحول أسس المسيحية بذاتها إلى غبار؟ هنا، في مكان ما في القدس تستريح جثة حاملة علامات الصلب: بقايا توما، الذي تعرّض للعذاب بدل أخيه يسوع!

يضع الملك الشاب يده على جبينه.

- كم وددت لو أنني لم أطلع على هذه المعلومة! قال مشتكياً.

- أردت أن أقول لك: إنهم دون شك الشامبانيون الذين ننتظرهم، هم من دون شك من سيقودنا إلى القبر المشؤوم.

- بالله عليك! وكيف ذلك؟

يربت الإسقف بيده القوية على كتف الملك ويمشيه على خطاه دافعاً أياه برفق. لقد اجتازوا ساحة الإصطبلات متوجهين نحو الورشة.

- سأشرح لك، قال بوسلين، أريد إحاطتي علماً بكل دقيقة من أعمالهم وحركاتهم ما أن يصلوا المدينة.

- آه، إذن الأمر كذلك! قد يكونون جواسيساً، أليس كذلك؟ ماذا تخشى في حقيقة أمنا الكنيسة المقدسة إذا ما تمكن مجهول من اكتشاف قبر توما؟. لم تقل لي كل شيء يا سيدنا؟

- يجب عليك ان تعرف في الواقع...

يجتازان بستاناً متشققاً. رجال ينقلون سلالاً مليئة بالحصى، إنهم يحملون هذه الأثقال بواسطة حبال مشدودة إلى أكتافهم، مع وقاية جسدهم بقطع من الجلد. عند أسفل السور، حُفر دهليز، دُعمت فتحته بمجموعة من الدعائم الخشبية والهياكل التي تبدو لأول وهلة بدائية وبسيطة. لكن لدى الإمعان فيها ستلاحظ أن المهندسين المعماريين قاموا بإنجازات رائعة بواسطة القليل من الوسائل والمعارف التجريبية.

شرع المهندس والراهب بتفحص المخلفات.

تابع بوسلين:

ـ من غير المستبعد أن يكون توما قد تشارك قبره مع.. . أخيه يسوع، الذي اختبأ من وجه الرومان مدة ثلاثة أيام فـي ظلمات القبر!

ـ فهل ظل المسيح مع الميت؟ ردَّ بودوان بقوة: هذا لا يبدل شيئاً فـي مسألتنا! اللهم إلا إذا..

إلا إذا كان المسيح لم يترك أثر عن وجوده، قال الإسقف بصوت عال. إنه أمر لو اكتشف، سيشهد عن حقيقة تضع الكنيسة فـي خطر.

ـ أفهم أن إثباتاً إضافياً يجب علينا إبعاده عن نظر المدنسين.

رد الإسقف: الحقيقة أنه يجب علينا محو كل شيء! وحرق بقايا توما. بالنسبة للعالم المسيحي، يسوع مات وقام. لقد عبر من الظلام إلى النور لأنه كان ابن الله، المولود من حبل بلا دنس. لا شيء يجب أن يُكتب خلاف هذا!

توقف بودوان عن السير، لاهثاً «يا لهذا الحر! هذا الأتون المشؤوم!».

ـ والشامبانيون؟ تساءل بصوت جاف، أي دور يلعبون؟

نظر بوسلين من أعلى كتفه، يمنة ويسرى. إنهم بعيدون عن المهندس والراهب، اللذين يسجلان الجداول. يمكنه إذن أن ينطق بالسر الذي يلاحقه ويعذبه:

ـ إنهم يقولون عن أنفسهم أنهم ورثة تقليد قديم جداً، وأنهم أوصياء المسيح!

يؤكد رجال الدين التابعين لي أنهم يملكون من المعلومات ما سيقودهم مباشرة إلى القبر المشؤوم. المرحوم البابا أوربان الثاني الشامباني الأصل، جمع منهم بعض الأسرار، معلناً حربه الصليبية وأنه سيجد دون جهد كبير المكان الذي دفن فيه توما، لاغياً المؤشرات التي كانت ستزعزع أسس المسيحية. كنا نظن أن ذلك المكان موجود هنا.

ـ لم يجد المهندسون التابعون لي سوى بعض الدهاليز المنهارة، أضاف بودوين. بقايا لهيكل سليمان القديم.

هز بوسلين رأسه الصغير كرأس العصفور وغمز بعينيه، بريق الشمس الصادر عن معول انهال عليه ليصفعه.

ـ الكونت هوغ دوشامباني والفارس باينس سيعملان لصالحنا! حسب قوله. يأتيان إلى الأرض المقدسة لمنعنا من وضع اليد على ما تركه المسيح فـي قبر توما.

ـ ما هي حقيقة الأمر يا سيدنا؟ سأل بودوين متلهفاً:

يلفظ الإسقف كل كلمة من ردّه على حدة:

ـ هذا له علاقة بكفن الدجال!

ـ كفنه؟ صاح الملك الشاب.. قطعة عادية من القماش التي تعفن فيها جسد توما!.

ـ أوضح بوسلين ،يا صاحب الجلالة لا يوجد هذا فقط، بل هناك أسوا من ذلك بكثير! إن هذا الكفن يحمل سراً يتعذر تسميته!

3
الفرسان الخمسة

الليل

سفينة فخمة وسطها وازن، حوافّها ملساء ترفع الرايات والأعلام الممهورة بالصليب، أشرعتها الستة المربعة المنفوخة، تتلقى أفضل الرياح لتقلع بسرعة كبيرة فـي بحر هائج تمخر أمواجه وتكسرها فـي مواجهة حادة، تتأرجح على حبالها بضعة فوانيس محاطة بهالات صفراء، حباحب هشة تتلألأ بين السماء والبحر مثل نجوم منخفضة.

غادر جوفروا دوسانت ـ أومير ظهر السفينة، ما حيث تقيأ. نزل متثاقلاً لبضع درجات تؤدي إلى الممشى بين الغرف ذات الجدران الشديدة الانحناء، منظفاً شفتيه بطرف معطفه.

أصبح لون سحنته أخضر جحظت عيناه وإنفجر قائلاً: أمواج صاخبة وتمايل وترنح...

كيف يمكن لأحدهم تحمل هذا النوع من المعاملة دون تقيؤ كل أحشائه؟..

لقد تجاوز الرجل سن الثلاثين منذ فترة قصيرة، غير أن البدانة تنفخ قميصه. هو متوسط القامة وبنيته كبنية الدب. كتفان قويان، ويدان ضليعتان، وعنق قصير قوي، عيناه صغيرتان مشدودتان، أنف عليه ندبة آثار كسر ناتج عن مشاجرة قديمة وشعر كستنائي مردود إلى الخلف.

بدت الأرضية وكأنها تتهاوى تحت قدميه عند كل خطوة يخطوها. لم يتوقف عن ترديد الدعاء باحثاً عن استعادة توازنه، جامعاً ذراعيه بحركة دورانية غريبة.

ـ جاءه صوت: أنت مثير للسخرية يا جوفروا! .

فتح باسيل لوهارني الباب، ممسكاً فانوساً بيده اليمنى، لم يتمالك نفسه عن الضحك أمام هذا المشهد الذي يقدمه له صديقه.

ـ هل الأمر مضحك؟ ردّد جوفروا. إذن هكذا سوف أموت! لقد تطلّب الأمر أن أفرغ معدتي

من فوق الدرابزين. فلو تابعت هذه الحمية، فلن يكون لدي سوى الجلد على العظام!

ـ يا صديقي المسكين، أنت لم تتوقف عن تقيؤ مرارتك نحو البحر منذ أن صعدنا على هذه السفينة.

اقترب باسيل وأخذ بذراع المريض مضيفاً:

ـ لا تنتظر أحداً سواك! لقد نفذ صبر الكونت.

ـ بالله، ماذا تعملون كي لا تصابوا بدوار البحر.

ـ لا شك أننا نختار غذاءاً خفيفاً لا يثقل معدتنا، لقد نصحتك ألف مرة بأن لا تتناول سوى الحساء، حساء الخضار. هل ترى ما يحصل لك عندما تتخم نفسك بلحم الخنزير والسمك المملح؟ هذا من دون حساب أكواب نبيذ العسل التي تبتلعها من الصباح حتى المساء!

ـ يا لك من رجل حكيم يا باسيل، أنت ونصائحك الموجهة!

وجد باسيل لوهارني صعوبة في مساعدة جوفروا رغم قوته ومتانة جسده كالخشب العتيق. شعره قليل نادر، لحيته رمادية، وجهه متطاول، أشبه بشفرة السيف، آثار حمى جلدية برقّقت خدّه بالرغم من بلوغه التاسعة والثلاثين.

تمكن الفارسان أخيراً بعد جهود مضنية من الدخول إلى مطعم الضباط حيث كان ينتظرهما كل من هوغ دو شامباني، باينس وآرسيس دوبريين.

آرسيس منشغل في نشر قماش أبيض على صندوق من الخشب زينه لاحقاً بثلاثة شمعدانات صغيرة يحمل كل منها شمعة مشتعلة من شحم الثور. ما أن أغلق باسيل الباب، حتى سأله الكونت:

ـ هل تأكدت من عدم وجود أحد في الممرين والغرف؟

ـ طمأنه باسيل أن معظم الحجاج نائمون، وبحارة الليل في القيادة، وجوفروا يتهادى على مقعد يكاد ينكسر إلى نصفين مصدراً قرقعة مزعجة.

قارب الكونت سن السابعة والعشرين. إنه طويل القامة متناسق البنية، مع وجه مربع بشوش تنيره نظرة منفتحة مرحة. قام قبل سفره بحلق شعره كاملاً، زغب أشقر ينبت من جديد على جمجمته شكل فرشاة.

التفت نحو باينس مقترحاً:

ـ فلنبدأ أيها الأخ؟

باينس لايرد مباشرة، بل أحاد بنظره نحو جوفروا هازاً رأسه، محركاً فمه حركة عتابية ماداً شفتيه الرقيقتين.

ـ إذا كان باستطاعة مريضنا الوقوف، يمكننا بالتالي القيام بالاحتفال، تنبه قائلاً.

أصدر جوفروا همهمة مثل قط راغب بأن يثبت لأتباعه أنه لا تنقصه الشجاعة، جلس على مقعده محاولاً الحفاظ على وضعية عمودية ولائقة رغم حركات السفينة المعارضة.

أتى باينس نحوه، وضع يده على جبهته ليتحقق:

ـ جبينك يكاد يشتعل من الحمى.

ـ مع ذلك، قال جوفروا: أشعر وكأن الجليد يسيل فـي عروقي. أنظر إنني أرتجف من البرد!

ـ أغمض عينيك للحظة، طلب منه باينس بصوت رقيق ورزين. كما لو كنت تريد أن تنام!

صمت الفرسان الثلاثة الآخرون لدى رؤيتهم المشهد. كان باينس طويل القامة، هزيلاً، ذي بنية عضلية جيدة. يشير جسمه على أنه يتبع مراقبة صارمة عبارة عن تمارين رياضية وتأمل، وصوم. عيناه زرقاوان شاحبتان جداً، لدرجة أن نظراته الحادة تبدو كنظرات شخص فارق الحياة، فـي حين أن هذه النظرة ثاقبة تشتعل فيها ألسنة اللهب البيضاء.

شعره الكثيف مزين جيداً عالٍ عند مؤخرة رقبته، يسطع بلمعان ذهبي.

أغلق جوفروا جفنيه، بينما يشد باينس على جبهته بأصابعه الناعمة ويقول:

ـ هذا ما كانت تمارسه أختي البكر.. لقد كانت تضع أصابعها على جبهتي عندما كنت أشكو من الإضطرابات فـي المعدة. ثم تقوم بإنزال أصابعها على طول وجهي، ثم عنقي، وصدري لتضعها على بطني. فيما كان يتكلم، بدأ باينس بتكرار نفس الحركات لأخت محبوبة جداً هي كلوتيلد التي توفيت فتية فـي مقتبل العمر.

السفينة تتمايل فـي كل جوانبها، إنه الصوت الوحيد الذي يملأ المربع. ضغط باينس على معدة صديقه ودلكها ببطء، راسماً دوائر صغيرة. ثم شرع بتمتمة جمل لا أحد يفهمها لانخفاض صوته أثناء ترددها، مع ذلك كانت تتلى على شكل أنشودة غريبة تخرج من الحلق، وقد ظن الفرسان جميعاً أنها تخص لغة غير معروفة لديهم.

ـ افتح عينيك مجدداً، أمر باينس جوفروا.

ـ بالله، ماذا فعلت بي؟ اشعر أنني أفضل بكثير... هل قمت بإعادة كل أحشائي إلى مكانها الأصلي؟ أنت مشعوذ حقيقي يا باينس. لم أعد أشعر بذلك المذاق الصفراوي المر فـي بلعومي ولا بذلك التشنج الذي كان يقطع أحشائي!

حاول باينس جاهداً الابتسام. وجهه الصارم تجهم بقوة، لدرجة أن ذلك لم يبدُ إلا كسراب.

ـ قال: يمكننا البدء.

أخرج الكونت من أمتعته صندوقاً صغيراً من الخشب المشدود بالحديد فـي زواياه والمغلق بقفل خشبي، وضع هذا الفرض على مذبح جرى تحضيره على الفور.

شرع الفرسان بتشكيل نصف حلقة فـي تلك الغرفة التي أصبحت معبداً رومانياً صغيراً، تنيره فقط الشمعدانات الثلاثة وفانوس موضوع عند أسفل الباب.

ـ لنتحد أيها الأخوة، يعلن الكونت هوغ بتفخيم، واضعاً يده على الصندوق الصغير. بما أن الساعة قد أزفت وأننا بلغنا العمر المطلوب، لنفتتح أعمالنا..

وضع كل فارس من الفرسان الأربعة الآخرين يده على صدره، راحة اليد على القلب، وأحنوا رؤوسهم بينما يضيف باينس:

ـ على شرف الأول! من أجل نور كلمته. لينيرنا ويرشدنا يسوع الناصري ملك اليهود الـI.N.R.I

تهيأ هوغ لفتح الصندوق الصغير. وقال: ***Igne Natura Renovatur Integra***

أخفض الفرسان يدهم اليمنى على طول قامتهم.

ينطق هوغ بهذه الكلمات: غطاء الصندوق مفتوح.

أضاف باينس فـي الحال:

أقسم بالمثلث، وبسداسي الأضلاع، وبأوميغا والصليب والتاو.

ـ قال هوغ: لقد حانت ساعة أداء القسم و الولاء للتقليد، هل أنتم جاهزون، أيها الأخوة؟ هل تتعهدون بتقديم حياتكم فداء لهذه القضية؟

أجاب الفرسان بصوت واحد:

ـ نعم نحن نتعهد بذلك!

يحتوي الصندوق على خمسة خواتم فـي علبة من المخمل جميعها مزينة بأحجار ثمينة حمراء. بورع وبحركات كلها جدية، وضع الكونت كل خاتم على غطاء أبيض، بحيث أوهج لهب الشموع فجأة بريقها.

ـ قال هوغ: بما أن الأمر كذلك فلنضع هذه الخواتم فـي أصابعنا ولننطق بالقسم...

بصمت وكما فـي الطقوس الدينية، يوزع أربع مجوهرات على أصدقائه ويضع الخامسة فـي بنصره.

وفيما بعد يرفع كل الرجال أذرعهم اليمنى نحو الشمعدانات الثلاثة الكبيرة:

ـ أنا هوغ دوشامباني..

ـ أنا هوغ دوباينس..

ـ أنا آرسيس دوبريين..

ـ أنا جوفروا دو سانت ـ أومير..

ـ أنا باسيل دو هارني..

يتأمل الكونت لفترة رفاقه على التوالي بصداقة رقيقة ويقول:

ـ أقسمت علانية بالمحافظة على سر ابن النور ومنع كائن من كان من الاستيلاء عليه ليستخدمه من أجل نوايا مشؤومة.. واقسم أن أحارب أعداء التقليد. وإذا قضي لذلك أن يحدث، أقسم أن أنهض من الموت لمطاردة أعدائي إلى الأبد عبر القرون. أقسم بذلك!

رددّت أربعة أصوات متداخلة:

ـ أقسم بذلك!

ما أن انتهى صدى قسمهم حتى التفت باينس بقوة:

ـ هل سمعتم؟ هناك أحدهم خلف هذا الباب!

اجتاز الغرفة مستلاً سيفه، وفتح الباب على ظل الممشى، الذي انخرط فيه مثل وحش كاسر.

على وقع خطواته أخذ آرسيس، الفانوس لينير له الطريق .يندهش:

ـ هل أنت متأكد من ذلك؟ومن الممكن أنها ليست سوى فأرة بما أن هذه الأرضية تعج بالفئران!

ـ غير أنه كان لدى باينس الوقت لرؤية أسفل معطف يتطاير على الدرج المؤدي إلى ظهر السفينة. شكل مبهم، شبيه بجناح أسود.

ـ جرذ كبير، في هذه الحالة! يمزح بدوره ويصعد الدرجات أربعة أربعة.

ليل دامس خيم على ظهر السفينة. نور وحيد ينسل من المقصورة الأمامية.

ـ قال آرسيس لاهثاً منهكاً: لا يوجد أحد، هيا بنا لنذهب.

ـ رأيته على الدرج، أليس كذلك؟ إنه معطف أسود..

ـ كلا، لم أر شيئاً. كنا جميعاً منفعلين جداً، ودون شك قد يكون خيالك قد تلاعب بك. إننا بحاجة للراحة والنوم لم نعتد العيش على ظهر سفينة نتمايل ونرقص كثيراً بشكل يفوق مراقنا.

ـ مع ذلك يتابع باينس، أنا مقتنع بأنني سمعته. لقد سمعت وقع أقدام حذائه على الدرجات الخشبية...

لا شيء يتحرك بين الدرابزين والآخر. أعاد باينس سيفه على مضض إلى غمده. فأمسك آرسيس بقبضته مهدئاً من روعه:

ـ سنكون سريعاً في عسقلان وسنصل قريباً إلى القدس لننجز مهمتنا بسرعة.

ـ لقد رافقتنا يا صديقي دون حماس.

ـ بالعكس! أعترف بأني أشتقت إلى هيلين زوجتي الشابة. وكلما أنهينا الأمر بسرعة، سأكون بين ذراعيها.

هو يعلم جيداً أن هيلين ستكون صابرة. لقد قدمت له حبها وريعان شبابها. وهبته سنواتها الستة عشرة لتضمه إلى جسدها وقلبها مثل حبيب أبوي.

ـ تعال يا باينس، لننزل من جديد.

لم يمتنع باينس من تفحص ظهر السفينة للمرة الأخيرة، متأكداً من أنه لم يكن ضحية سراب. من المؤكد حضور أحدهم خلف باب الغرفة. وأنه سمع حقيقة قسمهم.

سار باينس خلف آرسيس الذي ينير له الدرج بفانوسه. «حضور ضار...».

امتنع الفارس من التصريح لرفيقه أنه غالباً ما يكون قادراً على إدراك ما يجهله كل أقرانه. باستطاعة عقله البحث في الحلقة اللامرئية في النفوس المحيطة به. في النسيج غير الملموس للحاضر ـ يتمكن أحياناً من عزل انطباع خارجي، وشعور بعيد...

وهنا، في هذه الليلة، شعر بالشر يلامسه.

*

* *

وبعد تسعة أيام، صعد معظم الحجاج على ظهر السفينة، وتوقفوا على درابزينات الجوانب لرؤية عسقلان التي تظهر خيالاتها وسط الضباب فتبدو وكأنها خيالية تقريباً.

ـ يقال أن الفرنجة أتباع غودفروا دو بويُّون قد ذبحوا أكثر من عشرة آلاف شخص أثناء هجومهم الأول على المدينة، هكذا قال آرسيس دوبريين، الذي التحق بـجوفروا دو سانت ـ أومير، قرب القصر حيث يدير قبطان السفينة عملية الرسو والاقتراب من الرصيف.

ـ نعم، لقد سمعت الكلام عن ذلك، يقول جوفروا الذي عاوده الشعور بالغثيان، إلا أنه أخف وطأة منذ أن عالجه باينس بتدليك البطن مرتلاً عبارات عجيبة غامضة.

ـ ثمة شخص، يحكم المدينة حالياً يُدعى شمس الخلافة وهو لا يسيطر عليها إلا بالاستعانة بـ ببودوين، توازن هش يحيط به خطر الإنهيار بين يوم وآخر.

تدخل الكونت هوغ :

ـ لقد وضع ملك (القدس) حامية من ثلاثمائة رجل قصد مساندة شمس الخلافة، الذي باع نفسه بـ بسبعماية دينار. الشعب لم يغفر له أبداً هذه الخيانة. من جهة أخرى فقد أفلت من عدة محاولات لاغتياله ومنذ ذلك التجأ إلى قصره لا يبارحه.

استأنف آرسيس كلامه قائلاً:

ـ هذه المدينة جاهزة للاشتعال. نحن لن نتأخر فيها. المصريون ما زالوا قاطنين فيها بأعداد كبيرة، والفاطميون يشكلون ويدربون منهم مجموعات مسلحة جاهزة لاجتياح ملجأ حاكمهم.

ـ تنهد جوفروا. لا أفهم كثيراً فـي السياسة!.

ـ تشكل عسقلان نقطة استراتيجية ذات أهمية بالغة، يا صديقي، نوه هوغ.

ـ فهي تمثل خاصة اليابسة! يصرخ جوفروا وهو يلاحظ الضباب الخفيف يتبدد عن الميناء.

صعد باينس وباسيل بدورهم على ظهر السفينة. وفـي الأسفل عند قاعها، انتهى مروضو الجياد التابعين للفرسان الخمسة من جمع أمتعة أسيادهم: خرجٌ من القماش الخشن، وخروج من جلد الغنم وأكياس من الجلد..

فتح باينس ذراعيه وتنشق طويلاً الهواء الفاتر والمالح، ليملأ به وسع رئتيه.

ـ ما أطيب رائحة هذا النسيم! كم يبعدنا وينقلنا من برد بلدنا شامباني!

وعلى الفور، يخفف آرسيس من ذلك:

ـ من جهتي، فأنا أجده يفوح برائحة الدم! دم العرب واليهود والفرنجة.

ـ دون شك يا صديقي، تابع باينس، لكن بالدم يكتب التاريخ. أريد الكلام عن ذلك التاريخ الذي هو حقيقة والذي يجب أخذه كدين، علينا التأقلم فيما لو أردنا فضح كذبة الكنيسة. ثم ينزل باينس ذراعه نحو الأسفل. يلتفت باتجاه الحجاج المتلهفين للوصول إلى الميناء ليهبطوا من السفينة ويضعوا أقدامهم فـي الأرض المقدسة.

«إنه فيما بينهم... الشر، ويتخفى بين الحشد!».

4
لتكن مشيئتك

في ظل إحدى الخيم المستندة على جدار مستودع، أنهى فارسان زينتهما (حلاقة الذقن، غسل الوجه). أحدهما يبلغ الثلاثين من العمر، أشقر الشعر، وجنتاه غائرتان غير محلوقتين، أذناه بارزتان قليلاً، وهو يوحي باللطافة. يغرف الماء من الحوض ملء كفيه ويرشه على جسده بفرح وسعادة.

الآخر أكبر سناً، لون بشرته أقل شقاراً، قامته أكثر ضخامة، وجلده قد لوّحته الشمس، لحية صغيرة سوداء، تهاجم ذقنه المرؤّس، يرتدي قميصاً مصنوعاً من القماش المصفح بالجلد. يشير إلى السفينة التي رست لتوها على الرصيف، ولايخفي بعض العدائية ليعلن:

ـ ها هم أصدقاؤك يا سيلبرت، لقد انتظرناهم طويلاً! أنا في عجلة من أمري لأعود إلى القدس.

إستدار الفارس الأول، نظر بدوره باتجاه السفينة وقال:

ـ أنت لا تطيق رؤية الشامبانيين، وليس لهم محل في قلبك يا لونغمور، الأمر واضح من نبرة صوتك.

ـ الواقع، لا أخفي عليك أنني كنت أفضل رؤيتهم مع جيشهم إلى جانبنا عند احتلال المدينة المقدسة، لكنا فقدنا عدداً أقل من رفاقنا الطيبين.

ارتدى سيلبرت ثيابه على عجل متلهفاً للذهاب لاستقبال ضيوفه، بينما أخذ لونغمور وقته ليعقد حزامه، وليرتب غمد سيفه و يلبس سرواله.

هبط الحجاج بمجموعات صغيرة من السلم الصغير المتدلي من السفينة رهباناً، وكهنةً، وفرساناً.

ـ قال باينس مشيراً بإصبعه إلى طائر الخواض الذي يجري نحوهم بسرعة. شاهدت ابن

عمي سيلبرت، شعر كث على شكل غابة وذراع تخفق في الهواء لتمييزه بين القادمين الجدد.

ـ أعرفه. ومنذ قليل! لاحظ الكونت بخشونة.

ـ من المفترض أن يكون بودوين غير راض لأنه لم يستقبل سوى خمسة حجاج مصحوبين بحفنة من مروضي الخيول، أشار باينس، فهو لا شك، يفضل أن يسافر كونت شامبانيا على رأس مجموعة كبيرة العدد!.

ـ بالنسبة للجميع نحن نحضر إلى هنا بصفة شخصية. والأمر أفضل كذلك.

كل واحد من الفرسان الخمسة يصحب معه مروضاً للجياد. ما أن وطأت أقدامهم الرصيف حتى هرع سيلبرت نحو الكونت، ماداً له يده بحركة تنم عن صداقة.

ـ أيها السير هوغ ، أنا سعيد جداً بمصاحبتك وضمك لي.

ـ الشيء نفسه بالنسبة لي، أيها الأخ. وجه صديق هو إراحة لكل من تطأ أرجله هذه الأرض المجهولة. لاسيما أنني لست معتاداً على الأسفار.

ومن ثم يرتمي سيلبرت الودود على باينس ليعانقه ملتهماً خديه من أعماق قلبه.

ـ ابن عمي! ابن عمي الطيب! يا له من يوم سعيد أليس كذلك؟ لقد مضى على هذا ثلاث سنوات.. كلا. أربعة.. نعم أربع سنوات ولم نر بعضنا! وأنت لم تزدد بدانة. هل تتغذى دائماً بالكستناء، وماء المطر، والخبز اليابس؟

تعانق باينس وسيلبرت، الرجل الطيب، عناقاً حاراً للغاية.

آرسيس، جوفروا وباسيل وقفوا جانباً يتمتعون برؤية هذا المشهد ويبتسمون بالرغم من مظهرهم المشوش، المنهك من عناء السفر. أما مروضو الجياد فقد وضعوا أمتعتهم الثقيلة على الأرض للانتظار عبثاً ودون تعب ريثما تنتهي هذه العواطف اللامتناهية.

عندئذ قاد سيلبرت المجموعة نحو مقر الصليبيين الآتين لانتظارهم. بدأ البعض بتحضير الجياد، لم يتحرك لونغمور ناظراً بازدراء إلى الشامبانيين وهم يقتربون.

مشى باينس والكونت هوغ على وقع خطى سيلبرت بصوت منخفض، بطريقة لا يسمعه فيها الخدم، يسأل باينس ابن عمه:

ـ هل تقدمت أبحاث بودوين؟

رفع سيلبرت كتفيه.

ـ لم يتوقف المهندسون والحفارون عن التنقيب في الهيكل، مقتنعين أنهم يعملون في البحث عن كنوز سليمان.. لقد وجدوا بعض الآنية الذهبية، والجرار، بالنسبة للجميع فإن قبر المسيح قد حُرر. إلا أن بوسلين، الرسول البابوي لم يتوقف عن حض الملك على الإسراع في الكشف عن مكان الكهف حيث قبر الدجال.

شدد هوغ أن البابا باسكال يموت رغبة في أن نسرع.

ـ وقال سيلبرت: من الواضح أن بوسلين يعرف سبب مجيئكم.

ـ لقد أوصى باينس: علينا أن نتصرف بكثير من السرية والفطنة، وأن لا نثق بالصليبيين.

صمم لونغمور دون رغبة على مغادرة خيمته ليظهر قليلاً من اللياقة حيال الشامبانيين.

فـي الحال بدأ سيلبرت يهمس له:

ـ لا تنطق بأي كلمة، هوذا الفارس لونغمور أحد المخلصين لبودوين. إنه جندي شجاع بارع، كنت إلى جانبه عند الاستيلاء على المدينة المقدسة. إنه جزار بحق.. لقد ذبح خصومه ببراعة تفوق براعة الجزارين. كم تمنيت عليك رؤيته وهو يمشي فـي برك الدم، باقراً وخاطفاً رؤوس الرجال والنساء والأطفال! لا يكل ولا يمل! وهو راض عن عمله..

ما أن وصل لونغمور على مقربة منهم حيا المسافرين:

ـ أهلاً بكم أيها السادة. جيادكم جاهزة، سننطلق فـي الحال. لا مبرر للانتظار فـي هذا العش الذي يضج بالمصريين.

تأفف باسيل واضعاً يده على جبينه. وجوفروا بدا قلقاً:

ـ هل تشعر أنك لست على ما يرام؟

ـ كنت أفضل الاستراحة قليلاً قبل أن امتطي الجواد. أجهل ما يحصل لي. الحقيقة أنني أشعر بالوهن والتعب.

ـ قال جوفروا: أعطني ذراعك، وأمسك به بقوة.

دخل الرجال إلى حظيرة الخيول وسط السور. آرسيس الذي راقب باينس لبضع دقائق، سأله:

ـ أنت لا تتوقف عن الالتفات يمنة ويسرة كما لو كان لديك شبح يلاحقك!

ـ هذا هو الواقع! الرجل الذي أبحر معنا فـي تلك الليلة،و..

يكفي! نهره آرسيس، أنت الوحيد الذي سمعه. حتى أنك لست متأكداً من رؤيته. شرع المروضون بشد وثاق أمتعة أسيادهم على ظهور ثلاثة بغال مطياعة.

أبعد من ذلك المكان يقف شبح فـي ظل مشعل منزل للبرص، يرتدي معطفاً و قبعة، ينظر إلى الفرسان الخمسة وهم يمتطون جيادهم. وضع هذا الشبح يده اليمنى على قبضة فأس قاطعة مربوطة إلى وسطه وهو يتلفظ بـ:

ـ لتكن مشيئتك!

ثم تتخلص يد المجهول اليمنى المغطاة بالقفاز من قبضة الفأس ليرسم صليباً خيالياً قبالها منطلقاً من جبينه أربع نقاط محددة بدقة وشدة وضوح.

ـ لتكن مشيئتك ! ردد الشبح.

5
كابوس سيلبرت

غادرت الجماعة عسقلان متجهة نحو بيت غوفرين حيث كان من المفترض أن تتوقف لوقت قصير قبل الانطلاق إلى القدس.

خيّل الفرسان الشامبانيون الخمسة مجتمعين، وابتعد باينس عنهم قليلاً ليتكلم مع ابن عمه سيلبرت دون التوقف عن إلقاء نظرات خاطفة حذرة على باسيل لوهارني الذي يبدو وكأنه يتألم جداً على دابته محركاً رأسه برفق، ومستعملاً كم ثوبه لتنشيف عرقه وجاهداً بالرغم من كل شيء بهدف الظهور بمظهر جيد و بابتسامات يشوبها الألم.

- يا ابن العم لقد لاحظت خاتمك، يقول سيلبرت، وهو تماماً مثل الذي شاهدته في يد أصدقائنا، سوف تكون هي الخمسة عما قريب ذات سلطة مخيفة.

- اخفض صوتك، يا صديقي، يكرر ذلك باينس في الحال. أجل، إنها سلطة، أقسمنا الحفاظ عليها ولو خاطرنا بحياتنا. كالذباب انجذبوا، بفضل لمعان بريق هذه الجواهر من الياقوت الأحمر، يدورون حولها بجشع.

- باردي! إن الرهان كبير. فضل هذه القوة، معلمنا الأول، كان عليه إمساك العالم ووضعه في راحة كفه! علي أن أفضي لك بشيء.. يحدث لي أن استيقظت من نومي مذعوراً في الليل، مأخوذاً بكابوس مخيف مزق أحشائي وجعلني أتقيأ.

فجأة صار وجه سيلبرت شاحباً، وتابع بصوت مرتجف:

- وهذا، منذ أن أوكلت السر! يوم انتسابي. كابوس يبدو قريباً من الحقيقة، لدرجة أنه يجب علي في كل مرّة إشعال شمعة، والتأكد من أنني فعلاً على فراشي، و اني أتنفس، وأن كل أطرافي تعمل كما منحتهم الطبيعة تلك القوة.

أخفى باينس نفاذ صبره. فهو يحب ابن عمه كثيراً ولا يستطيع لومه على الإسهاب غالباً في أخباره.

تابع سيلبرت بعد أن ملأ رئتيه بالهواء:

ـ الحقيقة إنه حلم غريب جداً، أنا وحيد.. وحيد فـي مقبرة موحلة يصفعني مطر متجمد بارد. القبور تختفي فـي الوحل، صلبانهم تكسرت تحت هجمات العاصفة. أسير بصعوبة فـي مربط الطمي الأسود والإسفنجي الذي تغوص به قدماي، مما يرغمني على بذل مجهود كبير فـي السير نحو الأمام بغية الوصول إلى حفرة مفتوحة. قدرة غير مرئية تجبرني على الذهاب إلى أمام ذلك القبر فـي بكاء ونحيب وعذاب يضج بالصراخ، بالبكاء وبالصلوات المرتلة بلغة غير معروفة. لكن أكرر لك، باينس، أنني وحيد. الزعيق، الأنين، الشهيق تصدر عن الأموات الذين ابتلعهم الوحل!

توقف الشاب قليلاً عن الكلام. شفتاه تنضمان إلى بعضهما، دموعه تنهمر على خده. حاول باينس الظهور بأنه لم يره. أشاح بنظره عنه ليتفحص باسيل لو هارني المصاب بآلام مبرحة وهو على صهوة جواده، الذي بالكاد يتحكم به.

تابع سيلبرت:

ـ عندما وصلت إلى حافة القبر، انحنيت ببطء خائفاً مسبقاً من فكرة ما سأكتشفه فيه رأيت! جثة الدجال المفسخة ينظر إلي بعينيه السوداوين مثل حبر الكتابة. يبتسم لي! ثم ينتصب، العظام بارزة من جسده الذي يسقط قطعة قطعة. يداه وقدماه مثقوبتان بفعل المسامير، ويرقات الذباب تعج فـي جروحه. أردت الصراخ وطلب النجدة، والهرب. بينما أبقى هناك متسمراً دون حراك. الميت ينتصب الآن أمامي، يكشف عن أطرافه المعذبة ويهمس لي: «أنا من يحمل سر أخيه!» ثم يضع يداً باردة على جبيني ليرسم عليه إشارة الصليب.

ـ إن ذهنك مرهف جداً فـي رقادك، يا ابن العم! ابتسم باينس معطياً لصوته نبرة مطمئنة.

ـ أنت تهزأ بي! ألا تظن أبداً أن مهمتنا يمكن أن تجذب نحونا ثمة لعنة؟

ـ بالعكس، نحن نبحث عن وقاية البشر من سلطة قد يستخدمونها كسلاح مخيف. لمعلمنا الأول، الفضل فـي وضع الختم على هذه المعرفة فـي الصلصال والتصرف بذكاء. إن من سيستخدم علمه بجشع يفتح أبواب الجحيم.

ـ دون شك.. نعم.. دون شك، فـي الواقع! ينفخ سيلبرت.

باينس يقرب حصانه إلى جانب حصان ابن عمه وينحني إلى الأمام ليقول بصوت منخفض:

ـ لا تعذب نفسك بهذا الشكل. لقد مضت تقريباً عشرة قرون وأخويتنا تسهر وتراقب.

ـ طبعاً. هذه المرة لا شيء يمنع أن يكون التهديد شديد اللهجة.

ـ نعم، إنه البابا! يقر باينس ثم التفت إلى اليمين واليسار ومن على جانبيه. التهديد سيأتي منه.. هذا إن لم يكن قد حل علينا!

الشامباني يراقب الطريق مطبقاً أجفانه بسبب ضباب غبار الرمل الذي تثيره القافلة. يناديه الكونت قائلاً:

ـ سوف تخلع رقبتك بممارسة لعبة ديك الحبش هذه، أما زلت تبحث عن شبح السقيفة؟

ـ ليس من عادة صديقنا باينس التخلي عن فكرة تقفز في رأسه. أضاف جوفروا دو سانت ـ أومير.

هزّ باينس كتفيه تاركاً موجة استهزاء رفاقه تمر عليه لتتدافع فيما بينهم بنوع من الفكاهة.

حتى باسيل لوهارني بالرغم من الحمى، دخل في اللعبة. لسانه ماهر في هذا النوع من التمرين.

بعد قليل من الوقت، تدخل سيلبرت، لمساعدة باينس وقال متفاجئاً:

ـ ألا تجيبهم بشيء، ابن العم؟ إنهم يذرون الطحين على فمك وأنت لا تنطق بكلمة!

ـ ماذا تريد أن أقول لهم؟ أجابه الشامباني، هل أقول لهم أنه بالرغم من مظاهرهم الكبيرة وبدانة بعضهم.. فإنهم ليسوا إلا متعجرفين فارغين؟ انظر مثلاً إلى جوفروا، هذا الدب السمين الدحداح تقيأ طيلة سفرنا، معدته كادت تتقلب من الصباح إلى المساء. كنت تراه يتباكى ويندب نفسه. أو آرسيس هذا البحاثة والناسخ الكبير الذي يتبجح ويدعي أنه الأكثر ذكاءً فينا، يشتكي كل مساء أنه ترك زوجته الشابة في القرية. ألا تعتقد أنه يتصرف مثل عاشق كئيب! انظر يا باسيل: هذا الفارس القوي المعتاد تماماً على الأراضي الرطبة في شامبانيا، يشكو من الإعياء لدى أول شعاع قوي للشمس. كنت تخاله صخرة، لكنه ليس إلا حصاة! أما هوغ: هذا الموظف الكبير الذي يمكنه أن يثني على الملك فإنه يصفق بيديه فقط، وهذا الكونت البارز، المتنفذ، المهاب الجانب والمحترم، تؤلمه مؤخرته على سرج حصان، ويشبه أي حاج عادي، أنت تخاله عملاقاً، بينما يصر بأسنانه وينوح مثل أي شخص عادي من المسافرين!

ـ أقسم بالقديس يوحنا المعمدان، يتعجب سيلبرت، ليس بمقدوري قبول هذه الاستهزاءات! سيكون ذلك إنقاصاً من الاحترام للفرسان الذين دربوني، وأسرّوني، وقبلوني في أخويتهم. عندما طلبت منك أن تعارض، فلم أكن أظن أنك ستتجاوز الخط..!

ضحك جوفروا دو سانت ـ أومير بقهقهة عالية لم تلبث أن تحولت بسرعة إلى سلسلة

من تقلصات البطن، واسترجع نفسه قبل توجيه كلامه إلى سيلبرت: ـ يمكنك المزاح بقدر ما تشاء علينا! أنت جزء من عائلتنا. نحن بشر عاديون وباينس لم يقل سوى الحقائق.

أضاف الكونت هوغ :

ـ نحن لسنا إلا بشراً، مثل الدجال الذي كنت تراه في كوابيسك.

ـ آه، هل سمعت أيها السيد؟ اندهش سيلبرت.

استلفت باينس:

ـ لم يكن بحاجة لفعل ذلك، يقرأ هوغ على الشفاه، بعض القضايا السياسية الدقيقة التي اتضح أنها ذات فائدة كبيرة؟.

6
تألق النور

توقفت القافلة على أبواب بيت غوفرين.. .

أعطى لونغمور الأمر إلى الرجال بالترجل والنزول عن صهوة جيادهم وإملاء قربهم من ثلاثة آبار محفورة في الصخر ذات الكلس الناري القاسي، قرب السور الغربي للمدينة. هرع مرؤّض الخيول باسيل لوهارني ليساعد سيده في النزول عن دابته، فوجد الفارس في حالة صعوبة في التنفس، يشكو من ألم في صدره، أضحى حملاً ثقيلاً يجثم عليه.

ـ رويداً أيها السيد، قال الخادم الشاب ماداً ذراعيه النحيلتين، استند عليَّ...

جوفروا دوسانت ـ أومير وآرسيس دوبريين هرعا لمساعدة الفتى الذي كادت بدانة باسيل أن تسحقه.

بعد قليل حضر الكونت هوغ وباينس منفردين، راقبا المشهد ممسكين أنفسهم عن الضحك. ذلك أن صديقهم، بالرغم من هيئته المريضة، يميل إلى الاستهزاء. يبذل شجاعة كبيرة للبقاء وقوراً ومتعالياً لدرجة أن منظره مثير للشفقة.

ـ عليه بذل جهود قاسية كي لا يبقى مكبلاً بالخجل، همس باينس في أذن الكونت.

أعترف أنه ليس من اللائق أن كرماً منا أن نتسلى على حساب باسيل الجدي، لكنني أقر بأنه يوحي لي بالضحك أكثر من الشفقة في وضع كهذا.

اقترب سيلبرت ساخطاً:

ـ أنا لا أقرأ ما بين الشفاه! مع ذلك فإن سمعي مرهف جداً لكي أسمع النقد الموجه إلى رفيقي الذي يتألم!

ـ يا لك من ابن عم محبوب وظريف، قال باينس واضعاً يده على كتف الشاب.. من واجبنا لا بل علينا نحن الخمسة أن نتسلى ونلهو.

ـ لا أفهم، قال سيلبرت.

ـ انظر جيداً الفريق الجيد من الفرسان الذي نشكله..أضاف باينس. ألم أصفه لك منذ قليل؟ وأعد نفسي ضمن المجموعة! ها هي، جماعة الأول.. فارس بلا سلاح، أربعة فرسان دون بيارق، وخمسة من المروضين غادروا الطفولة لتوهم، وفتى شجاع جاء اسمه من هذا القديس المغمور المسيحي سيلبرت! هيا، لنقل جميعاً أن الأمر أفضل هكذا و أننا نخدع بسهولة عالمنا حول هدفنا. من المفضل أن يخالنا بودوين وبلاطه كحجاج عاديين بسطاء.

ـ لا تحسب بودوين أحمق، قاطعه سيلبرت، أراهن أن الشك يداخله حيالكم أنتم الخمسة. لنراهن أن يكون بوسلين البخيل قد أعلمه. وأنت أيها الكونت هوغ ، شهرتك كبيرة جداً ووجهك يوحي بالاحترام والوقار للكثير من شجعاننا. وأنت يا باينس، أنت تثير الشكوك بالسر الذي يحيط بك وتقيم حولك بخبث درعاً متيناً! أما باسيل، جوفروا وآرسيس، مع أنهم مغمورين. لكن عليهم الكثير من الملاحظات. قلت ذلك وأنت تهزأ يا باينس: المعرفة لدى آرسيس تفرض نفسها وذهنه يتوافق مع ذلك لاستيعاب العلوم والفلسفة، بعض أعماله التي قام بتفسيرها الرهبان الصليبيون، سبق أن أصغيت إلى هؤلاء وهم يحللون كلام أخينا في الأمسية الأخيرة. أعترف أن النقاش مرّ من فوق رأسي محدثاً صوت طيران الحمام!

تكلم سيلبرت بشكل متواصل دون أن يلتقط أنفاسه. عليه أن يَتنفس. أسرع قبل أن يتمكن باينس و هوغ من مقاطعة كلامه. فقد عاد إلى خطابه بصوت لاهث كما هي عادة الثرثارين:

ـ لنأخذ الآن حالة جوفروا، طبعاً. أوافقه أن قامته ليست فارعة، توحي بأن الرجل يتلذذ بأكل اللحم الطيب مع النبيذ! لقد تمكن برمحه من تحطيم أكثر من درع أو ترس وكسر أرجل العشرات من الخصوم. كان الناس يحضرون من مسافات بعيدة للتصفيق لمنجزاته في المباريات! إنه أشبه بالجبابرة ويسحر عقول النساء أكثر مما لو كان من أكثر الرجال جمالاً وأناقة. لنضف إلى هذا «الطاقم» ـ لأنك هكذا تسميه يا ابن العم ـ المحترم باسيل. نعم المحترم! الذي يستعمل الصلوات مثل السيف. الذي كرس حياته للتأمل والأسلحة. يلتزم الصمت غالباً، غير أن تفكيره لا يتوقف أبداً و..

ـ حسناً، سيلبرت، تمكن باينس من القول. لقد نسجت لنا تيجاناً من الغار بدغدغتك لكبريائنا وما يثلج الصدر.

ـ أنت ترانا بنظرات الاحترام يا صديقي، قال هوغ :

ـ دون شك لأنكم أشخاص محترمون، أكد سيلبرت. وستكونون قريباً مالكين لأروع المعارف في هذا العالم الأرضي.

اقترب لونغمور، مجبراً الشاب على السكوت ولكي يعطي لنفسه بعض الهيبة، أخذ واحدة من القرب المعلقة إلى سرج حصانه.

لكن لونغمور أوقفه بينما كان يتهيأ للذهاب إلى واحد من الآبار الثلاثة.

ـ كانت لكم هيئة المتآمرين أنت والشخصين الآخرين من شامبانيا، أيها الرفيق!.

ـ لقد كنا نتكلم عن بلادنا.

ـ لو كنت مكانك لرثيت لحالة هذا الفارس المسكين الذي لا يبدو أنه يتحمل جو وهواء هذه المنطقة.

ـ سأذهب بحثاً عن الماء، إنه عطشان. طبعاً سيكون بحالة أفضل عندما نقدم له سريراً ليستريح فـي القدس.

انتظر لونغمور سيلبرت المتوجه نحو البئر، متبوعاً برفقة ثلاثة مروضين مدربين من جيش الشامبانيين حاملين القرب.

باينس وهوغ اللذان عكرت صفوهما انتقادات سيلبرت، التحقا بصديقهما. باسيل جالس على الأرض تاركاً جوفروا يفتح جزمته ويخلع جواربه الطويلة بينما آرسيس يقدم له بعض الطراوة باستعمال ثوبه كمروحة.

ـ أنت ترتدي عدة طبقات من الثياب، لامه جوفروا. بمقدار حرصك على حماية نفسك، أنت تمنع جلدك من التنفس.

ـ أنا لا أشبهك، هذا صحيح، تمتم المريض. لن أقدر على التجوال مكشوف الصدر كما تفعل أنت، وشعر صدرك ظاهر للعيان!

ـ الله، فـي حكمته الكبيرة والجميلة، غطى الرجل بالوبر والشعر ظاناً أن هذا الأخير لن يرتدي زياً مضحكاً. ردّ جوفروا، ووهب المرأة شعراً جميلاً كزينة وحيدة. لو لم يرتكب آدم وحواء الخطيئة لكنا اليوم نمشي عراة فـي الطرقات ونأخذ من ذلك درساً جميلاً فـي المساواة بين الرجال والنساء.

هزّ باسيل كتفيه راسماً ابتسامة خفيفة على شفتيه.

باينس يحضر ليركع أمامه.

ـ أغمض عينيك واسترخ، طلب منه ذلك وهو يضع يده اليمنى على الجبين.

ـ آه، ستمارس سحرك علي هذه المرة؟

ـ ليس سحراً.

ـ هذا يشبهه.

ـ لا تتكلم أبداً.

وضع باينس يده الطرية على جبين باسيل الساخن، فهدأت لمساته من روع الفارس. بيده اليسرى، بحث باينس عن نبض المريض فـي عنقه. وبعد أن وجده بسرعة بدأ بالعد:

ـ 1، 2، 3، 4.

تركت اليد اليسرى الوريد، وانتقلت نحو الصدر وتوقفت عند موضع القلب. أصيب باسيل برجفة قوية، اخترقت قلبه وخزة باردة، ومسماراً رفيعاً طويلاً من الفولاذ، وسهماً سريعاً. ألم جسدي قصير المدة فحسب، قد اختفى.

ـ 5، 6، 7، 8.

باينس بدوره أغمض عينيه. بينما كان يقوم بحركاته التي علمته إياها أخته، شعر بحزن خفيف يجتاحه، ورم في بلعومه، استولى على جسده. اغرورقت عيناه بالدموع. لرؤيته وجه حبيبته كلوتيلد تبتسم له في الظلمات.

ابتسامة فائقة الجمال غير واضحة المعالم، تحيطها السعادة والأسى.

ـ 9، 10، 11، 12.

يد باينس اليمنى تتخلى عن جبين باسيل. تنسحب اليسرى من على صدره.

ـ افتح عينيك وانظر إلي.

ارتفعت أجفان باسيل ببطء، مثقلة بنعاس قصير وغير طبيعي.

ـ أؤكد لك ما سبق أن قلته عنك: أنت ساحر! همس المريض. لدي الشعور أن توعكي يتلاشى. طبعاً لا أؤكد أنني شفيت تماماً، ولكني أعتقد أنه بمقدوري التأقلم والصعود مجدداً بسهولة على ظهر الجواد.

بعد وقت قصير، وقف باينس، يلاحظ صحابه على وجهه علائم التعب والإجهاد، فجأة، يرونه يبتعد ويداه مسدلتان، وجبهته مثقلة. تبعه هوغ ،آخذاً بذراعه ويسأله:

ـ ماذا دهاك يا باينس؟ عليك أن تكون راضٍ عما قمت به، لكنك تبدو أكثر شحوباً من شبح...

ـ اعذرني. لا تقل لهم شيئاً. علي أن أفضي لك بسرّ: الهبة التي أورثتني إياها أختي قد تبدو حملاً ثقيلاً:

شفاء من هم يتألمون والبحث عما في داخلهم، والإمساك بالمرض وإخراجه جزئياً من جسدهم أو من عقلهم، إنها مهمة صعبة منهكة. تضعف طاقتي، فهي أشبه بكائن يتغذى من دمي.

ـ صديقي، يا صديقي الطيب..الكريم!

زاد هوغ من ضغطه على قبضة باينس:

ـ سأذهب وأتمشى قليلاً. رافقني.

سارا ببعض الخطى بصمت، فالتقيا سيلبرت والمروضين المدربين عائدين من الآبار.

يسيران بمحاذاة السور الذي يحمي المدينة التي لن يدخلوها، والتي ستبقى الى الأبد في ذاكرتهم كمدينة ميتة- محروقة بأشعة الشمس.

ثم قال باينس:

- أفكر بزوجتي، بابنتي وابني. أنا مشتاق لهم جميعاً.

- نعم أنا أيضاً مشتاق لعائلتي، أدرك التضحية التي قمت بها بانضمامك إلي للقيام بهذه الرحلة.

- هل كان لدي خيار؟ لا أنا ولا أنت. ولا أخوتنا. واجبنا هو حفظ وصيانة المستقبل. السرّ الذي دفنه الأول في قبر الدجال، يمكن أن يكتشفه بودوين وهذا عمل خطير للغاية.

- لا يعرف أين ينقّب.

- سيبحث ويفتش.

- طبعاً، لكن لدينا عامل الزمن. بالنسبة له فهو إلى جانبنا، سوف نسبقه دون صعوبة.

- ومع ذلك فأنا قلق، قال باينس بعد أن توقف عن السير.

- شبح الباخرة؟

- ألا تعتقد أنني رأيته، أليس كذلك؟

- بالعكس أنا متأكد أنك رأيته، شدّد الكونت:

- حسناً، لماذا سخرت مني بهذا الخصوص، أحياناً؟

أمسك هوغ صديقه من كتفيه وأجابه مبتسماً:

- لقد فعلت ذلك حتى لا نحذر أخوتنا. إنهم أصلاً يحملون حملاً ثقيلاً على أكتافهم، آمل أنني قد أخرّت لحظة إرسالهم إلى المعركة.. هذه اللحظة ستأتي قريباً. ما أن ندخل القدس! نعم عندما سنكون في المدينة، علينا أن نخشى على حياتنا عند كل خطوة.

أنزل الكونت يديه عن كتفي باينس، حركته مصحوبة ببريق أحمر. هناك لهب متوهج وفجائي ترك أثره في المكان. إنه انعكاس أشعة الشمس على ياقوت خاتمه.

من مكانه بهت لونغمور بهذا اللمعان. تساءل ما إذا كان من يتبع القافلة لحظ اللمعان. تلفت يمنة ويسرة، فلم ير شيئاً. لا أثر لأي شبح في وهج الحر. مع العلم أنه يعرف جيداً أن رسول البابا باسكال يسير في أعقاب فرسان شامبانيا.

عرف أن مهمته تقضي قتل الخمسة أجمعين.

7
الرسول البابوي

القدس

آرسيس دوبريين، يفتح ذراعيه بحركة دائرية واسعة وكأنه يحتضن المدينة، معطياً الإنطباع أنه يملكها كلها، معانقاً إياها بشغف لم يعهده أصدقاؤه عليه.

وبدأ القول بصوته الرزين البطيء: إنها مدينة اليهود! ذبحهم تيتوس، ونفاهم في العام سبعين. لقد هدم الأسوار، المعابد، والمساكن. لقد أضعف الشعب العبري في كامل الإمبراطورية، وقطعت جذورهم. إن الإمبراطور هادريان هو الذي أمر بإعادة بناء المدينة تشريفاً للرومان، معابد وثنية تنهض مكان الأماكن المقدسة. ثار اليهود مرة أخرى وتعرضوا لاضطهاد آخر...

ـ أليست أم قسطنطين هي من حاولت العثور على بقايا الآثار المقدسة؟ سأل الكونت هوغ.

ـ بالفعل، ردّ آرسيس. فيما بعد منذ ستة قرون.. أحدد هذا التاريخ من أجل الجاهل جوفروا، الذي نادى دائماً بأن تاريخ الدجال لم يكن سوى كلام هراء غير مستساغ، أكاذيب كثيرة وأخطاء، لا تجد فيه الحقيقة مقرها.

ـ يكرر جوفروا: وأنت لن تجبرني على تغيير رأيي. إنني أتمسك بمواقفي بالرغم من تبحرك ومعرفتك والطريقة الماهرة التي تستخدمها لبثها ونشرها.

تابع آرسيس:

ـ أنت لست سوى شخص بليد الذهن، القدس تستحق أن تعرف ماضيها، إنها الطريقة المثلى لاحترامها. لقد تألّمت آلاف المرات، اغتُصبت، مُزقت، سلبت ونهبت، من قبل الرومان، الفرس، والعرب. ثم من قبلنا، اليوم نحن الصليبيين، الذين أرقنا شلالات من الدم في شوارعها، دون تمييز بين الجنسين. نساء ورجال ذبحوا، وباستطاعة سيلبرت

أن يحكي لنا المجزرة التي قام بها الفرسان المباركين من البابا.

على وقع هذه الكلمات، أحنى سيلبرت رأسه. تنهد بعمق قبل أن يصحح جلسته. لاحظ الشامبانيون الظل الرطب الذي يغشى نظرته. يقول الشاب:

ـ رأيت في المعارك التعبير عن الطبيعة البشرية المخيفة التي يظهرها أحياناً أبناء الله!

ـ هذا، ما أكده جوفروا، وتصوره بسهولة، تابع سيلبرت:

ـ جرى احتلال المدينة بينما كانت الشمس في قبة السماء عند الظهر. كانت الحرارة في أوجها نشتوي تحت دروعنا. كنا جميعاً نلهث. بالنسبة لي، شربت أكثر من المعقول لأخنق خوفي. كنت ولونغمور من المجموعة التي مهمتها المرور عبر السور الشمالي. حيث فتح جنود سلاح الهندسة فجوة فيه سمحت لنا بالانتشار في المدينة. يا إلهي أية مجزرة! غمرت لونغمور لذة شيطانية في قطع رؤوس الشعب، طارد النساء والأطفال حتى بيوتهم. رأيته حتى وهو يقطع أطراف الرضع صائحاً صارخاً بصوت فاحش مخلٍّ بالحياء.

من جهتي كنت أكتفي بفتح الطريق أمامي بقتل الرجال فقط، بسهولة نصل هذا المستوى من التناغم في هذا النوع من العمل! قريباً يدخل الصليبيون بأعداد كبيرة المدينة. كنا نتعثر بالدم والأحشاء الملقاة على الأرض.

عصابة من القساة أكثر سكراً مني، انقضوا على الجثث التي قطعوا رؤوسها والأيدي ليصنعوا منها أهراماً صغيرة. لقد قتلنا. قتلنا دون توقف، منهجياً، كما لو أن الأمر أصبح طبيعياً. كنا وحوشاً كواسر. ذئاب حمقى تنتزع الأحشاء دون تمييز بين المسلمين واليهود، حارقين الجوامع والكنس. كانت الدماء تسيل أنهاراً في الشوارع، وقد تحولت بفعل الشمس إلى دماء لزجة. معطفي وثوبي كانا ملطخين بالدم، حمراوين.. ويداي أيضاً.. محمرتان! من دم الأبرياء.. دم النساء والأطفال. يتوقف سيلبرت لحظة، بلعومه مشدود، العينان مغرورقتان بالدموع. ثم يضيف:

يقال أن تعداد سكان القدس كان ثلاثين ألفاً قبل أن نقتحمها، وثمة إحصاء حديث أمر به بودويين يقدر العدد بأربعة آلاف.

جفف سيلبرت عينيه بثنية كمه، تاركاً الإنطباع بأنه يريد متابعة الرواية، غير أنه يصمت.

الشامبانيون التزموا الصمت أيضاً إلى أن أشار آرسيس بسبابته إلى الأمام وتعجب، رافعاً صوته ليبدو شبابياً:

ـ انظروا إلى هذه الأعجوبة، قبة الصخرة، التي شيدها المسلمون أيام الخليفة الخامس من سلالة الأمويين الذين جدهم أمية، كان جد النبي محمد! انظروا كيف أن الضوء الذي ينعكس منها قوي جداً ويكاد يعمي البصر. أليس عملاً عظيماً؟ أقول لكم يا أصدقائي: لدينا الكثير لنتعلمه من المعماريين العرب، يجب أن أكون الغربي الأحمق والمتعجرف بأني اعتبرت هؤلاء الناس برابرة متوحشين.

هوغ، باسيل، وباينس يوافقون بإشارة بالرأس أو بابتسامة رضا، اكفهرّ وجه جوفروا،

متجنباً إعطاء رأيه حتى لا يتلقى الانتقاد، إن ذهنه كمحارب، لا يخوله تقدير قيمة العمارة بإحساس مرهف، إنه لا يفقه شيئاً في الفنون. لو أنه حرر (القدس) لشرع طبعاً بقتل المسلمين حتى أقصى حدود قواه. ليس بدافع الحقد فقط. في نهاية المطاف ماذا يعرف عن هؤلاء السكان الأصليين؟.. ليس من قبيل الكره بل فقط من باب الوفاء والاحترام لمهنة إتقان السلاح.

بعد اجتياز باب يافا، الذي حصنه الصليبيون بشعرهم الأشعث والقذر، شقت القافلة طريقاً بين الجموع الغفيرة والصاخبة والنشيطة. كانوا يتفرقون عند مرورهم. لونفمور دفع جواده، يخالجه شعور باللذة لدى إسقاط التجار والمتسكعين أرضاً ومعهم القرويون والحجاج.

أخيراً اقتحم الجيش الأسوار ودخل المدينة حيث ينتصب برج داوود والمسجد الأقصى. ترجل الرجال عن جيادهم التي تركوها للمروضين المكلفين بسوقها إلى الإسطبلات.

فتى هزيل البنية يطفو داخل ثيابه الفضفاضة، الوجنتان غائرتان محلوقتين بشكل سيء، حضر للقاء الشامبانيين. يسير خلفه على بضع خطوات رئيس دير وأيضاً هناك في البعيد فارسان.

ـ هوذا بودوين ملك القدس، أعلن سيلبرت: انظر، يا للعجب، إن بوسلين لا يرافقه.. كنت أظن أن نائب البابا كانت لديه اللياقة الكافية للتعرف عليك بنفسه أيها الكونت! لكنه بالمقابل، أرسل كاهناً عادياً وجهه مليء بالبثور!.

ـ لست متبجحاً لدرجة أنني مستاء أو مصدوم، طمأنه الكونت هوغ.

ساعد جوفروا باسيل على إخراج قدميه من الركاب، وبودوين الذي اقترب من المجموعة، اكتشف حالة الفارس. لقد تأثر بها بصدق:

ـ هذا الرجل ذو هيئة حزينة!

ـ إنه كذلك منذ بضعة ساعات، أيها السيد، قال باينس. يلزمه علاج جيد.

يلتفت الملك نحو الفارسين برتراند وآندريه اللذين التحقا به:

برتراند طلب بوجه السرعة أن يأتي طبيب ليعالج ضيوفنا، سيقوده آندريه إلى بيته حيث سيستريحون ويتناولون الطعام!

ـ أشكرك بصفتي الخاصة أيها السيد. أنا هوغ من مقاطعة شامباني، أتشرف بأن أطأ تراب الأرض المقدسة التي فتحها أخوكم بالدم.

أحس بودوين بشيء من السخرية في صوت الشامباني المجامل، لكنه تجاهله.

ـ استقبلكم في حاميتي المتواضعة أيها السادة. آمل ذلك مع أصحابك أن تشاركوني مائدتي هذا المساء، بعد أن نكون قد صلينا أمام قبر سيدنا يسوع المسيح.

ـ نحن مستعجلون للصلاة في هذا المكان المقدس ،يؤكد الكونت.

«وخزة أخرى! ظن بودوين: حذرني بوسلين بأنه عليّ أن أحسب مهارة وفكر هؤلاء الحجاج». كان ملك (القدس) ينظر إلى هؤلاء وهم يتوجهون إلى مكان نومهم يقودهم آندريه مروضوهم، المنهكون يحملون المتاع الثقيل بالرغم من قاماتهم الهزيلة.

يلتفت بودوين نحو الكاهن ذو الوجه الرمادي:

ـ طاقم مدهش! كونت شامباني أكبر إقطاعي في فرنسا، ثروته تقدر بضعف أو ثلاثة أضعاف ثروة الملك، وها هو اليوم في (القدس) مثل بائس معدم.

ـ يقال عنه أنه تقي.. دون شك هذا صحيح!

ـ تقي؟ نعم، دون شك. لكن أي إله يعبد؟

*

* *

النائب البابوي بوسلين يفتح باب كنيسة صغيرة أعدها الكهنة في غرفة مظلمة، وهي مضاءة إضاءة باهتة من كوة للرمي ويتنحى جانباً من اجل إدخال الرسول البابوي، الذي يدع جبّته تصل إلى قدميه على البلاط اللامتناسق.

ـ الله معكم، قال القاصد الرسولي.

ـ ومع روحك أيضاً، يجيبه الرجل الذي يضع القلنسوة.

وبخوف لا يمكن التحكم به يقول بوسلين:

ـ هكذا إذاً، هذا أنت.. نحن مدينون لك بالحماية وأنت جئت شخصياً!

ـ إنها مهمة تناسبني يا سيدي. أشعر بنوع من الرضى في خدمة قضية الله على طريقتي الخاصة.

ـ بفضل زوجة آرسيس دوبريين أنت هنا، أليس كذلك؟

ـ لقد سمحت لي تلك البلهاء بمعرفة أن الشامبانيين كانوا يملكون خارطة تحدد مكان قبر الدجال. وخاصة أنهم كانوا يضعون خاتماً في يدهم اليمنى أثناء السفر.

ـ أي منفعة يمكن أن تمثلها هذه الخواتم؟

ـ هيا ألم تتمكن من معرفة ذلك يا سيدنا؟

ـ الواقع، لقد فكرت ملياً..

ـ في نية الشامبانيين إخفاء ما قد يعثرون عليه في قبر توما في الخواتم! من جهة أخرى لدى التجسس عليهم على ظهر السفينة، سمعتهم ينطقون بـ I.N.R.I، ثم بهذه الجملة: بالنار تتجدد الطبيعة. ***Igne Natura Renovatur Integra***

بوسلين ينظر إلى الصليب الخشبي المعلق على الجدار الشرقي للكنيسة فوق المذبح.

ـ I.N.R.I! يقول متعجباً. إنها المشبكة المخطوطة من قبل الرومان فوق رأس «المصلوب».

ـ لقد علموني دائماً أن هذه الأحرف كانت تعني: يسوع الناصري ملك اليهود!

ـ هذا بالفعل ما تعلمنا به الأناجيل. كان الرومان يهزؤون ممن كان يدعو نفسه المسيح! لقد وضعوا لتوهم تاجاً من الشوك على رأسه لإذلاله علانية.

ـ مع ذلك، فلقد ميزت بوضوح هذه الكلمات. لم يكن ثمة أي مجال لأن أخطئ.

تقدم بوسلين بضع خطوات نحو النافذة الضيقة:

ـ كلا، قالها بعد قليل. هذا له معنى طبعاً.

بالنار تتجدد الطبيعة، ماذا يقصد هؤلاء المشعوذون الشامبانيون، بهذه الحكمة؟

ـ لقد آن الآوان لمنعهم من التسبب بالضرر يا سيدنا.

لم يقم الرجل بأي حركة منذ دخوله. ظل واقفاً قرب الباب، دون حراك، متكلماً بصوت عذب خال من النبرات.

التفت بوسلين نحوه، محاولاً تمييز وجهه تحت ظل القلنسوة، وحده شعاع رفيع من النور كان يرسم شكل ذقنه الجرداء.

ـ سأحاول الحصول على خارطتهم بأسرع وقت، هذا ما أعلنه.

سنستولي على إثباتاتهم المزعومة، وستنتهي القضية.

ـ نعم، نعم.. لأن لهذه الجملة اللغز دون شك علاقة مع سر ضريح الدجال! ذلك ما نبحث عنه: هو سر يسوع!

هذه المرة انفعل الرجل، وضع يداً على قلبه. ثم رسم إشارة الصليب على عجل.

كل هذا غير صحيح، أليس كذلك؟ ليست سوى أسطورة يجب علينا إسكاتها في مهدها!

بوسلين يخطو خطوتين، يقف أمام المجهول، محاولاً أيضاً التعرف على معالم وجهه، ويقول:

ـ لا شك أن هناك جزء من الأسطورة في هذه القضية، لكنها وللأسف ترتكز على قاعدة متينة من الحقيقة.

رسم الرجل إشارة الصليب من جديد. ويضيف بوسلين:

ـ في روما، يعتقد الكثيرون ذلك. والبابا في المقام الأول! من بعيد يسمع صوت الورشة. الغناء الذي يتبع إيقاع حفارات العمال، وتدل النوطات الطويلة على مجهودات العمال.

ـ وأين سأسكن؟ سأل الرجل.

ـ هنا، أجاب الإسقف مشيراً إلى المذبح.

ـ هنا؟

ويقول بوسلين وهو يمر خلف المذبح:

ـ تعال. هنا المكان سيكون طبعاً الأكثر أماناً في كل أنحاء القدس لقد اكتشف عمال الحفر كهفاً تحت هذا البناء. نوع من المستودع. لقد وضعت بنفسي سلماً للنزول إليه. انظر، يكفي أن تفتح هذا الباب الأرضي. وبما أن هذه الكنيسة مخصصة لي فستكون فيها بأمان. ويمكن لأحد الرهبان الحضور إلى هنا ليتلو بعض الصلوات.

تقدم الرجل إلى الأمام. انحنى الإسقف وقبض على حلقة من البرونز ليرفع الباب.

ـ إنه قبر، همس الرجل: أنت تقدم لي قبراً بمثابة منزل ومأوى..

ـ أنا آسف، يقولها بوسلين وهو يكذب.

ـ لا تصدقه، سيدنا. هذا يلائمني تماماً، فأنا أمارس بكثرة إماتة الأجساد، بالحرمان والجوع. نخدم الله بشكل أفضل عندما نتألم.

بوسلين يرتعد. صوت الرجل رتيب جداً، هادئ، مجرد من الحياة. منهك جداً ومع ذلك فتي للغاية.

ـ قال الإسقف: لقد وضعت فيه بعض الأمتعة: دلو لقضاء الحاجات، حوض ماء، فراش من القش وشمعة..

ـ أشكرك يا سيدنا.

ـ من أجل طعامك..

ـ قلت لك إنني أقنع بالطعام القليل.

ـ ومع ذلك سأجلب لك الطعام بنفسي.

ـ قطعة من الخبز وثمار جافة في الصباح، قطعة من شحم الخنزير، كوب من حليب الماعز وفاكهة طازجة واحدة في المساء.

ـ ليكن، سيكون الأمر كذلك.

تهيأ الرجل للنزول إلى كهفه شمّر عن معطفه لينزل السلم، أظهرت حركته شوكة الفأس القاطعة المشدودة إلى وسطه.

قفز بوسلين خوفاً لدى رؤيته السلاح.

ـ هذه الفأس، يا بني.. تساعدني في تحطيم الأساطير وتقطيعها مثل حطب التدفئة القبيح!

غاص الرجل بعد ذلك في الظلمات وأغلق الباب الأرضي وراءه ينتظر القاصد الرسولي بضع لحظات لتتوقف يداه عن الرجفان ليخرج من الكنيسة الصغيرة.

إجتاز الباحة المشمسة، وكانت نعلاه تطآن الأرضية الحارقة، وكل جسده يطلب الضوء. الورشة البعيدة جداً تبعد الجلبة. الحياة.

الإسقف بوسلين، نائب البابا، واع جداً من إدخاله الموت إلى وسط أسوار مملكة القدس الصغيرة.

8
رسالة من آرسيس دوبريين

حبيبتي الرقيقة هيلين، وصلنا إلى القدس. شعور غريب يجثم على صدري، أجد صعوبة فـي مقاومة القلق الذي يغزو كياني. رفاقي يشعرون دون شك بالشيء نفسه، ولكن لا يتجرأ أحد على البوح به.

أخونا باسيل، الذي تقدرين حكمته كثيراً، مريض. صحته الهشة لم تقوَ على السفر الطويل المتعب. أليست الحمى التي تعشعش فيه سوى علامة مسبقة للعنة التي حلت علينا نحن الخمسة؟ ألم نحكم على أنفسنا بمجيئنا للبحث عن مفاتيح السر الذي يعجز المرء عن وصفه؟

الطبيب الذي أحضره الملك الشاب بودوين طمأننا عن صحة باسيل، لأنه لم يشخّص إصابة قوية. مؤكداً لنا أن صديقنا سيتعافى قريباً، ووصف له عقاراً من اختراعه. سمحت لنفسي بسؤاله عن الدواء الداخل فـي تركيبه: تعرفين ريبتي فيما يخص العقاقير الدوائيةّ! الصيادلة هم غالباً أناس طيبون مثقفون بكل معنى الكلمة، لكن يوجد من يرسلك إلى المقبرة بنقيع مقاديره خاطئة.

لقد أقمنا مركزنا فـي غرفة كبيرة فأنا أجهل أي مهمة أعدت مسبقاً قبل استيلاء الصليبيين على الأمكنة. هذا المركز أشبه بالإصطبلات ذات الجدران المطلية بالكلس. نافذتان صغيرتان فقط يحميهما شبكان معدنيان يطلان على باحة، تسمحان بدخول القليل من الضوء. فـي الواقع أنا أكتب لك على ضوء الشمعة عند المساء. كل شيء هنا ريفي قروي، ويذكرني كم أن مسكننا جميل، مريح ولذيذ. تصوري فراشاً على مستوى الأرض المغطاة بسجاد ثمين حصلوا عليه من غنائم حرب بودوين. تخيلي منضدة، ومقعدين بلا مسند، وآنية الليل، وأباريق، وأكواب. تخيلي زوجك يكتب رسالة على ركبتيه وسيسلمك إياها بيده عندما سيراك، لأنني آمل أن لا أوكل بريدي إلى أي واحد من رفاقي. لأن هذا سيعني أنني قد لن أكون فـي حالة تسمح لي بالعودة.

باينس حالياً، يعتني بمريضنا. لقد أنتهى لتوه من إعطائه الدواء الذي وصفه له الطبيب وهو يدلك صدره بكثير من الرفق والطيبة. حركاته بطيئة، متكررة دائرية، أشبه بالحركات التي يقوم بها محب لعشيقته. كم هو مدهش حضور هذه المداعبات الحنونة من رجل إلى رجل آخر، يفاجئني باينس أكثر فأكثر كل يوم.

بينما نحن نتذمر جميعاً، البعض لأنهم فارقوا عائلاتهم فـي بلادهم، والآخرون عليهم تحمل البؤس الذي تفرضه علينا مغامرتنا، هذا الصديق الطيب، لا يتباكى أبداً ولا يثير الشفقة على حظه، مع أن زوجته وأطفاله بعيدان كثيراً طبعاً.

بالنسبة للغرباء، يظهر باينس وجهاً صارماً يوحي بالاحترام والهيبة أكثر مما يوحي بالود. أما بالنسبة لنا ـ إخوته ـ لا يظهر سوى العطف والكرم. يحب أيضاً ـ هذا ما فاجأني ـ الضحك والمزاح، ليس له مثيل فـي السخرية والكلام المنمق. كان رفيق طريق رائعاً خلال سفرنا.

وفـي خصوص ما يلي، فأنا لا أريد أن أسبب لك القلق أبداً يا حبيبتي، إلا أن باينس مصمم أن هناك جاسوساً متعلق دائماً بأذيالنا يلاحقنا. إضافة لذلك يعتقد أنه يلاحقه على الباخرة. أحاول إقناع نفسي أنه اخطأ وأنه كان لعبة أصوات صواري الباخرة.

مع ذلك، ليس هو الرجل الذي ينخدع بالسراب. غالباً ما يكون الأول فـي رؤية الأشياء التي لا تظهر لنا إلا متأخرة. لهذا الرجل ذهن متقد وسريع، هو دائماً حذر فـي التصديق.

ـ أشعر بأنه قلق. لايتوقف عن النظر من حوله، تجول نظراته من النوافذ، فاتحاً مراراً الباب المطل على ممر مظلم يبحث عن فتحة بيضاء مصغياً لأقل ضجة. يحتفظ بسيفه دائماً على جنبه.

ـ آه يا عزيزتي هيلين، ليس لدي روح رجل محارب، السلاح الوحيد الذي أعرف نفسي به هو العقل. أراد باينس أن يعلمني بعضاً من حركاته واثنتان أو ثلاثة من تنويماته المغناطيسية. وبالرغم من كل شيء، أبقى مقتنعاً أن سيفي ثقيل وعديم المهارة. أحياناً أحسد جوفروا، الذي يستعمل الحديد مثلما استعمل لساني ببراعة لا تعكرها الالتفافات. ومع ذلك فإن الكونت بحاجة إلى الجند وليس شيئاً آخر.

لقد أفضيت كل ما فـي داخلي إليك يا حبيبتي. قلت لك ما أتينا لنبحث عنه فـي القدس. أتذكر أنني عكرت صفوك وعكرت هذا الإيمان النقي الذي يحميك ويجعلك بريئة. أصل إلى حد الأسف لأنني كشفت لك عن هدف مهمتنا. هل كان من الضروري أن أزرع فـي روحك هذا السّم؟

أظن أن كل شيء سينجز عما قريب، نحن نملك المخطط الذي سيسمح لنا بالذهاب إلى قبر الدجال، سوف ندخل فيه و سنتصرف بحسب قَسَمنا.

هل تصدقيني؟ ألا تحسبيني مختل عقلياً؟ أنت محقة بالشك بنا نحن الخمسة.. ولا ألومك على ذلك.

سوف نحصل قريباً على برهان هذه الحقيقة الرائعة الرهيبة. عندما سأعود عزيزتي، سأكون رجلاً آخر. سأكون قد توصلت مع أصدقائي إلى حل السر الفائق الذي يخرق قوانين الطبيعة!

نعم يا هيلين، وسوف أحمل عندئذ واحدة من إشارات المسيح الخمس. سأكون واحداً من الأصابع الخمسة ليد يسوع اليمنى!

سأنهي رسالتي هنا، وسأعود إليها فيما بعد. هوغ يطلب منا الاستعداد للذهاب إلى الصلاة. ويقترح أن يبقى باسيل فـي سريره، إذ أنه وجده شاحباً جداً. وباينس يشاطر الكونت رأيه. أحضر مشهداً رائعاً، لا أقاوم الرغبة فـي إظهاره لك.

يريد باسيل إظهار كبريائه وشجاعته وهو يحاول النهوض. هل أنا بحاجة لأن أصف لك تعابير المريض؟ يُعرف فقط أنه مزيج من الألم والتبجح، وكما تعرفين ذلك جيداً سوف لن تجدي صعوبة فـي تصور الوضع الصعب الذي وضع نفسه فيه. يتمايل مثل رجل ثمل، يتمسك بقميص باينس، مجبراً الكونت جوفروا على الإسراع فـي سنده. يفرض عليه هوغ العودة إلى الاستلقاء بحزم فـي صوته كحزم الأب حيال ابنه العاق.

لا أتمكن من منع نفسي من الضحك متقاسماً معك هذه اللحظة. باسيل يخور مثل عجل المسلخ ويصرخ: لن أستلقي وأنام أبداً! الشامباني لا يضعف! ولايموت أبداً فـي الفراش!.

لولا المساعدة التي قدمها له أصدقاؤه، لما كسر هذا البائس عنقه فـي الأرض. وأجبر على الاستلقاء، قائلين له أن الملك سيفهم أنه غير قادرٍ على التنقل.

أخشى أن باسيل الطيب لم يسمع هذه المقاطع الأخيرة. يبدو لي أنه غطّ فـي النوم!

فـي النهاية، زوجتي اللطيفة، حبيبتي، عليّ أن أغلق طاولتي وأضع ريشتي ومحبرتي جانباً. بودوين ينتظرنا أمام قبر يسوع الفارغ.

9
الرجل ذو الفأس

تجمع الفرسان على شكل دائرة في البناء المقبب الذي يضم القبر المقدس. إنهم ثلاثون يحملون شموعاً وزعها عليهم الكهنة الشباب. وبتقبل وأسى لغياب باسيل لوهارني، تمنى الملك بودوين أن يقف الشامبانيون الأربعة إلى جانبه. الكونت هوغ إلى كتفه الأيمن، وقد قدّر هوغ الكرامة التي منحه إياها الملك، بكل حماس وحرارة.

كان ينتظر قدوم بوسلين، رسول البابا الذي سيترأس القداس، وبغية ملء الوقت الضائع، أراد إظهار نفسه مهذباً بالتوجه إلى ضيوفه بالقول:

ـ كما تعرفون، نحن مدينون إلى والدة الإمبراطور قسطنطين باكتشاف قبر سيدنا ، منذ ما يقرب من سبعة قرون. كان يوجد هنا معبداً رومانياً أمر الإمبراطور بتدميره. يُعدُّ قسطنطين الإمبراطور الروماني الأول الذي اعتنق المسيحية التي فرضها كدين رسمي على كل الإمبراطورية. في العام 326 دعا إلى مجمع حكماء من الأساقفة ليطلب منهم حل خيوط حرب كلامية كنسية فريدة. مكاريوس أسقف إيليا كابتولينا، كما دعيت عندئذ القدس وصف في هذه المناسبة حالة الدمار التي حلت في الأماكن التي زارها سيدنا يسوع المسيح مما سبب إزعاجاً لـ هيلين، أمه، التي قررت الذهاب إلى فلسطين حيث تعرفت على غولغوتا وعلى قبر مخلصنا. لم تجد أي صعوبة في إقناع ابنها بتشييد الكنيسة الرائعة كنيسة القبر المقدس... لا أمل من تكرار قراءة كتاب «التاريخ الكهنوتي» للإسقف أوزيب دوسيزاريه الذي يروي فيه هذا الحدث.

تدخل آرسيس دوبريين:

ـ كان الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله قد دمر هذه الكنيسة في القرن الماضي؟ فكيف يمكن أن يبقى القبر محفوظاً؟

يبتسم الملك ويقول:

ـ أنت عالم لامع أيها الفارس. بالفعل لطالما أثار القبر الإحترام الدائم لدى المحتلين لهذه المدينة. إنه نوع من التطير دون شك.

حركة ظهرت وسط الجموع. باينس وأصدقاؤه يلتفتون نحو الإسقف بوسلين الذي دخل على الفور، مصحوباً بثلاثة رهبان. ابتعد الفرسان ليفسحوا المجال لرسول البابا الاقتراب من القبر. لدى مروره، ألقى نظرة حادة على الشامبانيين الذين عدّهم ذهنياً «يجب أن يكونوا خمسة».

بدا الكهنوتي فجأة مغتاظاً، يفكر برسول البابا، وبالمهمة التي سينفذها قريباً..

سيلبرت، الذي يقف مباشرة خلف ابن عمه يهمس في إذنه:

ـ هوذا عدونا! إنه محتال مكّار، مرّاء، متلاعب، غير أنه ذكي جداً له أذن بودوين. ذلك الشخص الفتي الذي يحسن وزن الكلمات الخارجة من فمه.

ـ نحن لا نأمن له، يجيب باينس، بصوت منخفض. هوغ، قارئاً على شفاه أصدقائه، يوجه لهم إشارة سريعة بالرأس ليظهر أنه يشاركهم هَوَسهم حيال الرسول البابوي.

أحد الرهبان بدين دحداح مثل قربة، وجهه أحمر متورد، شعره رمادي، يرفع صليباً كبيراً فوق الجمع. بودوين جثى بركبة على الأرض، وقلده الفرسان بذلك في الحال.

صوت بوسلين المعسول المتملق يجد صعوبة في فرض نفسه في البناء:

ـ نذهب في بيت الله.

ـ آمين، ردد كورس الجماعة.

*

* *

انتظر الرجل في ظلمة الليل داخل كهف الكنيسة الصغيرة. لقد أحس ببرد الليل يهبط على كتفيه، يتسلل على طول رقبته من الخلف، ليبلغ عموده الفقري.. مثل ملاطفة الله. هذا الإله العنيد الرهيب الذي يتفانى كالعبيد في خدمته. ملاطفة الله! قبلة جليدية في قعر صلبه.

وهذه المرة أيضاً، شعر الرجل بنشوة عارمة أدت به الى ايقاف قصير وعارم شبيه بالتمزق. «يا أبانا»... ***Pater noster***

ثم هب واقفاً، بطنه مبلل، لزج. وضع قبضة فأسه تحت حزامه، تسلق السلّم، رفع الباب الأرضي. اجتاز ساحة ظليلة، بعض الخطوات المرنة، معطفه يصدر ضجة كخفقان الأجنحة. بضع خطوات فقط لينزل الدرجات ويصل إلى ساحة ثانية في مستوى أدنى.

قال بوسلين: إن كل الفرسان سيكونون في الصلاة أمام قبر المسيح، كذلك سيتوجه بثقة نحو البناء الذي يضم غرف النوم.

يتقدم الرجل دون ضجيج نحو الرواق بسرعة وتصميم. «الباب الثالث!» يمد ذراعه، يضع يده ذات القفاز على قبضة الباب الفولاذية، يديرها ويشدها نحوه حتى لا تصدر أي صرير، ثم يفتح الباب بهدوء. ينتظر ثلاث ثوان على العتبة متسائلاً حول الرائحة الحامضة والنعناعية التي تصل إليه «هل من مريض في الداخل!» أخرج فأسه من تحت حزامه، دخل خطوتين في الغرفة «الصعتر البري، فيرفين، ناردين والنعناع..» يعدّها جميعها، وكأنه يعرف محل مركبات النقيع الذي شربه باسيل قبل ذلك بلحظات.

عيناه تكيفتا مع الظلمة التي تنيرها شمعة واحدة في طرف الغرفة. يكتشف عندها الجسد المستلقي على الجانب، الوجه نحو الجدار. «تنفس ثقيل ومرخم.. غير أن الرجل نائم..».

يشرع بالبحث في المكان، بدقة متناهية وصمت دقيق، يرفع غطاء الطاولة، يفتح الخروج والمزاود، يحرك السراويل والسترات القصيرة التي كان يرتديها الفرسان تحت دروعهم.

ما من ضجة سوى أصوات الشهيق الطويلة والمؤلمة المتبوعة بزفير قصير وعنيف لباسيل لوهارني ما من صوت إلا صوت رقيق ينادي من على الباب:

المعلم باسيل، هل أنت نائم؟ هل أجلب لك حساءك الخالي من اللحم. لقد أعطاني السيد الكونت أمراً بإرغامك على تناوله حتى القطرة الأخيرة.

إنه صوت ضعيف لشاب صغير لمّا يغلظ صوته، وبقفزة هر التصق الرجل بالجدار:تحرك باسيل في سريره متذمراً.

دخل المروض بابتسامة عريضة كشفت عن أسنانه المسوّسة.

ـ إنه ساخن، أيها المعلم.

جحظت عينا المراهق لدى رؤية الشبح الطويل يقفز أمامه مثل خفاش عملاق.

سقط الكوب من يديه المرتجفتين لينكسر على الأرض بصوت قوي أدى إلى إيقاظ المريض.

استوعب باسيل المشهد عبر ستار ضبابي. رفع الرجل فأسه القاطعة، فشبك المروّض يديه على صدره وهو يشهق بالبكاء... انهالت الفأس!...وانشطرت جمجمة الضحية مكسرة العظام بالضجة نفسها التي أحدثها الكوب المتحطم. خرجت الفأس من كومة لزجة قرمزية، لترتفع من جديد لدى اقتراب مروّض آخر يحمل خنجراً بيده وهو يصرخ:

ـ إليّ، أيها الشامبانيون، لقد ذبح «ذو الأسنان الوسخة!»

تهيأ باسيل للبحث عن سيفه. سمع أحدهم يضحك مندهشاً. إنه القاتل. قهقهة هازئة حيوانية، حادّة، هسترية. موسيقى خفيفة ناشزة تصاحب الفأس، التي انهالت مرّة أخرى. الضجة ذاتها. عظام تتكسّر، رشف دماغ ممزّق.

أمسك باسيل بسلاحه، ملقياً بنفسه خارج سريره، بينما المجهول يلتفت نحوه، وجهه الظليل تحت القبعة ضاحكاً ومرتلاً الجمل الأولى للأبانا:

ـ أبانا الذي في السماوات ليتقدس اسمك...

لكنه توقف في اندفاعه، أحدهم يصرخ في الممر، يناشد المساعدة، موقظاً كل من كان ينام في المهاجع من مروضين وخدم ورهبان تلامذة. غادر القاتل الغرفة على مضض. مع ذلك توقف قليلاً قبل خروجه محدقاً بباسيل المسمر في أسفل فراشه، وسيف ثقيل جداً في يديه المحمومتين.

ـ ليأت ملكوتك،لتكن مشيئتك.

قفز الشبح فوق الجثتين اللتين تناثر دمهما على بلاط الأرض وقد وجد نفسه أمام حفنة من الصبيان المرعوبين البعض أكثر من الآخر، صائحين ليعطوا لأنفسهم شيئاً من الشجاعة، مهددين إما بعصاهم أو بخناجرهم.

ـ كما في السماوات كذلك على الأرض

ـ نحن كثيرو العدد، أيها الرفاق، صاح أحدهم.

ـ هيا لنمسك هذا الشيطان من عنقه ولنذبحه، قال آخر:

انتفضوا جميعاً في خليط غير منظم، ضاربين عرض الهواء في هجوم مرتبك دفعهم إليه شبابهم وغضبهم.

ـ كلا، اهربوا، زمجر باسيل الذي يخشى حدوث مجزرة. اهربوا، هذا الرجل شيطان، سوف يقطعكم إرباً إرباً.

ارتفع صوت القاتل على صياحهم، وكان، بشكل غريب، لطيفاً، عذباً رقيقاً، وهادئاً.أعطنا خبزنا كفاف يومنا.

شق الرجل طريقاً بين الجمع، مقتلعاً شرائح من اللحم أمامه مثل وحش كاسر، يبقر، يخرج الأحشاء، يمزق، يكسر، الفأس يصدر صفيراً عند كل ضربة. إنه يقتل بدافع اللذة أكثر منها للدفاع عن نفسه. يقتل وهو يرتل صلاته بنبرة عذبة متقطعة: **وأغفر لنا ذنوبنا.**

اقترب باسيل من ظهره وهو يترنح ويتهيأ ليخرج سيفه من غمده، عندما صدمت ركبته طاولة صغيرة أوقعته أرضاً. سمعه الرجل واستدار. **كما نغفر نحن لمن أساء إلينا.**

تجنب الشامباني الفأس بخدعة جانبية، متلاعباً بخصمه الذي فتح ثغرة في دفاعه. باسيل يقتحم، ويصيب برأس سيفه الرجل في وجهه. بدا الأخير ينخر ويدمدم. نباح مندهش، مؤلم قليلاً، ثم تجنب ضربات المروضين وتابع الضرب بفأسه، ليتمكن من الإفلات من الجموع.

في الخارج يبتلعه الليل، يختفي عن أعين الشباب المقتنعين بأنهم قتلوا الشيطان شخصياً.

لقد تبخر! هل رأيتموه؟ قفز فوق هذا الجدار.. واختفى.

ـ كلا، إنه عال جداً!

ـ توارى واختفى، أقول لكم!

*

*   *

توقف الإحتفال أمام قبر. المسيح فجأة وبعنف بالغ من قبل احد المروضين الشمبانيين الذي كان وسط المعمعة للحظات خلت. كان الغلام، أصهب هزيل الجسم، وكانت وجنتاه محمرتين من الانفعال، وقميص مبلل بالعرق والدم، شق جمع الفرسان ليصل إلى الكونت ورفاقه.

ما أن وصل إليهم، بجسده المرتعش، حتى صرخ باندفاع متجاهلاً الملك بودوين:

ـ أيها السادة! تعالوا بسرعة لقد حلت مأساة كبيرة في الكنيسة الصغيرة!

سأل باينس منزعجاً:

ـ إنه باسيل، أليس كذلك؟ حالته تفاقمت خطورة. المروض يومئ برأسه.

ـ كلا بالعكس، يتلعثم الشاب. لقد ساعدنا الفارس في جعل الرجل الذي يهاجمنا يفر هارباً..

عندئذٍ لاحظ الكونت هوغ قميص المروض المضرج بالدم.

ـ في الواقع، أنت مغطى بالدم! قالها بصوت عال:

ـ ليس دمي، يجيب الغلام، صاحب الأسنان الوسخة قتل .. كذلك روبرت ـ آزور! والرهبان التلامذة الذين جاؤوا ليقدموا المساعدة فقدوا اثنين أو ثلاثة من إخوتهم. دون الأخذ بالسيان الأعضاء المنتزعة لبعض الخدم!.

ـ التقط انفاسك، واشرح لنا، طلب الملك.

ـ لم أر مثيلاً لهذا العنف ! ليحمني الله لقد رأيت شيطان الشر يصعد الى سطح الأرض ليقتلنا جميعاً بالفأس الحادة، فالقاتل جزار حقيقي.

يستل الملك سيفه من غمده ويقول:

ـ الله سيغفر لنا يا أصدقائي: استلوا سيوفكم ودعونا نرى، ثم التفت نحو صديقيه المخلصين.

ـ أنت يا برتراند ويا أندريه خذوا عشرة رجال مجهزين بالمشاعل، أريد أن تتفقدوا الجوار القريب. وأنت يا لونغمور، إذهب مع ما يقرب الخمسة عشر فارساً وقفوا عند القبر المقدس.

ـ اقتلوا بالأسلحة أول من يتجرأ على الدخول إليه.

ثم يأخذ بودوين الجيش الصغير المكون من الشامبانيين، من سيلبرت وبوسلين. المروض لم يعد لديه الشجاعة ليمشي، تمنى باكياً البقاء بين ساعدي الكاهن الذي يحاول مواساته.

لم يتوقف الغلام من التكرار:

ـ شيطان! شيطان..

في الطريق يتوجه بودوين إلى الكونت قائلاً:

ـ من غير المحتمل أن تكون تلك غارة شتها رجل (الحنطة السوداء...) أنتم ضيوفي، سأعرف كيف أصلح هذا العمل السيء! سيفتح تحقيق وسنجد المجرم بسرعة أعدك بذلك، أيها الكونت!

ـ أنا مقتنع بذلك ذلك يا صاحب الجلالة. لكن لو أن الأمر لا يتعلق بالعدو، من هو إذن المسؤول؟ هل سبق أن واجهت مشكلة من هذا النوع؟

ـ كلا إنها المرة الأولى التي يسيل فيها الدم داخل هذه الأسوار. لقد سبق أن شكونا من بعض السرقات، مشاجرتان أو ثلاث مشاجرات، لا شيء أكثر اعتياداً ضمن هؤلاء السكان المحاصرين، كانت هذه المسائل قد سويت ببضع جلدات بالسياط على جلود هؤلاء الخنازير المذنبين.

ـ يبدو هذه المرة أن الخصم أكثر خطورة. لا يمكنني منع نفسي من ملاحظة أن هذا الشيء تم ليلة وصولنا.

نظر الملك إلى بوسلين خلسة وبصوت يبدو واثقاً ليقول:

ـ هذا ليس سوى صدفة أيها الكونت.

ـ آمل ذلك بصدق، يا صاحب الجلالة.

*

*   *

تسلل الرجل إلى مخبئه. الليل يجعل الحجارة أكثر برودة وطراوة، معطياً لها رائحة الكهف.

خلع ثيابه متعرياً وجلس على الأرض، مسنداً ظهره إلى الجدار، بملامسة الحجارة الخشنة التي تؤمن له راحة كبيرة. كل نتوء بارز ينخر جسمه مسبباً له وخزة لذيذة. الظلمات تهدئ أعصابه، دقات قلبه تتباطأ، ويهدأ في صدره، الخفقات الخافتة التي كانت تحرقه منذ بضعة دقائق تلاشت تماماً.

يعرف أن دماً يسيل على خده، بسبب الجرح الذي سببه له الشامباني. أهو عميق؟ هل وصل الجرح إلى العظم؟ لو أن رأس السيف كان قذراً لكان هناك خطر حدوث إلتهاب بسرعة. عليه أن يعتني به ويخيطه.

سينتظر إلى أن تهدأ الحمى التي حلت بالمعسكر ثم يذهب للقاء الرسول البابوي، بعد ساعات قليلة، وهو الوقت الكافي للصلاة، وامتصاص برودة الحجارة عبر جميع مسامات جلده، وبعد

أن يشكل مع الكهف جسماً واحداً، في نوع من التأثير المتبادل التام الذي سيرضي عضلاته ويحرّك أصغر أوتاره.

ـ ولا تدخلنا في التجارب لكن نجنا من الشرير....

يقول، وتمتزج الدموع مع دمه. الرجل يبكي. إنه يبكي فرحاً، فروحه الهادئة موضوعة بين يدي الله المتجمدتين.

*

* *

شعر الإسقف بوسلين برغبة في التقيؤ بمجرد رؤية الأجساد الثلاثة في بركة تفور من الدم، وكذلك لرؤية الفتيان المشوهين والمبتورة أرجلهم والذين يسندهم رفاقهم أو يضمدون جراحهم كيفما اتفق بانتظار الأطباء.

عاد باسيل إلى سريره ليجلس، وهو يلهث، وبصره مشوش.

لم أتمكن إلا من جرحه فقط بضربة شيش في وجهه، حتى دون التأكد من أنني سببت له إصابة بالغة! لا شك أنه أخبرَ أصدقاءه بذلك.

ـ هل رأيت على الأقل من هو؟ سأل الكونت:

ـ كلا، لم أر معالم وجهه. لا شيء آخر سوى نظرته عندما تمكنت من إصابته. هذا العُقاب كان يحتفظ بقبعته على رأسه ويحرص على إخفاء وجهه، لكن عيناه..

ـ ماذا. عيناه؟ يصيح جوفروا.

ـ كانتا مليئتين بحزن لا متناهي، شبيهتين بعيني طفل فقد أباه وأمه، يؤكد باسيل بعد لحظة.

وضع آرسيس يداً على كتف باينس هامساً في أذنه:

ـ مخاوفك كانت صحيحة، أيها الصديق، أعذرني لأنني شككت بكلامك. بالفعل لقد طاردت رجلاً من لحم ودم على السفينة! لكن باسم القديسيّن يوحنا، رئيسينا المقدسّين، من الذي تمكن من معرفة أننا كنا سنذهب إلى القدس؟

لقد حرصنا على إحاطة أنفسنا بالسرية المطلقة..

ـ أصمت يا جوفروا، صاح باينس، يجب أن لا يدخل الشك الى ذهن الملك..سنتكلم عن ذلك فيما بعد: حالياً، لنعتن بهؤلاء الفتيان البؤساء.

عند هذه الكلمات، بحث آرسيس في إحدى المزاود التي لديه ليخرج منها بعض أدوات الجراحة وعبوتين من المراهم. طلب أن يُمدّد الجرحى على الظهر، وتحضير وعاءين مملوءين بالماء المغلي، وتحضير خرق الضماد من البياضات النظيفة.

الأساتذة هوتيمو، فيرجيل ومانويل وهم بالترتيب طبيبان وجراح قد وصلوا لتوهم، وهم لا

يرغبون عن حسن نية أن يأتي غريب كائناً من كان من شامباني ويسمح لنفسه بتقديم العناية وسط المعسكر.

كل واحد منهم مصحوب بمساعده الشخصي كشهود، يظهرون علانية احتجاجهم، مستخدمين لغتهم اللاتينية الفصحى ليثبتوا للحضور كم أن علمهم كبير ورفيع. يصيحون دون انقطاع طيلة دقائق طويلة. الوقت اللازم لكي يتمكن آرسيس من إيقاف النزف عند أحد المرضى.

ـ لاحظ يودوين قائلاً: انك فائق المهارة أيها الفارس،وهو ينطق بوضوح وجلاء، بطريقة يسمع بها الأطباء الممارسين.

ـ ساند هوغ بقوله: في الواقع، إن تواضع ارسيس قد بلغ حداً يرفض معه التباهي بلقبه «دكتور في الطب» تماماً كما يرفض أن يعترف بكونه عالم فلك أو عالم بالرياضيات مهما كان هذا أو ذاك.

ـ وفيلسوف ! ساند جوفروا.

خيّم الصمت على الأساتذة هوتيمو، فيرجيل، ومانويل ولم ينبسوا ببنت شفة.

لقد قدروا رغماً عنهم الخطوات التي يقوم بها آرسيس الذي أنقذ لتوه مراهقاً بترت يده اليمنى. يلتفت بودوين نحوهم، ويقول لهم بجفاء:

ـ ماذا تنتظرون لتتدخلوا؟ ألم تروا أن هناك أربعة فتيان ينتظرون على فراشهم.

ـ نعم، نعم، يا صاحب الجلالة. تلجلج المعلم هوتيمو، خرج بوسلين على عجل إلى الباحة ليتقيأ على الجدار. «يا إلهي، كم من الصعب الدفاع عن قضيتك! كم من الأحياء علينا قتلهم قبل أن نكتم السِّرَّ؟ كم من الأضاحي علينا تقديمها باسمك؟».

بعد أن استرجع أنفاسه، يعود النائب البابوي إلى صالة النوم. الفرسان والملك وبعض الأفراد منهمكون بين الجرحى، شاب يحشرج ويشكو من أنه لا يريد أن يموت. لقد شدّ على يدي بودوين.

ـ صلِّ من أجلي يا صاحب الجلالة ! أرجوك، الله قادر على الاستجابة لك.. أنت ملك القدس، اسهر على سلامة قبر ابنه.. صلِّ من أجلي!.

يلبي الملك طلبه، ويشرع بالصلاة، بينما الأستاذ هوتيمو يخيط وترين في الركبة اليسرى للفتى.

بوسلين اضطر قسراً من الاقتراب بالرغم من اشمئزازه. خرجت صابونة ركبة الجريح من اللحم، النائب البابوي يضع يده على شفتيه ليمنع رغبته في التقيؤ.

آرسيس انتهى من علاج مريضه الثاني، يقف، جبهته غرقى بالعرق، باينس يناوله كوباً من الماء البارد الذي يشربه حتى آخره، وبعد أن نشف شفتيه بطية كمه، قال:

ـ إنها مهمة جزار: لقد تقصد القاتل الضرب على المفاصل والأطراف. أما الناجون من المجزرة فسيعيشون في عاهاتهم، سيقضون باقي حياتهم عجزاً. لم يسبق لي أن رأيت عملاً أكثر دناءة!

يتدخل سيلبرت قائلاً:

ـ ذلك لأنك لم تر لونغمور وهو يعمل! يظهر هذا الرجل طبعاً قاسياً وعنيفاً مماثلاً.

يتنهد آرسيس، يهز رأسه، ويقول:

ـ الطبيعة البشرية! لا توجد علامة أكيدة للفضيلة: كل شيء مبهم في الطبيعة البشرية!

سيلبرت يرفع حاجبيه.

ـ عفواً؟

باينس يأتي لنجدته:

الأمر كذلك يا ابن العم،

آرسيس لا يقدر منع نفسه من إثارة عقل المفكرين الصالحين الذين يعينونه في تأكيد الأعمال المثالية لعقيدته، ووجوده السخي! هنا، فقد أيقظ لتوه ذكرى شاعر يوناني.. هل سبق أن سمعت بـ أوريبيد؟

-ولا بشكل،يجيب سيليبرت،هل كان عليّ أن أفعل ذلك؟

ـ لم يكن ذلك ليفيدك كثيراً من ممارسة مهنتك. لقد أحسنت صنعاً بتعلم استعمال السيف وحسن ركوب الجياد.

ـ لا يمنع أنني أجد نفسي أحمقاً بينكم أنتم الخمسة. يزفر سيلبرت وهو يمد شفتيه إلى الأمام، هذه الحركة تغير وجهه ليصبح على شكل خطم النمس.

ـ لا تصدق هذا يا ابن العم! أنت أخ مثل كل واحد منا.. ثم يأخذه على حدة بطريقة لا يستطيع بها الملك سماعها، يضيف باينس:

ـ أنت محور مشروعنا يا سيلبرت. لقد طلبنا منك أن تترك عائلتك لتساهم في حملة الصليبيين، وقبلت دون تذمر. نحن بحاجة إلى رجل ثقة في القدس. وأنت أصبحت ذلك الرجل!

ـ في الواقع، لا يمكنني مناقضة كلامك، إن إخلاصي قوي كقوة صداقتك، يا باينس.

ـ صديقي الطيب! ها هو ذكاؤك، إنه نابع من القلب.

من هذا القلب الطيب الكبير الحار الودود الذي يخفق بين حناياك يكمن ذكاء بسيط ومرح يجعل رأي أوريبيد على خطأ: وللطبيعة البشرية أحياناً أن تكون متزنة متوازنة وحكيمة. أنت الشاهد الحي على ذلك.

ـ إن لإطرائك طعم العسل. لكنني أعي أنه ليس مع أناس مثلي، يمكن أن نكسب المعارك. ولقد قلتها، يا باينس، فأنا لست محارباً، في حين أنه يلزمكم أنت وأصدقاؤك جندياً مناسباً ! واحد من هؤلاء العمالقة الذين لا تربكهم الرحمة في القتل والاغتيال.

ـ المعركة التي سنخوضها ضد أعدائنا ستتطلب مهارة أكثر مما تتطلبه من قوة، يا ابن عمي الطيب، نحن نقاتل ونناضل ضد الأشباح التي يحركها البابا كالدمى.

10
قبر الدجال

كان الليل قد قطع شوطاً كبيراً عندما اجتمع الشمبانيون أخيراً بمفردهم فـي مهجعهم .

وكان باسيل يمنع نفسه من النوم، وكان عليه بذل جهود كبيرة ليدفع عنه النعاس . يحصل له أن يتمايل، ومؤخرته منزلقة على حافة السرير، غير أن آرسيس، الذي جلس إلى جانبه، يمسكه فـي كل مرة يوشك فيها على السقوط.

جوفروا البدين يمشي داخل الغرفة، عنقه غارق بين كتفيه، عيناه كعيني دب وجبهته مجعدة.

ـ كيف؟ لم ينقطع عن الترديد . كيف تمكنوا من معرفة نوايانا؟

سيلبرت يخاطر بنفسه:

ـ أنت تتكلم عن تلك الطائفة السرّية، أيها السيد؟

ـ طبعاً! يقول جوفروا بحنق. أنت تسمع جيداً: أفكر بتلك العصبة الشيطانية التي يخون أعضاؤها، ويكذبون ويقتلون بمباركة البابا! نعم، حتى أكون متأكداً، أتكلم عنها.. لأنه لا يمكن إلا أن تكون هي! إنها عصبة مرائية، خبيثة! خطر متجدد يبحث عن نفس الشيء الذي نبحث عنه دون التوقف أبداً عن مراقبتنا!

ـ أخفض الصوت! يصرخ باينس بلهجة الآمر ويتوجه نحو الباب، يفتحه بصورة غير كاملة ليتأكد أن الممر فارغ.

يخفض جوفروا صوته قليلاً ليتابع دون التوقف عن المشي على شكل دوائر تضيق شيئاً فشيئاً:

ـ نحن جميعاً نفكر بالطريقة نفسها، لكننا لا نجرؤ على النطق باسم خصومنا، كما لو لم نكن سوى جبناء متطرفين.

ـ أنت محق يا جوفروا، يقول الكونت. الرجل ذو الفأس الذي تسلل إلى هنا كان يتدخل في شؤوننا ليحصل على خارطتنا. طبعاً، ذلك الخادم المسلح ينتمي إلى حراس الدّم!

استأنف جوفروا:

ـ بأي سحر علم أننا نملك هذه الخارطة؟ من قال له ذلك؟ نحن ستة في هذه الغرفة، ونحن الستة فقط نملك هذه المعلومة! كيف علم حراس الدم بذلك؟

ـ عندئذ خيم الصمت، الرجال يتبادلون النظرات. يعرفون بعضهم منذ زمن طويل. منذ الطفولة بالنسبة للكونت هوغ وباينس وأكثر من عشر سنوات بالنسبة للآخرين. لقد أدوا قسمهم على أسرارهم في المحفل الأول، وتعهدوا بخدمة التقليد بالروح والجسد. ومع ذلك إنهم يسبرون أغوار بعضهم البعض عندما يتساءلون جميعاً ويطرحون السؤال نفسه الذي لم يخطر ببالهم أنه سيطرح في يوم من الأيام.

أخيراً يقطع باينس الصمت بصوت لاغضب فيه:

ـ من غير المجدي تفكير الجوفيما بيننا، يا جوفروا، وليس بمقدورنا السماح بإدخال الشك. إنه سم، قد يقتلنا أسرع مما سيفعله حراس الدم! نحن رسل لكن لا يوجد يهوذا بيننا.

توقف جوفروا تماماً عن السير، إحمر وجهه وتمتم قائلاً:

ـ كلا.. كلا.. لم يكن في حسباني أن أزعجكم يا إخوتي. كنت أفكر بصوت عال، وتعرفون جيداً أن التفكير ليس المجال الذي أبرع فيه بشكل أكثر. لو أني أهنتكم فأنا أطلب منكم الغفران.. نعم.. نعم.. أي أحمق أنا، أليس كذلك؟

ـ هيا ـ يطمئنه هوغ، نحبك كما أنت! لكن لا يمنع أن يكون لاستدلالك وقعاً صحيحاً. غير أني لا أعرف بأي وسيلة، علم البابا وشرطته أننا نملك الخارطة التي ستقودنا إلى قبر الدجال.

ـ إنه دون شك يتجسس علينا منذ أشهر، يدمدم باسيل.

يدخل الكونت هوغ يده اليمنى في جيب سترته ليخرج محفظة صغيرة من الجلد ويفتحها في الحال. تحتوي على ورقة من المخطوط الذي يمده بعناية. الجلد يصدر قرقعة خفيفة تحت أصابعه.

يبدأ القول: أيها الأخوة، يبدو لي من الحكمة أن لا نطيل البقاء في القدس، لنستخدم هذه الخارطة منذ الآن.

ـ هذه الليلة بالذات؟ قال آرسيس مندهشاً.

ـ أجاب الكونت:لن يكون فكري مرتاحاً إلا عندما نكون قد وفينا بتعهدنا وأخذنا الشارات المقدسة!.

ـ كلام جيد، عقّب جوفروا، وهو يضع سترته السميكة على كتفيه، نحن لم نأت إلى هنا كي ننام ونتلو «أبانا الذي في السماوات» أمام قبر فارغ!

باسيل يشرع بالنهوض من فراشه، يستند إلى الذراع الذي وجده له آرسيس.

ـ أنا مثلكم، تمتم بأسلوب غير مفهوم.

ـ هل يجب أن نقف؟ علق باينس .

باسيل يرد واقفاً وهو ينفخ صدره في حركة جسورة:

ـ أنا بحالة أفضل! هذا الفاشل أيقظ دمائي.. لا تنسوا أنني تمكنت من دحره وجعله يهرب.

يقوم ببعض الخطى، غير الأكيدة في البداية، وبسبب إرادته، يستعيد تقريباً وقفته المستقيمة والمتعجرفة نوعاً ما.

ـ يتابع، انظرا إنني أقف منتصباً بصورة صحيحة على ساقي ولا أشكو من أي دوار. حركاتك السحرية صنعت العجائب يا باينس!

يرفع باينس عينيه نحو السماء ويرفع كتفيه.

ـ أبله لا يمكن تقويمه! يرد باينس.

*

*   *

اتخذ الإسقف بوسلين كل الاحتياطات بإقفال جميع نوافذ الغرفة وإسدال الستائر حتى لا يلاحظ أحد بأنه لا ينام.

النائب البابوي يمسك شمعداناً فوق وجه الرجل ذي الفأس.

كاهن شاب يخيط شفته من الجرح الذي سببه سيف الفارس باسيل لو هارني.

ـ أنت ترتجف يا سيدنا! يلاحظ الرجل بصوته الكئيب والمعسول.

ـ ذلك أنني أسأل.. أخيراً، كنت أظن أنك لم تكن حذراً ومنتبهاً عند ذهابك إلى شققي.

لكنها لم تكن سوى واحدة من الأسباب التي عكرّت صفو النائب البابوي، أما السبب الرئيسي فهو وجه القاتل. لا يكاد سن هذا الأخير يبلغ العشرين، وهو يشبه الملاك الذي تحلم به أحياناً. هذا الملاك الذي لا يعرف جنسه، العينان شاحبتان، في نظره شدّة، ترتسم على شفتيه ابتسامة قلقة وزاهدة. ذلك الملاك، أحياناً امرأة وأحياناً رجل، لقد أعترف بخطاياه راجياً أن تغفر له في يوم الدينونة.

ـ كل شيء كان مقدراً، يطمئنه القائد.

شحم الشمعة يسيل على قبضة يد بوسلين، وينصب على شكل طبقة رقيقة حارقة. غير أن

الإسقف لا يجرؤ على التذمر، كي لا يظهر للجريح أي ألم تحت وخز الإبر والخيط اللتين يستعملهما الكاهن الشاب.

ـ لماذا ترفض تناول بعض الملاعق من هذا العقار المنوم الذي يخفف الألم؟ يسأل يوسلين وهو يشير إلى قارورة صغيرة موضوعة على طاولة.

ـ شهيد صغير، مقارنة مع المسيحيين الأوائل المضطهدين المعذبين.

ـ حقاً، ألا تشعر بأي ألم؟

ـ عن طريق إماتات الجسد والتوبة، والزهد والتقشف الذين فرضتهم على نفسي استطعت التغلب على هذا الضعف، جسدي وروحي يتلذذان بالألم. يتمتعان بهما بنشوة!

عدم اكتراثك يبدو أنه يخيف أبانا الراهب الشاب، عدم الإحساس هذا ليس إنسانياً!

ـ على لعكس! يجب أن يقود التزهد كل البشر إلى الانفصال عن آلام الجسد. لست سوى سلاحاً يا سيدنا! الأداة التي ستحمي المصالح العليا للكنيسة. التاريخ كاذب، يعود لنا بحثه لإعادة كتابته بطريقة تحفظ وتصون الإيمان بالله. الإيمان هو الرابط الضروري الذي يجب أن يحفظ الإنسانية من الهرطقات.

ـ ها أنا، يعلن الراهب الشاب. لقد انتهيت من عملي. وضعت لصقات من عشبة آنتيليس فولنيراريا على الندبة.

ـ بل الماء المقدس بالأحرى! إنه نصل سيف أحد المارقين المرتدين الذي سبب لي هذا الجرح!

يغادر القاتل كرسيه ويمسك بطبق مستدير من النحاس يستخدمه كمرآة. وخلفه الراهب الشاب، يرتب أدواته الجراحية في كيس، لا يفارقه بالنظر، خائفاً من حكمه عليه.

ـ عمل خياطة رائع! يصيح الرجل!

ثم يضع الطبق جانباً، يلتفت نحو الراهب الذي يمسكه من عنقه كما لو أن الأمر يتعلق بدجاجة عادية ويأمره بصوت منخفض:

ـ سوف لن تتكلم لأحد عن هذا، سأشق رأسك مثل حطبة أيها الراهب الصغير!

ـ أقسم لك أيها السيد! يمكنك الوثوق بي.

يتدخل يوسلين مؤكداً، بحركة مهدئة:

ـ لا تخشَ شيئاً، لقد أدى قسم الولاء لحراس الدم وأُجيب ضامناً سكوته.

يخفف القاتل من ضغطه على رقبة ضحيته الذي بدأ بالشحوب والسعال.

يوسلين يتابع وهو يصب لنفسه كأساً من النبيذ:

ـ يمكنني أيضاً الاعتماد على بعض الفرسان الذين ينضمون إلى قضيتنا، وكذلك بعض

المروضين. لقد أمرت بمراقبة مهجع قوم الشامبانيين وسوف يخبرونني ما أن يتحركوا.

يتوقف الإسقف قليلاً: هل أقول له ذلك؟..

يعيد الرجل ذو الفأس القبعة على رأسه ويموه وجهه. بوسلين يتقدم:

- بعد قليل فـي مهجع النوم..

- نعم؟..

- هل كنت مجبراً على التسبب بكل هذا الأسى والتخريب؟ لقد قتلت خمسة شبّان مساكين تعساء وتركت أربعة آخرين مقطوعي الأرجل إلى الأبد.

- قلت لي أنني لن ألاقي أية مقاومة يا سيدنا!

- بوسلين يصب لنفسه كأساً ثانية. الخمر يسبب له وخزاً فـي وجنتيه وينشط ذهنه، محرراً إياه من هذا القلق الذي يشعر به فـي حضور القاتل ويرد:

- كنت أجهل أن الفارس باسيل لوهارني كان مريضاً ويلازم غرفته. وفور اكتشافك، كان عليك تأجيل البحث إلى وقت آخر.

- هل كان ضميرك مثقلاً تلك الليلة؟ ماذا كنت تتصور؟ أن المعركة التي خضتها لتوي فـي هذه الأراضي لم تكن لتسبب الضحايا؟

- لكن.. الأشخاص الأبرياء!

- كانوا يحملون العصي والخناجر لينقضوا عليّ مثل قطيع من الكلاب المسعورة قلت لك ذلك يا سيدنا، أجد بعضاً من الكياسة وأنا أخدم الله. لقد وهبني البابا مغفرته، أنا الخادم للكنيسة. أولئك الذين يعترضون طريقي يخاطرون بأن يدعوا مبكراً إلى جوار الأب الأزلي. لكن أرواحهم دين علي: سأقدم لهم الغبطة والسعادة!

بدا الراهب الشاب مرتبكاً لكونه شاهد لهذه المحاولة. وأن كل ثانية يقضيها فـي هذه الغرفة القليلة الإضاءة، تقربه من الجحيم. هذا الرجل القاتل الذي يبقي على الفأس فـي حزامه، هذا الشاب، الذي لا يفوقه سناً بكثير، هو شرير. لقد لمسه! لقد خاط جرحاً قبيحاً فـي خده الأيمن دون أن ينبت بكلمة أو يتألم؟ غرز الإبرة فـي لحمه عدة مرات وشد بقوة على الخيط لإغلاق الجرح دون التسبب بأي صراخ، أو اختلاج.

الآن يقف الكاهن قرب الباب، ناقلاً ثقل جسمه من جهة إلى أخرى فـي رقص متلهف. بوسلين والقاصد الرسولي يجهلانه.

*

* *

بدأت ظلال أشجار السرو تمتد بعيداً بخيالاتها، وأصوات حفيف أغصانها يبعث الخوف

في الليل. سيلبرت يحمل فانوساً ويمشي أمام الفرسان الخمسة. إنه يقودهم خارج سور منزل الإسقف.

باب سري غير محروس. أدلى بنظرة سريعة من أعلى كتفه، ومن ثم بإشارة من سيلبرت إلى رفاقه باجتياز الباب، الذي أغلقوه خلفهم بسرعة وبإحكام بواسطة المفتاح.

أعطى باسيل ذراعه إلى جوفروا الذي يسنده بقوة. نباح كلب في البعيد. عواء طويل يصمت بنبرة خشنة لم يرد عليها أي كلب آخر. الصمت يعكره فقط حفيف القصب.

تنشق آرسيس بشراهة العطر المركب، الفني والثقيل، المكوَّن من خليط عطور كثيرة، جعلتها أشعة الشمس تفوح طوال النهار فيما عمل الليل على تثبيتها في صلب نداوته.

- همس في أذن باينس الذي يسير الى جانبه: أحب هذا البلد.

منذ الآن؟

فعلاً منذ الآن. ألا تجد أن هذه المدينة تتميز برائحة طيبة؟

- في الواقع، لم ألاحظ شيئاً من هذا. أعرف أن عقلي ليس ميالاً أبداً إلى التأمل. بالأحرى أفكر بما ينتظرنا.

- بحق. عليك الحفاظ على هذه اللحظات الخاصّة،وإلى الأبد لأن ذاكرتك ستكون بحاجة إلى مرشدين كي لا تنساها أبداً.. أنا، سأتذكر الروائح المنبعثة من هذا الشارع، من هذا النسيم على أقدامي، الرمل الذي يلامس البلاطات الكبيرة غير المنتظمة التي تلتوي تحت قدمي، والكتلة الصغيرة من النور الصادرة عن الفانوس الذي يحمله ابن عمي.

تفاصيل كثيرة تصل إلى البشرة والعظام والعينين بهدف مساعدة الرأس على التذكر.

- أقدّر عالياً شاعرية روحك يا صديقي، فهي تتيح لك رؤية الجانب الجيد من كل شيء، في الوقت الذي لا يرى فيه معظم الرجال سوى الجانب السيئ.

سار الكونت في المقدمة ،والى جانبه سيلبرت الذي كان ينير سبيله .

- قال الكونت بصوته الخشن:إنها ليلة مقدسة.

- في الواقع، ستكون كذلك عند اكتشاف القبر وتنفيذ ما يجب علينا القيام به، ينوه الكونت هوغ مخرجاً من قميصه المحفظة الجلدية الصغيرة ويضيف: ليلة مقدسة أو سيئة.

*

* *

رجلان يخرجان من كتلة سوداء في أحد الجدران العالية.

- هل رأيت من الذي قادهما عبر الباب السريّ، يا لونغمور؟

ـ بالله عليك يا صديقي القديم سيلبرت، ألم يولد هذا الخائن فـي شامباني؟ مات تلهفاً ليعثر على ابن عمه باينس. أسرع وأخطر القاصد البابوي، أوريك، ليجمع رجاله،وسأستمر في مراقبتهم ولن تتركهم عيناي...

عرّج أوريك من هناك بسرعة.واقترب لونغمور من الباب السرّي متفحصاً القفل: «فـي هذه الليلة هيّأ هذا الشخص عمليته منذ زمن طويل، وصنع لنفسه مفتاحاً».

ثم أخرج خنجره، محاولاً خلع القفل بإخراجه من مزلاجه. ما استغرق ذلك فترة من الزمن اطول مما هو مقدر له، واشتعل غضباً. أخيراً توصل إلى إدخال مشبك الحزام، عندما انضم اليه الإسقف، والرجل ذو الفأس وإيريك وثلاثة رجال. اخرجهم فوراً ،وطلب اليهم بأن لا يغلقوا الباب تماماً، لأن عليهم الخروج منه سريعاً بعد انتهاء مهمتهم.

ـ سأل بوسلين: أي اتجاه نسلك؟.

لقد تركوا آثاراً فـي الرمل انظروا.

الريح لا تهب بقوة، تابع أوريك:

سوف نتمكن من تتبع إثرهم.

ـ أضاف لونغمور، يجب عليهم دراسة مخططهم والبحث عن طريقهم.

ساروا بضع خطوات، يصاب لونغمور بدهشة وهو يشير إلى القاتل ذي القبعة.

ـ من هو هذا الرجل الذي يرافقنا يا سيدنا؟

ـ هيا، أنت تعرفه جيداً!.

ـ كنت اتوقع ذلك، مع هذا، لقد كان من اللائق أن تقدمه الينا! إلا إذا كان هو يفضل ان يفعل ذلك بنفسه .

لكن الرجل ذي الفأس ظل ساكناً مطرق الرأس.

يقول بوسلين مجبراً على الإجابة:

ـ من أجل ضمان سلامته، فإنه لا يصرح باسمه. أعرف فقط أنه مرسل من قبل البابا.. إنه سيدعمنا فـي عمليتنا.

ـ قال لونغمور هازئاً: هل نحن مدينون له بالمذبحة التي تمت فـي عنبر النوم؟

وبصوت غير واثق، ينوه الإسقف مرتبكاً:

ـ واحد من الشامبانيين لم يذهب إلى (الصلاة عند القبر). لقد تحتم عليه ان يقوم بردّة فعل.

ـ وأي ردة فعل! أعرف قتلة أكثر براعة.

تحت قبعة من الظل، صوت أنثوي عذب يجيب:

أجهل البراعة والحذاقة عندما يتعلق الأمر بالقتل.

لتعلم السماء أنني لن أنقلب عليكم، أيها الفرسان.

ـ نحن من الجهة نفسها، أيها الصديق.

ـ ليس لدي أي صديق.

*

* *

تجمع الشامبانيون لدى الكونت هوغ. أمسك سيلبرت فانوسه عالياً بطريقة يتمكن الجميع فيها من رؤية المخطط.

ـ قال أرسيس قلقاً: هل سنتمكن من قراءة الخارطة؟ دون شك لقد تغيرت المدينة كثيراً خلال عشرة قرون.

ـ قال هوغ :لقد رسم هذا المخطط جوزيف الآريماتي، عم يسوع، آخذاً هيكل سليمان كنقطة انطلاق للمسافة التي يجب قطعها لبلوغ قبر الدجال.

ـ وقبة الصخرة كانت قد شيدت مكان الهيكل الذي صوره جوزيف الأريماتي على الخارطة كما لو أنها النجمة الكائيد، يحدد باينس وهو يشير إلى نجمة قبل أن يضيف: الكائيد ممثلة عادة تحت شكل حرف إيتا، الحرف السابع من الأبجدية اليونانية، هي النجمة الأولى في ذيل مجموعة نجوم الدب الأكبر. يكفينا أن نرسم طريقنا بخطوط قريبة من تلك الرسمة السماوية. فكرة جوزيف الأريماتي عبقرية: تصور القدس أنها جزء من السماء، وان طريقنا سيكون تكراراً للدب الكبير على مستوى المدينة.

ابتسم هوغ:

ـ باينس عالم بما فيه الكفاية بعلوم الفلك والرياضيات ليقودنا حتى آخر نجمة في الدب الأكبر؟! هناك يجب أن يكون قبر توماس (توما). بالتالي يقول جوزيف أنه ترك مؤشرات في حجارة بعض الجدران، ينوّه باينس. وقد يسعفنا الحظ ونجد بعض العلامات التي حفظها الزمن.

يستأنف الشامبانيون سيرهم. بعد أقل من ربع ساعة يصلون إلى مكان صغير مرصوف بالبلاط في وسطه بئر مهجورة، مغطاة ببلاطة مقلوبة وطحلب كثيف.

عندها امسك باينس بالخارطة، ملقياً نظرة عليها عند كل خطوة، سائراً إلى الأمام وأنفه نحو السماء، محصياً النجوم. يسير على هدى المخطط المرسوم من قبل عم المسيح منفذاً بذهنه بعض الحسابات المعقدة.

ـ والآن؟ قال آرسيس وقد نفذ صبره:

ـ عندئذ فيما لو فسرت بصورة مناسبة هذا المخطط، وإذا كان تقديري صحيحاً، فإنه يملي علينا اكتشاف علامة ما في ذلك المكان. هذا يؤكد أننا على الطريق الصحيح.

تنهد باسيل قائلاً:

ـ إذا سمحتم سأترككم تبحثون. سأذهب وأجلس على حافة هذا البئر وأرتاح قليلاً.

ـ جوفروا يساعده ليجلس على غطاء البئر.

ـ هكذا ستكون بخير.

ـ أنت تعتني بي كثيراً،إذاً أنت خائف من أن تفيض روحي هذه الليلة؟

جوفروا يهز كتفيه ويقول:

ـ لا هذه الليلة ولا القادمة.. ولا واحدة من الليالي القادمة قبل أن أدفن أنا!

ـ هذا لطف منك، لكن لماذا تتمنى الموت قبلي؟

ـ حسناً، أنت أفضل مني في فن الكلام، أنا متأكد أنك ستعرف كيف ستقول الجمل الجميلة فوق قبري: إطراء رائع سيبكي الحضور بغزارة، هكذا، سيتذكر كل واحد لزمن طويل مراسيم جنازتي!

عزيزي جوفروا الشهم، حين نعود أعدك بالتفكير بالأشعار التي سأنسجها من أجل جنازتك، لأنني أراهن أنك ستسجل اسمك في مسابقات جديدة، حيث ستغامر وتقامر بحياتك، أليس كذلك؟

ـ لايمكن لأحد ان يعيد تكوين نفسه، يا باسيل. أود من قلبي أن أسقط وأموت بطلاً!

جوفروا يذهب للانضمام إلى أصدقائه عندما استوقفه ما هو مكتوب على إحدى حجارة البئر. صاح قائلاً:

ـ قليلاً من الضوء!

هرع سيلبرت، رافعاً مصباحه برأس أصابعه.

ـ أشار جوفروا: هنا!

ـ اقترب باينس ، وعلى إثره هوغ ومن ثم باسيل.

الكل ينحني على الجدار، يرون مئة علامة محفورة في الماضي بواسطة إزميل.

هذه العلامة هي زيتا Zeta الحرف السادس من الأبجدية اليونانية، يقول باينس إنها تتوافق مع النجمة الثانية في الدب الأكبر، الذي أُعطيَ له اسم ميزار. لنتابع سنقطع قريباً على آليوت الذي من المفترض أن يشار إليه بالحرف إبسيلون.

يتفحصباينس المخطط من جديد ويشير إلى زقاق صغير يهبط إلى مستوى أدنى.

باسيل يمسك من جديد ذراع جوفروا والفرسان يغوصون في الزقاق الصغير. بعد بضع دقائق، يلمح باينس واجهة مسكن من طابقين مغطى جزئياً بالكرمة البرية. أبعد باينس الفروع بطريقة يكشف بها قاعدة الجدار المصنوعة من الطين والقش.

يلزمه القليل من الوقت ليكتشف الحرف الخامس من الهجائية اليونانية الـ إيبسيلون.

ـ قال الكونت: كأني بك قد جئت قبلاً ومهدت لإكتشاف هذه الطريق .

ـ حصل ذلك ألف مرة في المنام.

يتابعون تقدمهم. يصاب باسيل مرتين بدوار مجبراً إياهم على التوقف ليسمحوا له بالتقاط أنفاسه. معظم الحجارة المشار إليها من قبل يوسف الأريماني كانت قد أزيلت، غير أن باينس توصل دون صعوبة إلى إيجاد النقاط التي تتناسب مع دلتا دوميفريز غاما دومنيسرا، إلى بيتا دو ميراك...

ـ صاح آرسيس :لقد قدتنا إلى الجحيم .

إنه حي المجذومين،ينوه سيلبرت، لا يوجد فيه سوى البؤساء المساكين من أمثالهم، القريبين من الموت للدخول إلى مقبرة قديمة.

وصل الشامبانيون إلى جنوب القدس. إنه مكان مقفر، حيث توجد أبنية بائسة مبنية على جوانب صخرة سوداء، وتنبت أعشاب مجنونة على الأرض الجرداء الصلصالية التي تفوح منها رائحة نتنة قارضة، ضارة وخبيثة.

انفصل باينس وسيلبرت عن المجموعة ليفتشا العليق الذي يبقع الصخور.

ـ همس جوفروا: أحدهم ينظر إلينا.

ـ خلف مصاريع تلك النوافذ، يدل آرسيس بحركة من ذقنه، هناك وهنالك..

ـ رائحة العفن هذه، كانت تملأ الليل. يقول باسيل، عرفت في حياتي مهمات أكثر تسلية وإمتاعاً، كنا نعود سريعاً إلى منطقتنا المعتدلة المناخ، فتتحسن صحتي وأصبح بحال أفضل!

ـ أمنيتك سيستجاب لها قريباً، يقول باينس الذي كشف على الفور تحت الأغصان حرف ألفا كبير كراحة اليد.

ـ فلنستتر بنور (INRI) يسوع الناصري ملك اليهود» قال الكونت مندهشاً.

ـ هرعوا جميعاً، مشكلين نصف حلقة أمام جدار الحجر.

ـ انظروا، يقول باينس، هذه الفواصل بين الحجارة... إنها تحدد الباب المستدير الذي سد مدخل القبر، لنسرع ونحرره من لبلابه ومن دغله، سيوفنا ستفي بالغرض.

باسيل يتهيأ لإخراج سلاحه من غمده عندما أوقف جوفروا حركته.

- يقول له سأعمل بدل اثنين، أنت استرح أيضاً، سيكون عليك النزول إلى القبر عندما ننتهي من هذا العمل.

- شكراً يا أخي.

باسيل يعرف أن على الخمسة القيام بهذا العمل، وحدهم فقط: الخمسة.. أولئك الذين أقسموا بالحفاظ على سر المسيح.

استخدمت نصول السيوف كمناشير. بدأت تجرف الملاط من التراب والطحلب الذي وضعه الزمن في التواءات الجدار. النصول تطحن وتجرف يكرّس الفرسان أنفسهم لهذا العمل واضعين فيه كل قواهم غير مبالين أبداً بالأشباح المكسرة التي تظهر على نوافذ تلك المساكن البائسة، عرجان، مفصدين، رجال ونساء ممزقين يرتدون الثياب البالية الرثة، وحوش هجرها الأحياء، يخرجون من كهوفهم. يتقدمون بإجهاد، ينظرون إلى هؤلاء الدخلاء وهم مندهشون.

تمتم البعض . يفسرون بلغتهم هذا المشهد الغريب.وكأنه صوت حصى، منتزعة وعجيبة.

- طلب باسيل من أصدقائه: أحلفكم بالقديس يوحنا، أسرعوا!

تساءل المرضى المصابون بالجذام عمّا نفعله هنا. تصوروا أن عملنا يزعجهم.

يجيب سيلبرت، هؤلاء المتسامحون الفقراء لا يتمكنون من الوقوف على أرجلهم. لم يكن ليخطر ببالهم أن يهاجمونا، حيث كنا سنحولهم إلى فتات بثلاثة ضربات من السيف.

- مع ذلك، يتابع باسيل، إنهم كثيرو العدد..

أخيراً وبعد جهود متعددة، يتمكن باينس، هوغ، جوفروا، آرسيس وسيلبرت من انتزاع الباب المستدير الثقيل الذي دحرجوه بانتباه لا متناه حتى لا يستقر على جانبه ويسحق واحداً منهم:

بعد الانتهاء من هذا العمل، توجه باينس إلى ابن عمه بالقول:

- سوف تقوم بحراسة المكان بينما نقوم نحن بواجبنا يا سيلبرت.

- طبعاً، يا ابن العم، لن تكون تلك المهمة صعبة، لكن أسرعوا، إذ أني قد أُصاب بالقلق في حال تأخركم. فمن يضمن لنا أن سقف هذا القبر لن ينهار؟ هل من الحكمة أن تنزلوا جميعاً إلى داخله؟

- التقليد يفرض علينا أن نكون حاضرين جميعاً نحن الخمسة، ينوه باينس.

- نعم، نعم.. خواتمكم!

- هيا، لا تهتم. كل شيء سيجري بشكل جيد.

- بما أنك تقول ذلك! يقول سيلبرت هازئاً به، ألست ساحراً؟

- هذا هراء!

ثم يحمل باينس المشعل ويقول:

- لنهبط!

يغادر باسيل الصخرة الصغيرة التي كان يرتاح عليها وينضم إلى أصدقائه. يمُدّ جوفروا ساعده اليه، ويساعده على العبور فوق كومة من الحجارة المنهارة على عتبة القبر، بينما يسبقهم باينس ويدخل الكهف. ويقول ناصحاً رفاقه:

- انتبهوا، توجد عدة درجات غير ثابتة على الاطلاق.

فيما بعد، يغوص الرجال الخمسة فـي ظلمات القبر. لهبة المصباح بدأت تتمايل بتأثير الهواء الداخل معهم.

- لننبش كل القبور الفردية، يقترح باينس، نحن لا نبحث عن تجمع للعظام، بل عن الهيكل العظمي الوحيد الذي يحتويه هذا القبر.

يتفحص الفرسان الغرف الجانبية المثالية التي تظهر أمامهم. كل واحدة كانت تأوي مِرَمدَة تحتوي على بقايا عضو من عائلة يوسف الأريماتي.

فجأة، يتوقف باينس أمام واحدة من القبب، يرفع مصباحه فوق شكل رمادي مستلقٍ. رفاة بائسة، تبرز عظامها من كفن رث مغطى بالغبار، وقد قضت الديدان عليه بشكل جزئي.

- عادة، يبدأ التحضير للقيامة بعد أن يكون اللحم فارق العظام، التي كانت توضع فـي جرة، هذا ما كان محرماً على الدجال!

الدجال: توما، الأخ التوأم للمسيح. والذي أخذ مكانه على الصليب. ميت مسمر على الصليب مثل خنزير عادي ينزف دماً، ميت عار، الفخذان مغطيان بالبول والدم والوحل. الظهر مقطع من ضرب السياط، الجبين ممزق مجروح بسبب إكليل الشوك. ميت يبكي مثل طفل، ألم وخجل مختلطان. وسط صراخ الجمع، قدح وسباب وإهانات واستهزاء. مات وجهه مغطى ببصاقه مدفوعاً ومضروباً طيلة صعوده الجلجلة.

- بماذا تفكر يا باينس؟ سأله هوغ:

ينظر باينس إلى الجدار المواجه للقبر حيث يرقد هيكل توماس العظمي

- هنا، أجل هنا قد يظل يسوع جالساً، حسب التقليد. وقد توجه إلى أخيه، ليتأكد أن الموت لم يقفل كل أبواب عقله..كان يسأله!

- يقول آرسيس:لقد اختبأ يسوع فـي هذا القبر. كان الرومان يبحثون عنه هو أيضاً، بعد أن اكتشفوا أنهم عذبوا دجالاً.

- نعم، يقول باسيل، أعلمت المحكمة العليا عند اليهود بيلاطس بذلك.. الذي أمر بتفتيش كل المنازل والبيوت العائدة الى عائلة المسيح. لم يتمكن أبداً من التصور أن من يبحث عنه كان قد أغلق باب الحفرة على نفسه قرب أخيه.

ـ توما كان توأمه، يستدرك باينس. كانت روحهما مرتبطتين ببعضهما. إلا إذا كانا لا يملكان سوى روحاً واحدة؟ روح واحدة كانت تسبب لهما الألم بين العتمة والنور، وعلى التنازع عليها دون توقف...

يبدو باينس وكأنه يقبل هذه الفكرة. استند إلى الجدار حيث استراح يسوع..

ـ ثم يتابع يقول: ما لم يحاول المسيح اكتشافه منذ أن أسره الحكماء المصريون، لأن معرفته سمحت له لمرات عديدة الاقتراب دون الانتصار، يكتشفه هنا، في لحظة انتشاء! بينما كان يسأل أخيه، أصيب يسوع بنوع من الإشراق. الألم الذي كان يحرق ذهنه وجسده، العقاقير التي كان يتناولها نظراً لعادته على فعل ذلك، حضور الموت مجهزاً على توما، كل هذا جعله في حالة ذعر وثورة عصبية...

يترك باينس الجدار ويعود إلى جثمان توما، الذي يخرجه ضوء الفانوس جزئياً من العتمة الجاثمة على القبر. الشكل الذي يشبه بالكاد الشكل البشري، ذي الزوايا الحادة يبدو أنه يتحرك تحت الكفن، بفعل لهب المصباح الذي يرقص من أي نسمة خفيفة.

ـ كان يسوع قد اقترب من اللغز الكبير، يتابع هوغ، ولم يبق له سوى ترميز العمل الأخير بواسطة خمسة أشكال، هذه الأخيرة ظهرت له عندئذ.. كما لو أن توما سرقها لتوه من الموت، وأملاها عليه.

تدخل جوفروا قائلاً:

ـ ويسرع ليرسمها بطرف اصبعه على كفن أخيه بدم ومصل هذا الأخير!

خمستهم يعرفون بدقة هذه الحلقة التي أخرجها إكليروس الكنيسة من الكتب المقدسة (الأناجيل). يكررون ذلك هذه الليلة بصوت واحد، مؤخرين عن قصد اللحظة التي سيكون ــ أخيراً ــ عليهم استقطاعه جزء من الثوب الرمادي الذي يغلف جثمان توما.

ـ رسم يسوع الشكل بطريقة عشوائية، أضاف باينس. رسم الإشارات المقدسة: سر الأزلية من أجل المعني الذي سيعرف ترجمتها...

عندئذ خفض باينس المصباح بحركة رصينة بطيئة لتفحص الكفن الملطخ. ينحني أصدقاؤه، يبحثون بأعينهم في كل جوانب الكتان الملطخ. يكشف آرسيس أولاً الإشارات الخمس ذات اللون الاسمر والتي رسمها يسوع. تبرز جميعها واضحة بين طيات الثوب الكثيرة.

– صاح باينس: هذه هي المعرفة التي تجابه الحياة مع الموت. هذه هي المعادلة الخيميائية لسيدنا يسوع! إنحني هوغ، يضع يده اليمنى على صدره ويقول:

ـ نحن أخوة المحفل الأول، نصبح فيه اعتباراً من هذه الليلة المباركة، مؤتمنين عليه للقرون القادمة!

هتف باينس: ***Igne Natura Renovatur Integra***

وعقّب على ذلك الفرسان الخمسة: نقسم بالمثلث، بالمسدس (شكل سداسي) بالأوميغا، الصليب والتاو.. .

يضع باينس الفانوس على حافة فراش توماس المصنوع من الجص ويخرج خنجره من غمده. يشرع فـي قص الكفن الذي يفتحه على مستوى الأشكال الخمسة.

ـ لنتناول سر القربان المقدس الحقيقي! تمتم قائلاً! جسد الحياة..

على مرأى من رفاقه المحدقين، يقسم الثوب إلى خمس قطع، عازلاً الأحرف الواحدة عن الأخرى والتي يقوم بتوزيعها لاحقاً.

ـ هذا هو نور يسوع الذي نقسمه إلى خمسة أشعة ليأخذ كل واحد شعاعاً.

يطوي الفرسان القطعة الصغيرة من القماش بعناية قبل وضعها فـي الفتحة الصغيرة الموجودة فـي خاتمهم.

ـ فلنصبح الأصابع الخمسة فـي اليد اليمنى ليسوع!

ويغلقون خواتمهم.

يفاجئ باسيل أصدقاءه باستيلائه على الكفن بكل حيوية ونشاط مع أن جوفروا حاول منعه من ذلك، منتزعاً الكتان الذي يغلف الهيكل العظمي.

أريد رؤية العلامات الموجودة على جسده! يقول باسيل.

شرائح الجسد المحنط، المدبوغة بفعل الزمن ما زالت عالقة على العظام.

القبضتان والقدمان مثقوبة! يقول باسيل. أخيراً إني أرى المصلوب.. لقد عكر الدجال كثيراً لياليَّ بالكوابيس!.

تدخل هوغ، أمسك صديقه من كتفيه ليبعده عن هذه الرؤية المميتة المدنسة للقدسيات، يستسلم باسيل ويتنحى وهو فـي حالة من الحبور، بعد أن هبطت ذقنه إلى صدره، وتقوس دفعة واحدة.

ـ ليس من المستحسن أن تسلط بصرك نحوه يا صديقي، يلومه الكونت.

ـ رأيته ألف مرة ينتصب فـي الظلام. يمد لي ذراعيه الميتتين، ويشدني إليه. ذلك اللعين!

يعيد باينس الكفن على جثمان توما بينما يتابع باسيل:

كان يعانقني بجسده النتن المتفسخ، وكان يقبل شفتي.

ـ اصمت! يقول آرسيس زاجراً.

ـ لنصعد، لقد أنجزنا مهمتنا، يخلص باينس إلى القول وهو يمسك بالمصباح.

لكن باسيل لم يتمكن من منع نفسه من الالتفات، فالشكل الذي يرقد فـي حجرته يزول فـي الظلمة التي تغلفه. نور أخير يتحرك لفترة قصيرة على الكفن.

11
المعركة في الليل

ما أن خرج الشمبانيون من القبر حتى جاء سيلبرت ليلقاهم ويقول لهم:

ـ يجب علينا الانصراف بسرعة، لمحت بعض الأشباح وسيوف تلمع.

ـ هل هم جماعة من المجذومين؟ سأل باينس.

ـ أقسم بروحي، أن هؤلاء الحقيرين كانوا يقفون دون حركة، يختفون ويظهرون! هل أدركتم ما عليك فعله؟

ـ في الواقع لقد أنجزنا مهمتنا، لا يهم أن يدخل آخرون إلى القبر بعد الآن. لن يعرف أحد ما أخذنا منه.

ـ قال سيلبرت: هذا الحي هو متاهة بحق،. لنبق مجتمعين ولنهرب دون تأخير.

واقترح هوغ :لنطفئ المصباح.

*

* *

يلتفت الرجل ذو الفأس نحو لونغمور ليأمره:

ـ أيها الفارس، خذ رجالك وطارد هذه الفئران! لم يكن من عادة لونغمور ان يتلقى الأوامر بهذا الشكل، لكن بوسلين رماه بنظرة تأمره بالانصياع، فاستجاب لذلك.

ـ حسناً اتبعوني: بهذه الكلمات خاطب الرجال الذين يرافقونه في الليل، الرجل ذو الفأس، والرسول البابوي يتبعانه لبرهة صامتين، ينظران ناحية القبر، وبعد إشعال المصباح ،أبلغ القاتل:

ـ كان من المفضل إبعاد كل هذا الجمع عن القبر، أليس كذلك سيدنا؟. لكنه بدا منزعجاً لو أن الصليبيين يكتشفون ما سنراه فيه.

ـ أكيد، مع ذلك أخشى أن يكون لدى الشامبانين الوقت للمس الكفن!

ـ أعرف! أعرف أيضاً أن رجالنا سوف لن يتمكنوا من الإمساك بهم،

ـ كيف يمكن لك أن تكون متأكداً من هذا؟

ـ عملاؤك من شامبانيا لم ينقلوا إليك شهرة هذا اللعين باينس، نيافتكم؟

ـ الواقع هناك شائعة تدور حوله. خنازير يعطون لأنفسهم ملامح الأسطورة. هل يجب أن نعير آذاننا لهذا النوع من الإشاعات؟

ـ إنه مشعوذ ساحر، خلقه الشيطان! الشيطان علمه بنفسه حسن استعمال الأسلحة، فمن يقع سيفه عليه محكوم بالموت!

بوسلين يهز كتفيه، راغباً فـي وضع حد لهذا النقاش. لقد حدثوه مراراً عن الفارس هوغدوباينس. نقلوا إليه الكثير من الأحاديث الموحية أن الشامبانيين كانوا يمارسون الشعوذة.

رسول البابا لا يمكنه الإقرار للقاتل بأنه خائف. خائف من هذا الليل الصامت، من هذه الظلال المعذبة التي ظهرت على عتبة هذه المساكن البائسة. خائف مما سيكتشفه فـي القبر. هذه الحقيقة القائمة على الأرض منذ ما يقرب من عشرة قرون. هذه هي الحقيقة!

خوف، وبرد.

دمه ينبض فـي صدغيه بضربات قوية وجليدية.

ـ أنت ترتجف، لاحظ الرجل ذو الفأس.

ـ ليس بالأمر المهم، يقول بوسلين بصعوبة. لننته من هذا!

أشعل بعض المجذومين بدورهم المشاعل أو المصابيح وتقدموا لمسافة صغيرة من فتحة القبر.

أمسك بوسلين بمشعله، مأخوذاً برغبة فـي التقيؤ. إنه يجهل كيف تتم العدوى بالجذام. هل يكفي تنفس الهواء الفاسد المحيط بالمرضى لتتم العدوى؟

ـ تعال! يأمر القاتل الذي كان قد دخل فـي القبر.

*

* *

ـ أرجوك يا باسيل ، ابذل جهداً إضافياً...

ـ أيتها الساقان اللعينتان، لم تعودا تقويان على حمل هذا الجسد!

باينس، الذي يحمل سيفه بيده، تابع مراقبة أشباح الصليبيين الخمسة الذين خرجوا من خلف جدار، على بعد أقل من عشرين متراً، وقال بلهجة الآمر:

ـ فليعد كل من آرسيس وجوفروا الأخ باسيل إلى مهجع النوم!

وليأت هوغ وسيلبرت معي..

ـ يا.. ابن العم، يصيح سيلبرت، لم نعد سوى ثلاثة لكي نقيس أنفسنا بهؤلاء الأوغاد!

ـ هذا يكفي، يجيبه باينس مقهقهاً. فليتمجد اسم يسوع!

ـ وإخلاصاً لكلامه! يضيف هوغ.

الصليبيون يتقدمون، وعندما أصبحوا على بضع خطوات فقط من الشامبانيين صاح سيلبرت الذي تعرَّف إلى واحد منهم:

ـ آه، هذا أنت لونغمور! أنت أخ في السلاح؟

ـ لا أعدّ المرتدين من بين رفاقي.

ـ أنت تجهل لماذا طُلب منك قتلنا، ومع ذلك، فأنت تطيع دون علم بحقيقة الأمر؟

ـ لا أملك ذكاء حاداً، أعرف فقط أن سيدنا الذي أضع فيه ثقة كبيرة، أكد لي أنني أعمل من أجل قضية عادلة.

يعقب باينس:

ـ ما يزال لديك متسع من الوقت لكي تنسحب مع رجالك أيها الفارس، هكذا نتجنب سفك الدم عبثاً ومن دون فائدة.

التفت لونغمور نحو الصليبين، وأخذ أحدهم على حدة، ثم قال مقهقهاً:

ـ يا لها من نصيحة جميلة تلك التي يسديها لنا صاحب الجلالة الحزين! حتماً ستسيل دماء، لن تكون دماءنا! ما رأيك بهذا يا أوريك؟

لم يؤيد هذا الأخير سخرية رفيقه. ويجهل لماذا يعيق خوفه تنفسه ويشد على بلعومه. إنه لا يخشى سيلبرت الذي لا يمثل خطراً كبيراً. وصل الإثنان الآخران؟ هذان الاثنان اللذان ينتظران، غير مبالين، واقفين بثبات على أقدامهما، وأيديهما تمسك بقبضتي سيفيهما.

ـ حسناً، مارأيك في ذلك أوريك؟ يكرر لونغمور.

في نهاية المطاف يجيب أوريك دون شجاعة كبيرة:

ـ إنني أوافقك الرأي.

عندئذ بحركة، يرمي لونغمور بصليبيه في وجه الشامبانيين.

ـ فرقعة معدنية، زفرات، شتائم.

قال بوسلين وهو ينحني على الكفن الذي تظهر تحته عظام توما: انظروا!، لقد قطعوا

الكفن، لم يكن ذلك خرافة، أتفهمون الآن؟ ذلك كان صحيحاً! لقد اخذوا معهم الصيغة التي أوصى بها المسيحُ.

وبعد أن أدرك أن القاتل لا يظهر أي انفعال، وأنه يكتفي بالبقاء غير مبال أمام جثمان الدجال، أضاف الإسقف بصوت خافت:

ـ إذن، ألا يعني هذا لك شيئاً؟ الكنيسة التي تخدمها بالجسد والروح تبحث عن هذا الجسد مثل الأزمنة الأولى، ولا يبدو أنك متأثر بهذا!

ـ تغير مفاجئ بسيط! لكل شيء وقته. الصوت عذب طفولي.

ـ ندد بوسلين، تغير مفاجئ. لا يمكن، تجاهل أهمية هذا الاكتشاف! إنها أعجوبة الأزلية! لم يكن يملك يسوع قدرة إلهية.. لقد كان مشعوذاً ينتهك قوانين الطبيعة!

يتعالى الصوت العالي من تحت القبعة:

ـ إنه تجديف!

ـ أنا أيضاً، أنكرت ذلك لمدة طويلة، وأوكلت نفسي للدفاع عن القصة الكاذبة للكنيسة، الدفاع عن العقيدة (المبدأ).. لأن العقيدة أهم من الحقيقة!

ـ كلا، أنت مخطئ، يا سيدنا. أنا أدافع عن الحقيقة. تلك التي تقول أن المسيح كان ابن الله. مهما أرى ومهما أسمع من يذهب ضدها، فإنني لن أتوقف عن الإيمان بذلك.

ـ لكنه ضرب من الجنون عدم القبول باغتصاب هوية يسوع من قبل توأمه! انظر انظر!

بوسلين يسحب الغطاء الرمادي الملطخ بالعفن من بقايا توما.

ـ انظر! يصيح من جديد. القبضتان والقدمان! الأعضاء الأربعة مثقوبة بالمسامير التي حملت هذا الدجال على الصليب، لم تحدث أبداً قيامة من الموت في هذا القبر. أبداً. لقد أقام فيه الناصري ثلاثة أيام، طبعاً هذا ما نفهمه: تلمح الأناجيل إلى هذا الزمن الذي أمضاه تحت التراب.

لكن يسوع خرج بلحمه وعظامه ليهرب.

يعود الصوت العذب:

كتبت القديسة مينيهولد أن:« **في اليوم الأول من الأسبوع، ذهبت النسوة اللواتي قدمن من الجليل مع يسوع في الصباح الباكر إلى القبر، وأيديهن محملة بالعطور التي أعددنها طيلة الليل. وجدن أن الحجر قد دحرج من على القبر، وبما أنهن دخلنه، فإنهن لم يجدن جسد السيد يسوع. بما أنهن لم يكن يعرفن ماذا يظنن، وفي الحال ظهر لهن رجلان يرتديان ثياباً براقة متألقة. ذُعرن، أخفضن وجوههن نحو الأرض، لكن الرجلان قالا لهن: «لماذا تفتشن بين الموتى عن ما هو حي»؟ إنه ليس**

هنا، إنه قام. تذكرن عندما قال لكن أنه سيسبقكن إلى الجليل:

«سيسلّم ابن البشر إلى أيدي الخطأة، سيصلب ويموت وسيقوم في اليوم الثالث».

لم يقوَ بوسلين على إخفاء انزعاجه، وصاح:

ـ هل أنت أعمى أم؟ وكيف سترفض هذه الحجة وكيف لا ترَ أم أبله؟ هنا، أمام أعينكم، يرقد الهيكل العظمي لمن ضُرب بالسياط، وعذب ووضع على الصليب! أرى ما أريد أن أراه يا سيدنا. نعم، بالفعل أميز علامات التعذيب على الغطاء. في روما عمال مهرة يمكنهم ترقيع هذا الكفن. وبالنسبة للمسيحية قاطبة، ستكون تلك الذخائر الأكثر قداسة! إنها برهان على وجود المسيح! بمروره عبر ظلمات الموت قبل قيامته.

ـ أتريد أن يقدس المؤمنون كفن توما؟ الكفن المخادع؟

الصوت هادئ، دائماً وبطيء:

من سيتمكن من التأكيد، أن هذه الثياب لم تكن ثياب يسوع؟ أين سيكون الغش والخداع؟ أنا هنا لأكتب التاريخ!

*

* *

يستعين باينس بقدمه ليسحب سيفه من صدر أوريك الذي صرعه أرضاً. الجريح يصيح من شدة الألم والخوف وهو يرى نصل السيف يخرج من جسده محمراً من الدم، مخرجاً معه الجلد والعضل.

يتوسله الفارس بالإجهاز عليه ليحرره من الألم المبرح. لكن باينس يتركه في الحال ليسرع لمساعدة سيلبرت الذي يتفوق عليه لونفمور، مجبراً إياه على التراجع خطوة خطوة تحت وقع هجمات عنيفة.

من جهته، تجنب الكونت هوغ بمهارة ضربات الصليبيين الآخرين، مستبقاً الزمن اللازم لكي يحرر باينس ابن عمه باينس ويأتي فيما بعد ليدعمه.

ـ يهزأ الصليبي:لقد أصاب عضلاتك الصدأ منذ معركة القدس يا سيلبرت!.. .

هجوم بالحديد. استعراض بحد السيف. خماسية. يتراجع الشامباني، مدافعاً قدر المستطاع دون التخلص من إحراج لونفمور.

والصليبي يضيف ضاحكاً:

ـ صديقي المسكين، أنا أرثي لحالك، من السهل أن أقتلك الآن بعد أن أنهكتك. سيجزيني بوسلين نائب البابا على أقل تقدير، جزاء ما أقوم قرنين من المغفرة!

سمع باينس، باسم بوسلين، وفـي الحال ازداد غضبه لدرجة انه هاجم الصليبي من الظهر ليخرق صدره بضربة عنيفة وصريحة.

لم يأبه لونغمور على الفور، فهو يجهل لأي سبب يشعر فجأة بالبرد. لماذا يشعر بساقيه يتعبان، عضلا تهما مفرغة من الطاقة.

رأى هذا النتوء من الفولاذ الأحمر يخترق قميصه. وفهم عندها أن السيف اخترقه من الظهر إلى الصدر.

هل ما زال باستطاعته الكلام؟ لأنه كان سيتمنى أن يلعن هذا الجزار الذي اغتاله بنوع من الخداع، باينس هذا الذي يقال عنه أنه قريب من الشيطان، ويتعامل مع كل طغمات جهنم. باينس هذا الذي يسلبه حياته مثلما كان سيفعل أي قاطع طريق!

ـ هذا ليس ضرباً من الفروسية، يلفظ بصوت بليد وهو غارق فـي الدم.

لم تعد ساقاه تقويان على حمله، فيخرّ على ركبتيه.

ـ إنها الآن وضعية ملائمة جداً للصلاة، يسمع ضربات دمه تنبض فـي صدغيه.

مثلما فعل باينس بالنسبة لنصيحته الأولى، يضع جزمته اليمنى على ظهر لونغمور ليستعيد سيفه وبينما كان ينتزعه، سمع أنين كأنين حيوان مجروح.

عندئذ يسقط لونغمور على يديه، تنتابه التقلصات وحشرجة الموت، متقيئاً دماً أسوداً على قدمي سيلبرت الذي لم يقم بأي حركة منذ هجوم باينس.

ـ بسرعة يا ابن العم، لنساعد هوغ.

*

* *

طوى القاتل بعناية كفن توما.

ـ خذ يا سيدنا أسلمك إياه للحظة.

ثم يضيف:

تنص المهمة أيضاً، على محو الأكاذيب.

يرفع فأسه فوق الهيكل العظمي لتوما. بوسلين يبتعد، ممسكاً بالغطاء والمشعل. يتراجع ثلاث خطوات ويستند إلى جدار القبر الرطب، ويتمتم بصوت منخفض:

- Magnificat anima mea Dominum. Et exsultavit spiritus meus in Deo salutari meo[1].

سحب القاتل سلاحه، العظام تكسرت وتناثرت شظاياها متوهجة لحظة، بنور المشعل.

(1) روحي تمجد الرب ونفسي تهلل فرحاً بالله يا مخلصي.

ـ يا إلهي! تنهد القاصد البابوي

ثار الرجل على بقايا الدجال. ضربت قبضته وحطمت بقساوة هذا الشيء الأبيض الذي أخذ يتفكك ويتلاشى.تكسرت العظام وكحطاب لعين، ثمل ومجنون، أخذ القاتل يفتت الجثة المرعبة التي تطاير غبارها كذرات من الذهب، كحطب جاف.

لم يتوقف بوسلين عن الصلاة. يتلوها بتمتمات غامضة مبهمة نظراً لخوفه الشديد. بدا له أن تحطم الهيكل العظمي دام طويلاً جداً. فأس الجلاد الشاب تصدر صريراً عندما تصطدم بالحجر. هذه الضجة كادت تمزق غشاء طبلة هذا الكنسي.

ـ يا إلهي! يكرر عندها بوضوح.

ـ فجأة يطلب الرجل صاحب الفأس ملتفتاً: ماذا، يا أبتي؟

رائحة تعرق وبول. عرق القاتل، بول بوسلين، الذي يدرك أن فخذيه مبللتان.

ـ ماذا، يا أبتي؟ هل من طلب جديد بنفس نغمة المرة الأولى.

قال الإسقف في نفسه:«هذا الصوت الرقيق الأنثوي ... بعد كل شيء، هل التزمت بصورة مميزة بملامحه؟ هل أنا متأكد أن الأمر يتعلق برجل؟ عندما قام الكاهن بخياطة خده ووجنتيه خطرت فكرة في ذهني، قلت في نفسي أن وجهه كان تقريباً يفوق الكمال: خط ذقنه الجرداء، عذوبة نظرته..»

ـ تفضل، أعد لي الكفن يا سيدنا.

ـ نعم، خذه

ـ يوجد شيء آخر.

ـ ماذا؟

أنت وراهبك الشاب كنتما قد رأيتما وجهي. اعرفوا إنني آسف جداً لذلك...

بوسلين يزفر طويلاً. لم يعد لديه من صوت ليدافع عن قضيته.. أو للتعهد أنه لن يتكلم أبداً.

إلى أي مكان. أقسم أنه لن يكون قادراً على نسيان وجه ذلك الذكر ـ الأنثى إلى الأبد.

يكتفي بإغماض عينيه. الظلمات تتراءى له في قمة هولها ورعبها، إنها فارغة. لا أحد يمد له اليد.

المسيح لم يكن ابن الله.

هكذا يتلاشى الرأس متشظياً تحت تأثير ضربة فاس عنيفة. يموت قبل أن ينهار ويسقط جسده.

يلتقط قاتله المشعل الذي سقط على الأرض ويشعل ثياب ضحيته قبل أن يغادر القبر.

الليل يسحره ببرودته العطرة، يتنشق منه الهواء المحلى، باحثاً بعينيه عن الصليبيين الذين رافقوه، يهز كتفيه، واثقاً أن الشمبانيين قتلوهم جميعاً. يصمم على متابعة طريقه والعودة إلى الهيكل. يعيد فأسه إلى حزامه.

هيئات لأشخاص خرجوا من أكواخهم الحقيرة يحيطون بالغريب وهم يتكلمون بصوت منخفض. البعض يقترب منه وآخرون يفضلون البقاء بعيدين، مندهشين خائفين. أحد هؤلاء الأشباح يشير إلى القبر حيث خرج الرجل.

ثمة نور انبثق منه.

التفتّ القاتل بهدوء حول نفسه ليكتشف الواحد بعد الآخر كل هؤلاء المجذومين ،أو المومياءات الفاسدة، المخلوقات الفضائية المشوهة. ينتظر أن تشكل هذه الدمى من حوله دائرة واسعة لكي يتخلى عن قبعته. عيناه الشفافتان كعيني القديس فاتن تنيران وجهه الأنثوي الذكري.

صرخ قائلاً:

ـ كونوا مباركين، لأن هذه الليلة هي ليلة النور، ليلة الإيمان الساطع.

يا أبتي، لقد أزفت الساعة، مجّد ابنك لكي يمجدك ابنك وكي يقدم ـ بفضل سلطتك التي منحته إياها ـ يقدم الحياة الأزلية لكل أولئك الذين أعطيته إياهم. بيد أن الحياة الأزلية، هي أن يعرفوك أنت، الإله الحقيقي، والذي أرسلته، يسوع المسيح. لقد مجدتك على الأرض، وأتممت العمل الذي أعطيتني لأقوم به والآن، يا أبتي مجدني قربك بهذا المجد الذي كان لي قبل أن يكوّن العالم.

ثم رسم بيده اليمنى، في الفراغ إشارة الصليب قبل أن يعدّل موضع قبعة معطفه، معيداً وجهه إلى الظلمة.

يستدير، مخترقاً صفوف المجذومين دون إظهار أي تأفف أو قرف.

ها هو وحيد في شارع صغير، يسير بخطى سريعة، وكفن توما على كتفه.

«لم يبق لي سوى الاهتمام بهذا الراهب الشاب فيما يخص سرّ الشامبانيين، ستتوصل هلين دو بريين إلى تسليمي إياه يوماً ما! سأعرف كيف أكون صبوراً!».

12
القَسَمْ الثاني

عاد الفرسان الشمبانيون الخمسة إلى مهجع نومهم. باسيل الذي أعياه السير فـي أزقة القدس، استلقى على فراش من القش، قطعة قماش مبللة بالماء البارد تغطي جبهته.

جلس آرسيس إلى جانبه آخذاً يده اليسرى بين يديه.

ـ تمتم باسيل متألماً: أنا آسف، لقد أصبحت مُزعجاً للغاية، فقد عرّضت حياتكم جميعاً للخطر، منذ قليل.

ـ سأل آرسيس: عمَّ تتكلم؟.

ـ لأني تركت باينس والكونت وسيلبرت يقاتلون رجال الإسقف.

ـ تدخل باينس: حسناً، لقد خرجنا من ذلك المأزق دون صعوبة كبيرة، أترى! حتى أنني شعرت بشيء من اللذة بغرس سيفي فـي ظهر لونغمور هذا. دون شك كان قاطع الطرق هذا ينتظر معركة تخضع لقواعد وأسس الفروسية، وقد دفع ثمن ذلك.

سيلبرت، الذي كان يتهيأ للخروج من الغرفة، توقف على العتبة ليقول:

ـ أقسم بإيماني يا ابن العم، وأقرُّ أيضاً أنك أدهشتني. طبعاً لست آسفاً لفعلتك التي أخرجتني من ظرف خطير، لكنني لم أكن أتخيل أنك عنيف لهذا الحد.

باينس يضحك عالياً ويردد:

ـ لا اعرف سوى قاعدة واحدة وفريدة في معركة ما يا ابن العم. مبدأ واحد لن أتنازل عنه أبداً: يجب إحراز النصر! حكمت أن مهاجمينا كانوا لا يستحقون أن يعاملوا بشكل مشرف، واحترامهم كان مضيعة للوقت. يجب إحراز النصر كما أقول لك!

ـ أكّد سيلبرت منسحبا: سأتذكر ذلك، بعدها بعدة دقائق، يستعلم الكونت هوغ ما إذا كان باسيل يشعر أنه قوي كفاية ليستطيع النهوض.

ـ نعم، نعم، قالهاالمريض وهو يرفع ضماده الرطب. آرسيس يساعده على الوقوف، ثم النزول من السرير.

ـ عندها قال هوغ: لنضم أيدينا، أيها الأخوة.

ـ أضاف باينس: أنت محق أيها الكونت، يجب أن لا نتأخر، فلنشكل سلسلة الاتحاد ولنتلو قسمنا الثاني:

يرفع الفرسان الذراع الأيمن ممدوداً. تتحد الأيدي ليرسم الرجال نجمة ذات خمسة فروع.

ـ بالسلام، القدس أصبحت مدينة السلام، استهل هوغ قسمه، مدينة سجل المجابهات بين أيدي الخلفاء الأمويين، والعباسيين، الفاطميين الشيعة والسلاجقة السّنة.

يتابع باينس:

ـ بالسرّ الفائق الوصف المدفون داخل هذه الحجارة المتراصة وباسم دم ضحاياها.

ـ ببلورة مائها..

ـ بماء صخورها..

ـ بروحانيتها الذهبية!

ـ وبما أن الساعة آتية دوماً وأننا نتقدم في السن حسب تعليم معلمنا الأخ الأول، لنقسم على متابعة أعمالنا بالوحدة المستعادة.

ـ بأن لا نرفع أبداً من يدنا هذا الخاتم الذي يربط الموت بحياتنا ويربط حياتنا بالموت حسب دورة لا تعكس.

ـ لنقسم بأن نتحد فاتحين اليد اليمنى للمسيح لحظة الشعور بخطر يهدد منظمتنا وعلمنا. لنقسم بإخلاص أزلي من أجل تقدم البشرية، ما دامت الشمس تشرق من الشرق وتغيب من الغرب فيما وراء الموت، إننا سنستجيب مستعدين لنداء اخوتنا.

لنقسم!

الشامبانيون الخمسة بصوت واحد:

ـ لنقسم!

الأذرع تنخفض دفعة واحدة، باينس وحده يضع يده اليمنى على صدره ويتلو:

ـ في البدء كانت الكلمة والكلمة كانت موجهة نحو الله وكانت الكلمة هي الله. هكذا كانت في البدء، متوجهة عند الله. كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس. والنور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه.

كان إنساناً مرسلاً من الله وكان أسمه يوحنا. جاء هذا الانسان للشهادة، جاء ليشهد

للنور، لكي يؤمن الكل بواسطته. لم يكن هو النور بل كان ليشهد للنور. كان الله النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان وهو في طريقه إلى العالم. كان في العالم وكُوّن العالم به ولم يعرفه العالم. إلى خاصته جاء وخاصته لم تقبله. وأما كل الذين قبلوه فقد أعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله أي المؤمنين باسمه. الذين ولدوا لا من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل من الله. والكلمة صارت جسداً وحلّت بيننا، فرأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوء نعمة وحقاً. يوحنا شهد له ونادى قائلاً هذا هو الذي قلت عنه إن الذي يأتي بعدي صار قدامي لأنه كان قبلي. ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا. ونعمة فوق نعمة. وإن كان الناموس موسى. والحقيقة قد جاءت مع المسيح فإن الله لم يره أحد قط أما الابن الواحد، الذي هو في حضن المعرفة الكلية، فهو الوحيد الذي كشف لنا الإله.

بعد برهة قصيرة، يضيف باينس:

ـ هكذا يُتلى الكلام الحقيقي.

كلام إنجيل الحقيقة. الكلام الذي حرّفه رجال الكنيسة الكبار، ونشروه، متخفّين خلف العديد من الأكاذيب. سيدنا يسوع، الأخ الأول، لم يتألم على الصليب، لم يصعد إلى السماء، لم يجلس عن يمين الآب، نحن أبناء النور، أبناء المعرفة (الله) ونحن مؤتمنون على الألغاز الدقيقة التي تربط الأحياء بالأموات.

ساد الصمت الآن. باينس ينظر إلى أصدقائه، فيبتسم لهم، يتظاهر برسم صليب على الأرض بمقدمة قدمه اليسرى. إنه الأول الذي يبصق على هذا الصليب اللامرئي، متبوع في الحال بالفرسان الأربعة الباحثين.

يختم الكونت هوغ الاحتفال بهذه الكلمات:

ليكن الصليب ملعوناً! أقسم بـ I.N.R.I يسوع كان قد نام بانتظار أن يستعيد الحياة، وسوف نسهر على نومه في القرون القادمة.

*

* *

لم يتمكن من الرقود، فمن النادر أن ينام بسهولة، ذلك منذ وصوله إلى القدس. لم يتوقف عن تذكر أنين المحتضرين، صراخ النساء والأطفال.. هؤلاء المساكين الذين قتلهم الصليبيون، وداسوا على دمائهم، صارخين بجنون مثل المعذّبين، وضاربين دون توقف، بالرغم من التعب، محطمين الجماجم، باترين الأطراف، ممزقين الأجساد.

يتحمل سهاده بالصلاة، راكعاً عند أسفل سريره، الوجه مرفوع نحو صليب ضخم من الخشب المسمّر على جدار من الكلس، ركبتاه البارزتان تتألمان على الحجر الرطب، تحركها

التشنجات سريعاً، غالباً ما تؤلمه عضلاته وكليتاه، لكنه يرغم نفسه على عدم الإتيان بأي حركة. يصلي.

- أنت فتى صغير أيها الراهب! صغير جداً لأن يكون لديك خطايا فتطلب الغفران!

الصوت رزين، ملائكي. صوت الرجل الذي خاط له وجهه منذ قليل.

يلتفت الراهب مندهشاً لأنه لم يسمع أي قرقعة. مع أن باب غرفته كان مفتوحاً على مصراعيه ورسول البابا يقف على العتبة.

- آه، هذا أنت! يتعجب الراهب. هل تم كل شيء على ما يرام؟ أم هل نام سيدنا بوسلين؟

يمسك الرجل فأسه بيده اليمنى، وباليسرى يخفض قبعته، ويقوم بثلاث خطوات.

- إنهض وانظر إليّ جيداً، أيها الراهب.

أطاعه الأخير، مرتجفاً مثل قطة مبللة، نحيب لم يتمكن من كبته صعد إلى بلعومه. غصة من الرعب والحزن.

- سألتك ما إذا كان سيدنا بوسلين قد عاد معكم من رحلتكم، توصل الى القول بصعوبة.

القاتل لا يجيب، يكتفي بالابتسامة مقرباً وجهه من وجه الراهب. قريباً جداً لدرجة إعطاء الشعور بأنه سيقبله.

الراهب يشم لهاث الرجل الذي يدفئ شفتيه.

الصوت، الصوت العذب يتداخل فيه على شكل همس:

- يهوذا عانق يسوع ليرشد الرومان إليه ويسلمه بهذه الطريقة إلى الموت. عندئذ واحد من الإثني عشر، المدعو يهوذا الأسخريوطي ذهب إلى كبار الكهنة وقال لهم: «ماذا تعطوني، وأنا أسلمه إليكم؟» حدد له هؤلاء مبلغ ثلاثين قطعة من الفضة. منذئذ كان يبحث عن مناسبة سانحة ليسلمه. هذا مكتوب! هذا ما سيكون حقيقياً للقرون القادمة.

- أين الرسول البابوي؟ ماذا فعلتم به؟

- قبّلني ومات مع القبلة الأخوية أولئك الذين يضحون بأنفسهم للحفاظ على سر الكنيسة المقدسة. الذي سلمه أعطاهم إشارة: «من أطبع على جبينه قبلة، سيكون هو، أوقفوه!». في الحال تقدم نحو يسوع وقال: سلام يا معلمي! وقبّله. فقال له يسوع «يهوذا صديقي، قم بما أنت عازم عليه!».

يتراجع الراهب الشاب خطوة إلى الوراء.

ساقاه الباردتان والمجمدتان تمنعانه من الحركة أكثر من ذلك.

- رأفة، سيدي.. أنا من أنصاركم! يتلعثم. ليساعدني الله، لقد أقسمت على الولاء لحراس الدم!

ـ نعم، لكنك رأيت وجهي، ومن يتقابل نظره مع نظر الملاك المهلك المدمّر محكوم عليه بالموت!

ـ يا مريم العذراء أعينيني، أنت مجنون!

يصبح صوت القاتل صاخباً خشناً. واخذاً مثل خنجر. ويضحك ضحكة سامةومتقطعة..

إنها تلك الموسيقى الهستيرية المرافقة لحركة الفأس فـي فناء الغرفة. نصف دائرة فسيحة تقتاد الشفرة الثقيلة إلى رأس الراهب الشاب.

يبتعد القاتل ليسمح لضحيته بالسقوط.

ـ المجنون بالله! صاح بضحكة أخيرة، ذراعه طبقت العدالة.

*

* *

ماكادت خيوط النهار تطلع على القدس حتى حضر الملك بودوين إلى مهجع نوم الشامبانيين بحجة الاطمئنان على صحة الفارس باسيل لوهارني.

أنا سعيد لرؤية صحتك التي لم تزدد سوءاً هذه الليلة، رغم أن هذه الليلة كانت حافلة بالضجيج!.

باسيل يسأل ببراءة وهو جالس على مرفقه:

ـ ماذا تريد القول؟ هل كان عليك أن تصد معركة ما لم نسمع بها؟

يدنو باينس. يتابع الملك:

ـ طبعاً لا! لا يتعلق الأمر فـي المكان الذي يأوينا، أنا أتكلم بالأحرى عن الأحداث التي جرت فـي الضواحي.

ـ سأل باينس: هل هي ثورة الشعب؟ .

ـ قال الملك: ليس هذا أيضاً. بينما الشامبانيون يشكلون دائرة من حوله.

ـ قال جوفروا بسخرية: أنت تشحذ فضولنا يا مولانا.

قبل بودوين المناظرة الكلامية ولعب دور الساذج مجدّداً:

ـ فـي الصباح الباكر، جاءت جماعة من المجذومين لينقلوا لنا ما أحضروه. أرسلنا على وجه السرعة جماعة من الجنود الكشافة إلى حيهم، فوجدنا فيه جثة الفارس لونغمور، وكذلك جثث الصليبيين الأربعة. تابعنا تقصياتنا، فاكتشفنا أيضاً شيئاً مدهشاً جداً..

ـ قال باينس:نعم؟..

ـ قبر قديم أُحرق. انهار بينما كان رجالنا يتهيؤون لدخوله، منعوهم من تفتيشه، لكن هناك شيء آخر أيضاً..

ـ كرر باينس:نعم؟ .

ـ سيدنا بوسلين، رسول البابا، اختفى! وأحد الرهبان المرافقين لحاشيته وُجد في غرفته منذ قليل محطم الجمجمة!

هذه الإفشاءات تفاجئ الشامبانيين. حتى الآن، كان كلام بودوين منتظراً. المعلومتان الأخيرتان ألجمتهم.

تظاهر الملك بأنه لم يلاحظ شيئاً وتابع:

ـ أنا وفرساني أقمنا العلاقة مع المجهول الذي قتل المروضين والغلمان يوم أمس، والذي ساعده الفارس باسيل على الهرب. يمكننا التأكد أنه ما يزال حتى الآن بين أسوارنا.

ـ قال باسيل:بالفعل يجب خشية ذلك. الجرح الذي سببته له لم يكن عميقاً وطبعاً لم يسبب له عاهة و يقعده.

ـ سأل آرسيس: هل يكون هو من قتل الراهب؟.

ـ يؤكد الملك بلا شك. الفأس وحدها تمكنت من سحق الجمجمة بهذا الشكل.

وبعد هنيهة أضاف:

ـ اعتقدت في البداية أن زوار قبر القرية المجذومين كانوا لصوصاً، إنهم يسببون خسائر كبيرة. آسف من واجبي أن أصرح لكم بوجود العديد منهم في صفوفنا. الإغراء كبير بالنسبة لهم هو أن يجمعوا ثروة صغيرة يخبئونها في متاعهم ليأخذوها إلى بيوتهم فيما بعد.

ـ سأل باينس:ألم تفكر بهذا الاحتمال؟.

ـ ما الذي يمكن سرقته من مقبرة عبرية قديمة؟ لايعثر فيها على أي حليّ، أو ذهب أو دراهم. لا شيء سوى المخابئ الجنائزية. ومن ثم لا يمكنني قبول أن الفارس لونغمور كان سارقاً قاطع طريق، الرجل لم يكن يتمتع بدقة كبيرة، لكنه كان وفياً. أخشى من ألا أعرف أبداً مفتاح هذا اللغز. وأن لا أعرف أبداً من هو ذلك الجزار الذي يقتل فتياني بتكسير جماجمهم مثل قطع بسيطة من الخشب.

يتوجه الملك نحو الباب. يلتفت صوب باسيل، الجالس الآن في سريره ويقول له:

ـ يسعدني كونك مقداماً أيها الفارس. إن الحمى التي أصابتك ستزول قريباً حسب ما تبديه هيئتك التي تسترد شيئاً من ألوانها.

ـ اهتمامك بي يا مولاي يريحني.

يرسم الملك الشاب ابتسامة شك وريبة تفرغ حفرة في كل خد من خديه، ثم يغادر الغرفة.

يسير الكونت هوغ في إثره ويرافقه فـي الممر.

ـ نعم أيها الكونت؟

ـ جلالتك، كنت أريد أن أقول لك..

ـ ماذا تريد أن تقول؟ أن المجذومين الذين تواجدوا بسبب المعارك فـي شوارعهم رأوا ثلاثة فرسان يهربون وثلاثة آخرين مشتبكين مع الصليبيين؟ وأنهم عرفوا واحداً منهم بشكل خاص؟ مقاتل بارع باستعمال السيف بصورة ضارية؟ هل عن هذا كنت تريد أن تكلمني أيها الكونت؟

ـ لكني يا مولاي أرغب بأن أحصل على حمايتك. رفاقي وأنا نفكر بالسفر عبر فلسطين، نحن نأمل إيجاد كل الأماكن التي طبعها سيدنا يسوع المسيح بطابعه.

ـ أرى. . كيف يمكن أن أرفض مواكبة كونت شامبانيا وفرسانه، من أجل إتمام حج عزيز جداً؟ سيكون لك ما تطلبه، يا هوغ.

إنحنى هوغ وقال:

ليمجد اسمك يا بودين، يمكنك منذ الآن اعتباري كواحد من اتباعك الأكثر إخلاصاً. أؤكد لك أن أهل شامبانيا سيأتون قريباً بأعداد كبيرة ليدعموك فـي القدس ويساعدوك فـي الدفاع عن أمن المؤمنين.

ـ فـي ذلك اليوم سأكون مديناً لك، أيها الكونت.

تكلم الملك بأسلوب جاف. ثم غادر الكونت وعاد إلى البلاط حيث انضم إلى الفارسين برتراند وآندريه اللذين ينتظرانه هوغ يلتف ليجد نفسه وجهاً لوجه مع باينس.

ـ آه، سمعت؟ هذا هو بالضبط ما كنت ترغب به يا أخي؟ أن نتصارع ونتقاتل فـي الأراضي المقدسة؟

ـ هذا ما سنفعله، ما دام علينا أن نحافظ على السرّ. سوف نكرس له كل قوانا والذهب الذي لدينا! لأننا نعرف أن الذهب لن ينقصنا، أليس كذلك أيها الأخ؟

13
صلاة الاعتراف

صعدنا إلى بيت لحم حيث ولد الأخوان، يسوع وتوما، اللذان تقول الأسطورة أنهما خرجا متعانقين من بطن مريم.

تعمقنا حتى بلغنا موطن يوسف الأريماني، حيث بقينا مدة طويلة نبحث عن أشياء كتبها الشخص الذي دفن توما.

وبعدها عبرنا السامرة لنصل أخيراً إلى الجليل. أفكر دون انقطاع بهيلين التي تنتظرني، لن أتمكن من منع نفسي أن أروي لها مغامرتنا. لن أقدر أن أخفي عنها شيئاً...

الريح تعوي عبر مصراعي النافذة اللذين يلتطمان بالآجر، لتتسرب عبر الفرجات بين الأخشاب لتدخل وتلسع أقدام هيلين. لقد انهت هذه الأخيرة قراءة آخر ورقة من مذكرات زوجها، الذي قتله مجهول فـي الليلة قبل الماضية سارقاً يده اليمنى.

قرع الباب برفق، ثمة من يناديها تعرفت على صوت باينس الرزين الخشن فركضت لتفتح له الباب.

ـ ارتمت بين ذراعيه وأخذت تبكي كطفلةٍ صغيرة وتقول: أنا سعيدة بقدومك بهذه السرعة.

ـ همس الفارس فـي شعر المرأة الشابة: أسرعتُ لأدفن صديقاً وأشد من عزيمة زوجته.

يغلق الباب خلفه ودفع هيلين برفق منزعجاً وغير معتاد على إظهار تعاطفه على هذا النحو. فركت المرأة الشابة عينيها بطرف شالها، وتتوجه إلى المدفأة الجدارية تحرك وتؤجج جمرات كبيرة حمراء تكاد تكون شفافة، وتشير إلى أوراق جلد الخروف الرقيقة المكدسة على الطاولة.

ـ كنت أقرأ صحيفة آرسيس، فقد اتضح لي أنني كنت أحب هرطقياً (بدعياً). أحببته رغم كل شيء، لكن، أقسم أنني لم أشاركه أبداً فـي معتقده.

ـ إذن، أنت تعرفين..

ـ لا تخشَ شيئاً. فقد التزمت الصمت حول قناعاته... أقصد قناعاتكم! لكن «الرجل ذو الفأس» الذي وصفه في صحيفته هو من قتله، أليس كذلك؟ ذلك الذي تسلل إلى غرفة نومك في القدس؟

ـ بالفعل، هيلين. عندما قرأت الرسالة التي حملتني إياها، فهمت على الفور أن الأمر يتعلق بالقاتل نفسه.

ـ آرسيس يرتاح في غرفتنا، هل ترغب برؤيته؟

ـ نعم، لكن قبل كل شيء، علي حرق صحيفته. كان عليه ألا يكتب هذه الكلمات وألا يودعك هذا السر. بعض الأسرارحين تكتب تسير مع الرياح العاتية.

ـ كنت زوجته المحبوبة يا باينس.

ـ بالضبط! كان من الأفضل لك أن تبقي خارج هذه القضية.

اقترب باينس من المدفأة ورقائق جلد العجل في يده، ونظر للحظة إلى الجمر، وكأنه يفكر بالحركة التي يتحضر للقيام بها.

ـ أنت محق يا باينس، قالت له هيلين.

أحرق هذا المخطوط. احرقه!

يقتنع الفارس أخيراً. يلقي بالأوراق في الموقد، فتشتعل في الحال مفرقعةً وبينما تنثني على ذاتها مجدداً بفعل الحرارة،، بدت وكأنها تريد حماية محتواها من ألسنة النار.

ـ قال باينس: والآن، رافقيني إليه.

أمسكت هيلين قنديل الزيت وسلكت الممر الذي يعمه الظلام.

ـ اتبعني.

كانت ألواح الأرضية الخشبية تحدث طقطقةً تحت أقدامهما. فتحت المرأة الشابة أحد الأبواب وابتعدت قليلاً ليدخل باينس.

ـ سوف أبقى عند العتبة، همست بصوت منخفض، أشعر بكثير من الألم لرؤيته هكذا.

أربع شمعات كانت قد وضعت عند زوايا السرير، لهبها الصغير يتمايل مع الريح التي تجتاز المنزل وهي تئن وتعوي.

ـ قالت هيلين: إن الجيران قدموا لي المساعدة من أجل غسيله.. ونقله لهذه الغرفة.. كي... ولم تتمكن من إنهاء حديثها، اختنق صوتها بالدموع..

نظر باينس إلى وجه صديقه الشاحب، وجبينه ذي البشرة البيضاء، الوجنتان

والمحجران مجوفة من جراء الموت. الشفتان مشدودتان على نحوٍ يظهران فيه تقطيباً يوحي بالألم تاركتان للأسنان السفلية المصفرة مجالاً للظهور.

الذراع الأيمن ممدّد تحت الغطاء آخذاً الشكل ذاته، مظهراً بوضوح أنها بترت على مستوى الرسغ.

فكر باينس:«الكنيسة تملك الخاتم الأول، لقد حكمت علينا نحن الخمسة! وسيكون القاتل الذي جنده البابا هو المكلف بهذا الحصاد».

هيلين رأت باينس ينحني على وجه آرسيس ليطبع قبلة على جبينه،حيث رسم القاتل صليباً والرقم 1 بدم ضحيته.

بكاء، ثم بكاء ايضاً. هيلين تبكي بصمت، صدرها يشتعل ناراً وحنجرتها معقودة.

باينس يلحق بها، يرافقها إلى الممر ويعيد غلق باب الغرفة خلفهما.

يعودان إلى قرب المدفأة الجدارية بهدف الانتظار!

ـ قال باينس:جوفروا وباسيل وهوغ لن يتأخروا.

ـ سألت هيلين بدهشة:هل سيأتي الكونت؟ .

ـ طبعاً، لقد قرأت صحيفة آرسيس.

أنت تعرفين إذن أي رباط يوحدنا جميعاً ما بعد الموت. فـي آخر الزمن.

ـ نعم دون شك، تتنهد المرأة الشابة، بيد أن هذه الأشياء التي تربطكم ـ كل هذه الأسرار ـ تعكرني وتربكني كثيراً لدرجة أنني أشعر بحاجة إلى طلب المغفرة من الله وأنني أراها قريبة.

ـ حافظي على إيمانك كما لقنوك إياه، إذا كان هذا يؤمن لك الدفء وراحة الفكر.

ـ أنت رجل غريب الأطوار يا باينس، أنت تريحني فـي معتقد ترفضه روحك ونفسك!

ـ شرح باينس بصوت هادئ: أنا لا أرفض الله. أنا أعطيه فقط اسماً آخر، أعترف فيه على مبدأ أنه الخالق الذي نفخ النظام فـي فوضى الكون، والذي فرض قوانيناً لا تتغير على الطبيعة. والذي سمح لهذه الأخيرة بخلق الحياة.

ـ أنت تسبب لي الدوار، يا صديقي!

*

*   *

ثلاثة فرسان يدخلون القرية بينما كان النهار يلفه ضباب خفيف مغبَرٌّ. مطياتهم ذات الحوافر الثقيلة كانت تنتزع بكل خطوة طبقة من الثلج اللاصق.

جوفروا دوسانت ـ أومير، باسيل لوهارني والكونت هوغ دو شامباني ذهبوا إلى منزل أخيهم المتوفى آرسيس دوبريين.

هيلين خجلة قليلاً بسبب وجود الكونت رغم أن الأخير استخدم كل أريحيته وتواضعه ليريحها.

بعد قليل سيوضع آرسيس في التابوت، يحمل نعشه حفارو القبور ويغادر المسكن. صوت الجرس الحزين يدوي في القرية، الناس يتجمعون في الكنيسة. في رحابها ينتظر الأب الجثمان، يداه مزرقتان من شدة البرد متصالبتان على صدره.

ـ الكنيسة تغص بالمصلين، فتى يرتدي قميصاً أبيض فضفاضاً يشق الباب سامحاً بتسرب هواء بارد جداً.

يقوم الكاهن بمباركة النفس ويبدأ بصلاة الاعتراف بينما يرددها الحضور خلفه بصوت واحد:

Confiteor Deo omnipotenti,
beatae Mariae semper Virgini,
beato Michaeli Archangelo,
beato Goanni Baptistae,
sanctis apostolis Petro et Paulo,
omnibus Sanctis,
et tibi, pater,
quia peccavi nimis cogitatione, verbo et opere:
mea culpa, mea culpa, mea maxima mea culpa

ـ الثأر! يهمس باسيل في أذن باينس. الثأر لآرسيس.

ـ سنثأر له.

ويرددون مجدداً الصلاة.

Ideo precor beatam Mariam semper Virginem
beaturm Michaelem Archangelum
beatum Joannem Baptistam,
sanctos apostolos Petrum et Paulum,
omnes Sanctos,
et te pater,
orare pro me ad Dominum Deum nostrum.

بما أنه تابع تبادل الكلام بين صديقيه وهو يقرأ على شفاههما، ينحني الكونت هوغ نحوهما ليهمس:

ـ لكن كيف يمكن محاربة ظل؟ الرجل ذو الفأس يقرأ أفكارنا ؟ يعرف قَسَمَنا كما لو أنه

تلاه معنا. إلى ذلك: هل نحن متأكدون أن الأمر يتعلق فعلاً بحراس الدم وليس لحسابه الشخصي؟

Misereatur nostri omnipotens Deus,
et, dimissis peccatis nostris,
perducat nos ad vitam aeternam.
Amen

ـ إنه مدعوم من قبل بوسلين في القدس، تابع باينس بصوت منخفض جداً. أليس هذا برهانٌ على تورط الأعضاء الأكثر أهمية في الكنيسة؟

ـ أقر هوغ: أنت على حق.

Indulgentian,absoulutionem et remissionem
peccatorum nostrorum tribuat nobis omnipotens
et misericors Dominus.
Amen

ـ همس باينس: ***Igne Natura Renovatur Integra***

ـ تابع هوغ:نطلب من I.N.R.I أن ينيرنا ويستقبل أخينا آرسيس في النور الأول.

ـ استدرك باينس:الموت ليس الموت.

ـ والأرض ليست القبر!

14
الاعتراف

تقع المقبرة قرب الكنيسة، القبور ملتصقة ببعضها، تبدو وكأنها تتداخل إذ ان الثلج الغزير يغطيها فتغيب معالمها.

انتهى الاحتفال. بضربات قوية بالرفش، يقوم الحفارون بدفن آرسيس تحت التراب، بقيت هيلين للحظة تنظر إليهم. بعد أن أوصى الكاهن الله طويلاً بروح المرحوم، يعود من المقبرة. يتبعه الشماس الشاب حاملاً أمامه صليباً عالياً وثقيلاً من الخشب، يقاوم الريح معه.

جاء أهل القرية جميعاً لمعانقة هيلين قبل أن يعودوا بسرعة إلى دفء بيوتهم.

ـ تعالي يا هيلين.. لنعد إلى البيت..

تلتفت المرأة الشابة نحو باينس وأصدقائه.

ـ اذهبوا وتدفأوا في المنزل، سألحق بكم بعد قليل. أرغب بالذهاب من جديد إلى الكنيسة للصلاة.

ـ يغادر الشامبانيون الأربعة المقبرة بدورهم بعد أن ألقوا السلام الخاطف للمرة الأخيرة على رفيقهم واضعين يدهم اليمنى على الصدر، إلى مستوى القلب.

ابطأ جوفروا سيره ينخر مثل كلب عجوز وبره مبلل بالماء «في نهاية المطاف، ليس من المعيب أبداً بكاء صديق حنون! هل الدموع ستكون مقصورة على النساء؟ الرجل والمرأة يتألمان كل واحد بنفس الطريقة. ليس للألم جنس (ذكر أو أنثى) أبدا».

ـ هيا يا جوفروا، ناولني ذراعك، يقول باينس وهو ينتظره.

ـ بكل طيبة خاطر، إذ إن هذه الريح تسكرني فأشعر بفقدان التوازن.

ـ قال باينس: نعم، نعم. الريح تخبلنا وتحرق أعيننا، أوافقك الرأي.

ـ هذا صحيح، أكّد جوفروا، يرمي ثلجه المتجمد ويصفع به وجهنا.

ـ متخاصران، يلتحق الصديقان بـ باسيل وهوغ. جوفروا لا يحاول إخفاء حزنه، دموعه تسيل على خديه الممتلئتين المنقطتين بشعر لحية كثيف.

الفرسان الأربعة يقطعون الطريق معاً فـي صمت رهيب فقط وهم يدخلون منزل عائلة دوبريين كما أعلن الكونت هوغ:

ـ يجب علينا أن نتخذ فـي أقرب وقت الإجراءات التي أثرناها سابقاً بخصوص قبر يسوع. لن يكتفي حراس الدم بالبحث عنا ليستعيدوا الشارات أو العلامات المقدسة.

ـ سيتأكدون أن الأعجوبة تمت فعلاً!

اضاف باينس:

ـ نعم، المرة الفريدة والوحيدة جرت فيها الأعجوبة وتحققت. باسم يسوع، وأخينا الذي بين الأموات!.

*

* *

ـ اجعلني أعترف يا أبتي، لأنني أشعر بحاجة كبيرة للندم والتوبة فـي يوم الحداد هذا.

ـ إنها لنيّة صافية تلك التي توحي بها خفة الروح فـي ظروف كهذه.

يُدخل الراهب هيلين إلى كرسي الاعتراف الوحيد فـي الكنيسة، إنه بالأحرى قفص ضيق تباعدت ألواحه الخشبية عن بعضها بفعل الرطوبة.

أخذ الراهب مكانه خلف الشبك ومن الجهة الأخرى وقفت المرأة الشابة وقد وضعت جبهتها على الشبك الفاصل.

ـ تقول: اشعر دائماً بحالة أفضل بعد الاعتراف. لقد ساندتني كثيراً فـي إيماني! كان قلبي سينفجر منذ زمن طويل لو لم أتمكن من التحدث إليكم فـي السر المستحيل انتهاكه.

ـ أفهم، هيلين. وحده الله يسمع ما يقال هنا. تكلمي.. أوكلي نفسك إليه وستكونين محررة مخلصة. تجد هيلين صعوبة فـي البلع، لديها شعور بأنها مخنوقة باستمرار، حبل خيالي يشد على عنقها.

تتنفس طويلاً، ببطء، وبعمق.. تتنفس فـي هذا الجو حيث تختلط الرائحة العسلية للشموع مع رائحة الحجارة الثقيلة وبأريج الخشب الشاحب الخفيف تلك الأكثر تخزيناً للحجارة، واللهاث الدافئ الحاد القريب من الكاهن. وتتكلم...

*

* *

انتظر الكاهن بضعة لحظات بعد خروج هيلين ليخرج بدوره من الكنيسة.

يجتاز المنازل الأخيرة من القرية، منحنياً إلى الأمام، يصطدم بالريح المحملة بالثلج والتي يصفعه مواجهة وبقوة.

يتسلق تلة ليجد عند قمتها رجلاً ينتظر قرب حصانه.

وجه هذا المجهول مموه تحت معطف وقبعة كبيرة، وهو يحمل فأساً قاطعة فـي وسطه. ويسأل:

ـ هل علمت شيئاً جديداً من فم الأرملة؟

ـ كلا ياسيدي، لا شيء زيادة على اعترافها الأخير.

إذن سأعود.. لكنني أعرف ما هو أساسي. وهذا بفضلك. لدى حراس الدم الآن أصبعاً من اليد اليمنى للمسيح!.

مع ذلك، يشكو الكاهن الله لن يغفر لي اختراقي ومخالفتي لسر الاعتراف. لقد خرقت هذا السرّ مرات عديدة لإرضائكم، وإنني أتألم جداً من ذلك.

يضع القاتل يداً على فأسه القاطعة ويداعب حدّ شفتيه.

يرجع الكاهن خطوة إلى الخلف، موشكاً على السقوط على مؤخرته فـي الحفرة.

الصوت المعسول اللذيذ يطمئنه:

ـ لاتخف مني. لن أتسبب لك بأي سوء ما دمت تطيعني.

ـ لقد قلت لي ذلك مراراً يا سيدي. لا يمنع أن هيئتك تسبب لي الكثير من المخاوف.

ـ نحن حلفاء ونعمل معاً فـي المؤسسة نفسها.

ـ نعم، وهذا أيضاً ما رددته قبلاً على مسامعي.

مع ذلك فإنني أرتكب خروقات للمحرمات لا يمكن غفرانها وهي ستقتل نفسي فـي يوم الدينونة الأخير.

ـ اعتبر نفسك كجندي لله. لذلك سيمنح لك الغفران.

يصعد الرجل ذو الفأس على سرج حصانه، قبل أن يهمزه، ويخاطب الكاهن:

ـ لن يخطر فـي بالك أبداً فكرة الاعتراف إلى واحد من رؤسائك.

ـ طبعاً لا!

ـ أنت جندي جيد، أيها الكاهن.

استثار الفارس جواده واختفى فـي الحال وسط قطع الثلج التي تلتف بفعل الريح.

الجزء الثاني

القائمة الحمراء

1
زيارة البابا

في كانون الثاني 1108, يأخذ البابا باسكال الثاني كحجة انعقاد مجمع مبهم مع أسقف ريمس ليذهب سراً إلى دير صغير ناء في شامبانيا. الحرب التي أعلنها على الفرسان الخمسة ورثة المحفل الأول بدأت في القدس قبل ذلك بأربع سنوات، ولن تكون لها نهاية إلا بعد جمع كل الخواتم الحاوية على العلامات المقدسة المرسومة من قبل يسوع المسيح على كفن أخيه.

توقف الثلج عن السقوط منذ يومين، غير أن الطرقات ما تزال سالكة بصعوبة. مجبرة المسافرين على أخذ الحذر.

قافلة مكونة من ستة فرسان مسلحين وعربة مغطاة يجرها جوادان، تعبر باب مرآب العربات في دير القديسة مينهولد، ورجل قصير القامة بدين مغطى بفرو سميك، ينزل من العربة ساخطاً متذمراً.

- يا للبلد الباردة الشؤومة!

ترك الحوذي مقعده لمساعدة الدب الضخم.

- أمسك بذراعي يا قداسة البابا.

- شكراً، هذا غير مجد، هوذا الأب رئيس الدير.

يهرع كاهن قصير يرتدي معطفاً قافزاً في الثلج مثل طيور طويلة الساق مستعجلة، وما إن وصل قرب الباب حتى انحنى احتراماً وقال:

- الله معكم.

- ومع روحك أيضاً.

- قداسة البابا، لتكن مباركاً..

ـ سنصلي فيما بعد، خذني إليه.

وجه مقطب، شفتان رقيقتان، ونظرة قاسية حازمة، بحيث لا يجد البابا باسكال ظاهرياً أي لذة في هذه الزيارة. يدعوه رئيس الدير إلى عبور رواق الخورس المضاء بجزئه الأكبر منوّر، والذي تعصف به ريح نافخة وقاطعة.

ـ علي أن أحذرك، يبدأ رئيس الدير بالقول وهو يتلجلج، أنه في هذه الساعة سوف...

ـ أجاب الحبر الأحظم وقد عيل صبره: حسناً، هل هو هنا أم لا؟ كان مقدراً أن آتي هذا اليوم، أليس كذلك؟

ـ إنه فعلاً هنا، في الفناء الخارجي، خلف هذا البناء...

أشار رئيس الدير الزائر إلى بيت المؤن معارضاً في الحال:

ـ لا أسمع شيئاً مما تقوله! ماذا يفعل في الخارج في هذا البرد الذي يشبه برد القبر؟

ـ حقاً..

يجتازان بيت المؤن، الذي يطل على مساحة مربعة مغطاة كلياً بالثلج.

يتوقف البابا قليلاً.

ـ يا إلهي! يقول متعجباً. لم أر أبداً عقلاً أكثر جنوناً من هذا في حياتي. هل يحاول التقاط الموت.

الرجل ذو الفأس القاطعة عار تقريباً. لا يرتدي سوى برنساً يخفي فيه وجهه، وثوباً أبيض مشدوداً على بطنه، الذراعان متباعدتان وممدودتان والساقان مضمومتان، مصلوب في الريح التي تضربه وتلسعه يرتل ويتلو ترتيلة أبانا الذي في السماوات.

أعطنا خبزنا كفاف يومنا

واغفر لنا ذنوبنا وخطايانا

كما نحن نغفر لمن أساء إلينا

ولا تدخلنا في التجارب

لكن نجنا من الشرير

ـ إنها تمارين، ينوه الكاهن. يمارسها بهذا الشكل كل يوم منذ وصوله لكي يقوي نفسه. إنها إماتة رهيبة للجسد! علي أن أصرح لك إنه يخيفني جداً، كذلك لكل أخوتي الرهبان.

ـ دعنا لوحدنا.

الكاهن رئيس الدير، الذي كُبتت فضوليته بشكل ينسحب فجائي، رغماً عنه، يدنو البابا من القاتل. لكن الأخير لم يتخلّ عن وضعيته التي تشبه وضعية المسيح ليقول:

ـ فـي حضور البابا! أخيراً ها أنت، أيها الأب، أتمنى أن لا يسيء لك بقائي عارياً، جسدي وعظامي يناديان هذا الألم الذي تخنقه نفسي بصلواتها.

ـ هل تفرض على نفسك هذا النوع من القصاص من أجل التكفير عن جرائمك؟

ـ لاأفعل إلا بأمر من الكنيسة المقدسة. أنا سلاحكم، أيها الأب: أدافع عن قضية عادلة، الله سيغفر لي فعلتي.

ـ وسألتمس رحمته لك.

هناك تحليق غربان ذات نعيق خشن ورتيب، ومن ثم صوت القاتل الأنثوي نوعاً ما والخالي من النغم يقول:

ـ دون شك أنتم تفضلون أن نعود إلى غرفتي الصغيرة.

ـ بالفعل، لسوء الحظ إنني لا أتحلى بخصالك، وقدماي مع أنهما محميتان بالحذاء، فهما تشكوان من هذا البرد الشديد.

يخفض الأخ النادم ذراعيه.

ـ تفضل يا أبتي، لقد نسيت واجب الضيافة. قد تكون تعباً من طول السفر الذي قمت به، واعلم أنني أتشرف بمجيئك شخصياً.

يسرِّع البابا خطواته متزعجاً من السير خلف هذا الرجل العاري. هو في عجلة من أمره لإنهاء هذا الشيء، ومسرع أيضاً لتلقي الخاتم الأول من يد هذا الشيطان، الخاتم الأول المأخوذ من الفرسان الشامبانيين.

دخلا غرفة مظلمة بعيدة عن مهجع الرهبان: غرفة ذات جدران متشققة، أرضها ترابية مرصوصة، أثاثها مكون من الأسرة، ومن طاولة صغيرة وصندوق وضعت عليه الفأس وحاجيات القائد.

في موقد ضيق، قطعة حطب أوشكت على الانتهاء.

لدى رؤية الفأس، لم يتمالك البابا نفسه من الارتجاف وهو يفكر بالأطراف أو الأعضاء التي بترتها والجماجم التي سحقتها.

ـ رهبان هذا الدير الطيعون لم يطرحوا علي الأسئلة عندما كان عليهم أن يأووني، يقول الشاب وهو يرتدي ثيابه، فدون شك، توصيتك لا يشوبها الرفض أليس كذلك؟

ـ يمكننا الثقة تماماً بهذه الرهبانية. كان يجدر بك أن تجد ملاذاً في منطقة شامبانيا.

ثم يصرخ البابا بنوع من النبرة المنزعجة:

ـ الآن أين الخاتم؟ لقد كسرت ظهري على الطرقات لأراه! خاطرت كثيراً بمغادرة قصري موقفاً كل أعمالي، يمكن لهذا أن يحيّر الإدارة البابوية!

ـ أتتذكر اتفاقنا يا أبتي.

ـ لقد أعطيتك كلمة، ولا أتراجع عنها. طبعاً سيبقى كفن توما ملكاً لحراس الدم. سأصنع منه نسخة كما اتفقنا.

ـ ليكن.

يجلس البابا باسكال على الطاولة الصغيرة ويطلب:

ـ هل لديك ما هو ضروري للكتابة؟

ـ لدي ما يلزم يا أبتي.

يُخرج القاتل رزمة من كيس سفره.

ـ خذ هذه.

يقوم البابا بفك الحبل الرفيع الذي يشد النسيج الخشن، الذي يغلف هذا الشيء الغريب.

ـ يا إلهي! يتعجب وهو يكتشف ما يحتويه هذا الطرد. يا إلهي! يكررها بصوت حاد ومرعب وهو ينظر إلى اليد اليمنى المبتورة لآرسيس دوبريين، والخاتم الأحمر اللماع في بنصره.

ـ الطرف المتجمد مخضر بالسواد، مخطط بالأسمر ومرقط الكدمات المزرقة.

ـ لكن لماذا احتفظت بهذه.. بهذا الشيء؟

ضحكة قصيرة تظهر تحت البرنُس.

ـ لقد اعتبرت أن لك الحق أن تسحب الخاتم من يد آرسيس دوبريين.

ـ أفهم: علي أن أكون شريكك حتى في الهول! هنا تكمن الطريقة التي اخترتها لكي تزجني جسداً وروحاً في هذه العملية المريعة!

ـ كل هذا ليس إلا نوعاً من الطقوس ياأبتي، أريد أن تكون أنت من يسلمني محتوى هذا الخاتم.

والرجل ذو الفأس يناول الحبر الأعظم ورقة من جلد العجل مع ريشة ومحبرة.

باشمئزاز وقرف، يخرج البابا الخاتم من الإصبع شاكراً الله انه لم ينتزع جلده، اللحم متعفن ويخرج من السلاميات.

ـ سأل القاتل: ماذا تنتظر لترفع هذا الحجر الثمين؟

يقرر باسكال أخيراً إخراج قطعة القماش من الجوهرة، التي يبسطها في الحال ليتفحص الشكل المرسوم منذ زمن بعيد من قبل المسيح.

ـ هل هذا كل شيء؟ يسأل بخيبة ظاهرة. القطعة مكونة من مثلث ذي جوانب سوداء ثخينة رفيعة، رأسه إلى الأعلى. الشكلان متماثلان يكونان، بمقاطعة جوانبهما، شكلاً سداسياً يحيط بخط عمودي، يعلوه قطعة زائدة معقوفة تتجه نحو اليمين.

ـ هكذا يتابع البابا، هذه هي واحدة من العلامات أو الشارات المقدسة! واحد من الأشكال الخمسة..

ـ نعم، الفرسان الأربعة العائدون من القدس يملكون الرسوم الأخرى.

ـ ما أن تجمّعت، كانت ستشكل مفتاح الطريق الملكي! درب الخلود! يتابع باسكال، غير أن نجاحنا لن يكون كاملاً إلا عندما سنجد القبر الحقيقي للمسيح، كل التحقيقات المتتالية التي ثابرنا عليها تقودنا دوما.. إلى شامبانيا.

ـ أعرف أين يجب التفتيش يا أبتي. سأكتشف ذلك! وكل شيء سيتم لكي لا يحتفظ التاريخ إلا بحقيقة الكنيسة. لدي العديد من العملاء الجواسيس القتلة للوصول إلى ذلك. ينسخ البابا رسم المسيح على ورقة من جلد العجل. ريشة الأوز التي لم تروّس جيداً تخرش المخطوط، وتترك عليه لطخات صغيرة.

بعد أن أنهى نسخته، نفخ على الحبر الطري وانتظر بضع ثوان قبل أن يطوي الوثيقة.. ويضعها في ردائه الكهنوتي.

ـ كان على عجلة من أمره للسفر، و الابتعاد عن هذا الشاب القاتل الذي أوكل له حراس الدم أكثر المهمات إجراماً.

ـ سنتقابل قريباً يا أبتي.

ـ أخشى ذلك.

ـ هل ستمكث في ريمس؟

ـ سأمكث طيلة الوقت الذي يتطلبه التوكيل الذي أُعطي لك. سأكون بغاية الامتنان إن لم نتأخر كثيراً في هذا الشأن.

يلوم نفسه داخلياً لدى النطق بهذه الكلمات.

إنه أمام مرتزق تابع للكنيسة، جندي مأجور «كما لو كانت نواياي تقلقه! سيأخذ الوقت الذي يراه ضرورياً ليستولي على العلامات الأربع الأخرى ويكتشف قبر المسيح الذي جاء ليموت في شامبانيا».

يتوجه باسكال نحو باب الغرفة. يسرع الرجل ذو الفأس بفتحها له مبتعداً باحترام ليدعه يجتاز العتبة.

ـ أيها الأب

ـ نعم؟

ـ امنحني بركتك يا أبتاه.

يحني القاتل رأسه وهو يرفع برنسه وقبعته. ذُهل البابا بالعينين الشفافتين اللتين تضفيان على نظرته حزناً عميقاً.

ـ باسم الآب والابن والروح القدس، يتفوه البابا بذلك راسماً بإبهامه الأيمن إشارة الصليب على جبهته، لتكن مباركاً يا بني، واذهب بسلام.

ـ آمين، يتمم الصوت الخالي من النغم.

*

* *

بدأ الثلج يتساقط من جديد، البابا باسكال يسرع خطاه ليصل إلى العربة، التي سبق أن اكتسى غطاؤها بطبقة من الحبيبية الرقيقة البيضاء.

يهيء الحوزي طاولة صغيرة لراكبه، يستخدمها ليصعد إلى العربة ليجد، في الظلمة راهباً بديناً داخل معطف سميك يدفئ العظام، ماداً يديه السميكتين فوق موقد مليء بالجمر.

ـ هل قداسته راض؟

ـ إن ذلك القاتل يجمد دمي، روحه من الحجارة، لكنه الوحيد القادر على القيام بهذه المهمة حتى نهايتها، هو ومحفله!

يجلس باسكال على المقعد ويظهر لجاره المخطوط الذي رسم عليه العلامة الأولى من العلامات الخمس المأخوذة من الشامبانيين.

ـ لقد نسختُ العلامة المقدسة على هذه الورقة من الجلد، ولا أجرؤ على السؤال بأي طريقة سيصبح مالكاً للخواتم الأخرى.

ـ هل اخترنا التحالف الأفضل بوضعنا مستقبل الكنيسة بين أيدي حراس الدم؟ ألم يكن أكثر خطورة فيما لو تقربنا من كونت شامبانيا وكذلك من فرسانه؟ لربما تمكنا من التوفيق بين مصالحنا نحن الطرفين.

تبدأ القافلة بالسير، العربة تتمايل يمنة ويسرة تحت حيرة الخيول التي تجرها.

يتابع البابا:

ـ سر يسوع يجب أن يبقى ملكاً لكنيسة دوم مستراني. لا يمكن مشاركته مع أحد! لو كان علي أن أبيع أخي الحقيقي من أجل هذا لكنت قد فعلت. لقد حفظنا العالم من الفوضى. من الأجدى أن تُنقل رسالة الحب التي وجهها المسيح إلى الأجيال المقبلة بكل جمالها وتعليمها. سوف لن يكون سوى بضعة أشخاص على علم أن الأناجيل محت دور توما.

ـ أفهمك. معركتك تستحق الثناء.

ـ لكن ذلك سيكلفني ضميري الذي سبق أن ألقيته فـي الشوك. إنها تضحية كبيرة يطلبها مني الدين.

ـ الدين يا قداسة البابا؟ ألم تكن تريد التكلم بالأحرى عن إيمانك؟

ـ الإيمان يا صديقي؟ لا أعرف أي فضيلة ألبسه. الإيمان هو مبدأ منقول إليك بنعمة الله ويجعلك أسمى. الدين مؤلف من مجموعة القواعد التي يمكننا الالتزام بها دون إيمان!

ـ يا لهذه الكلمات التي تخرج من فمك!

ـ حسناً؟

ـ إنها لدلالة على حزن كهذا!

ـ اعتبرني كوزير للكنيسة التي تنفذ عملها بإخلاص وتواضع، والتي لا تكرّس نفسها إلا لهذه المهمة.

ـ أليس من الأفضل أن تكون وزيراً لله! منه تستمد السلطات المقدسة لمهمتك.

ـ سلطاتي ليست مقدسة، منحها لي رجال دوم مستراني. إنها سلطة من الناس! من قبل أولئك اللذين وضعوني على رأس الكنيسة الكاثوليكية المقدسة.

*

*   *

عاد وأخفض القبعة. وجهه خال من التعابير. الجرح الذي سببه له باسيل لوهارني فـي القدس طبع إلى الأبد فـي جسده خطاً أسمر منتفخاً قليلاً.

ينظر إلى يد آرسيس دوبريين التي تركها البابا على الطاولة. أمضى عدة دقائق فـي تأمل هذا الشيء الميت القبيح المتكتل على ذاته مثل عنكبوت عملاق.

صمم أن يمسكها ويلقي بها فـي المدخنة وسط الحطب المحمر.

ـ من هو ميت يجب أن يبقى كذلك!

فـي الحال ملأت الغرفة رائحة كريهة.

يبتسم ظناً منه (أنه عطر جهنم».

وبلحظة خاطفة يأخذ الخاتم ليضعه فـي كيس صغير من الجلد ويدخله فـي محفظته.

ـ فـي المدفأة الجدارية، ارتفعت ألسنة اللهب. تفترس وتلتهم اللحم والعظم اللذين قدما لها. فرقعة فاجرة ترافق عملية الحرق.

2
البئر

كانت السماء تنشر شحوبها على قرية دوبرين، متوحدةً مع الخط الذي يصل بين قمم التلال المجاورة.

ذهبت هيلين إلى الكنيسة. ركعت فـي كرسي الاعتراف، وراحت ترسم بصورة آلية إشارة الصليب قبل أن تتكلم بصوت بطيء رزين ومنخفض بما يشبه الهمس تقريباً.

ـ منذ اغتيال زوجي، منذ أن سرقوا يده اليمنى، لم تتوقف الكوابيس المرعبة عن مهاجمتي، انني أخشى باستمرار من أن ينبعث هذا الرجل ، هذا الشيطان! امامي رافعاً فأسه...

ـ التمسي من العذراء أكثر مما تقومين به الآن هيلين. ستكون لك عوناً كبيراً، إنها امرأة تألمت كثيراً، ستكون حساسة لخوفك.

ـ لقد كشفتُ لك عن كل شيء، وإنك الوحيد القادر على تلقي الشكوك الرهيبة التي تعذبني. لقد كلمتك عن الفارس باينس، عن الكونت هوغ و..

ـ أتذكر، يوجد أيضاً باسيل لوهارني وجوفروا دوسانت ـ أومير، قلتِ لي أيضاً عن السرّ الرهيب الذي جاؤوا به من الأرض المقدسة وحلفتك أن لا تؤمني به مطلقاً تحت طائلة أن تفقدي روحك .

ـ مع ذلك، الى من يجب أن أوجه صلواتي منذ أن عرفت أن المسيح لم يمت على الصليب؟

ـ أحلفك نعمة الله، لا تقولي أي كلمة حول هذه الخرافة يا، ابنتي! هل تتمنين أن تنتهي إلى المحرقة؟

ـ كل ما قلته لك محفوظ بسر الاعتراف المقدس.

أنتظرُ منك العون والتعزية وليس التبكيت، لست مسؤولة إلا عن كوني حافظة سر زوجي.

ـ طبعاً يهمس الكاهن، اعذري انفعالي. ذلك لأنني أيضاً مرتبك بقدر ما أنت عليه. كيف يمكن تصديق هذا النوع من الأمور؟ هذه ليست سوى تجديفات موجهة إلى سيدنا يسوع المسيح، الذي تعذب كثيراً ليخلص البشرية من آثامها وخطاياها.

ـ لكنني مع ذلك قرأت صحيفة زوجي. كانت مكتوبة بلهجة الصدق والإخلاص. كان آرسيس رجل حق وشرف،وأبداً لم يخن الحقيقة .

يزفر الكاهن ويتنهد بعمق. ويتابع:

ـ لقد خُدع من قبل باينس. لدي شعور أن هذا الأخير هو من كان وراء الحملة إلى الأرض المقدسة.

ـ أتعتقد أن باينس تلاعب به وبأصدقائه، ولأي غاية؟

ـ لقد أفهمتني أن باينس يظن نفسه المسؤول عن هذه الفئة التي يسميها المحفل الأول أليس كذلك؟

ـ لست متأكدة بأن هناك زعيم وسط جماعتهم.

غير أن باينس يبدو أنه يقودها ويبثُّ إرادته في أعضائها الذين يدعوهم (أخوة)، ألست محقاً؟

ـ آرسيس أسرّ لي بشيء ما، بعد عودته بوقت قصير من الأرض المقدسة، كلام غريب عجيب، حقيقة.

ـ أسمعك، يقول الكاهن منحنياً أكثر نحو الشبك الذي تهمس خلفه هيلين.

لقد كانت هيلين تشكو دائماً من هذا التوعك الذي يشد حنجرتها ويولد فيها الشعور بأنها تختنق بلعابها.

قالت بصوت خشن :

ـ كان زوجي في مكتبه منهمكاً في الكتابة، وبما أن الوقت كان متأخراً، صعدت لأجلب له كوباً من الحساء الساخن وكأساً من النبيذ المحلى. أتذكر تلك المشية بأدق تفاصيلها! فتحت الباب، لم يسمعني. مشيت إلى أن وصلت إليه راغبة أن أفاجئه، بقيت خلفه دون إحداث أي ضجة .ألقيت نظرة على المخطوطات التي كان قد عرضها على مكتبه والتي كانت تستولي على كل انتباهه، لدرجة أنه لم يكن يلاحظ وجود زوجته. رأيت عندها رسوماً معقدة بدت لي أنها مخططات. كانت مغطاة بالأرقام، بعمليات حسابية وبكلمات باللاتينية، سعلت لجلب انتباهه، لقد فوجئ جداً لدى اكتشافي إلى جانبه، ودهشت من التأكد أنه كان منزعجاً. مع ذلك، انفرجت أساريره عندما رآني أضع على طاولته وجبة الطعام الخفيفة التي أعددتها له. شكرني بحرارة، ممجداً القدر الذي شاء أن نتحابّ وقال لي أنه كان يقدر العناية والعطف اللذين كنت أكنهما له. لم أتمكن من منع نفسي بأن أسأله بخصوص هذه المخططات. بدا

عليه الارتباك، أجابني أن الأمر يتعلق ببئر كان مقدراً حفرها في أراضي باينس في غابة أُعطي لها اسم غابة الشرق لدى عودته من القدس: مساحة واسعة من الأرض غير بعيدة عن أبرشية لاريفور على أبواب تروين، مكان غير صحي وغير مزروع، كما يقال. لست خبيرة في هندسة البناء، مع ذلك وجدت جوابه غريباً. لأن الأمر كان يتعلق بحفر بئر، النظرة الأخيرة للرسوم المنجزة وجدتها معقدة جداً. أبديت الملاحظة لآرسيس، الذي يجيب فعلاً، الحفر، وترتيب وصفّ الحجارة جميعها تتطلب سلسلة من العمليات الدقيقة، المنجزة من حفارين خبراء ونجارين وبنائين. وحدد أنه في قعر هذا البئر كان سيدفن كنز، بحيث لا يتمكن أي فضولي من كشف مكانه أبداً.

عندئذ ضغطت عليه بالأسئلة. بأي كنز يتعلق الأمر. من الممكن أنه جنى مع أصدقائه ثروات كبيرة من فلسطين، فهل كان يعني الخواتم ذات الحجارة الثمينة الحمراء؟ أرى زوجي يبتسم من جديد ويأخذني على ركبتيه كما يحب أن يفعل ذلك غالباً.

هناك، تحولت إلى فتاة صغيرة خاضعة لحبه، همس في أذني أن الكنز سيخبأ في جوف ارض منطقة شامبانيا العزيزة على قلبه، وأن الكنز لا يقدر ثمنه بالذهب والألماس. وأضاف هذه الجملة اللغز: «باينس، الكونت هوغ، سانت ـ أومير، لو هارني و أنا، سندفن قريباً المعرفة التي هي ميتة وحية معاً، البرهان عن العلم المقدس ليسوع المسيح! الذي هو لحم ودم الى أبد الآبدين!» تشكل البئر جزءاً من مشروع واسع. من أجل إتمامها على ما يرام، استدعى الفرسان مهندساً معمارياً وحبرين من اليهود على دراية واسعة بالقبلانية والهندسة والخيمياء.

ـ طلب منها الكاهن وقد رآى انهاانقطعت عن الكلام: ألم يقل شيئاً أكثر من ذلك؟

ـ كنت أرغب في معرفة المزيد، لكنه فضل البقاء عند هذه الجمل الغامضة وبدّل الموضوع. كان جلياً أنه لام نفسه لإثارته مسألة هذه البئر وما سيحتويه.

ـ يزفر الكاهن طويلاً.

ـ عليك أن تصلي يومياً من أجل خلاص نفس زوجك، هيلين. صلي بحرارة.. الواضح أن الفارس آرسيس وأصدقاؤه الأربعة أثاروا قوى غامضة مظلمة.. قاموا بممارسات تدنيسية ومجدّفة.

ـ تريد القول أن هؤلاء الرجال المحترمين، المستقيمين هم مشعوذون؟ أتتهم الكونت هوغ بالتعامل مع الشيطان؟

ـ لنترك إلى لله مهمة الحكم عليهم. لكن عليك ألا تنسي أني أطلب الشفقة والرحمة لراحة نفس زوجك.

3
أبانا

ما أن أصبح الكاهن وحده حتى وضع (برنساً) على كتفيه وقبعة لطيفة على رأسه وغادر الكنيسة.

إستقبل بقطع الثلج التي كانت تنهمر بغزارة على القرية، أسرع بخطاه، توجه إلى الاصطبل المجاور للدير وحرّر رسن فرسه ،هذا الحيوان الضخم الثقيل ذو البطن العريض والرقبة الثخينة، ألقى غطاء على ظهرها كسرج، وامتطاها.

- «هل تغفر لي يا الهي؟».

كانت الشوارع مقفرة. وكان الكاهن يداعب ظهر فرسه ويقودها بصوته سالكاً عن قرب طريقاً يشق هضبة ملتوية بين صخور ذات رؤوس حادة قاطعة.

بدت الطريق متعرجة معلقة، على جانب الهوة التي تصبح تدريجاً عميقة، وتتطلب الحذر فـي كل خطوة.

كان وجه الكاهن متصبباً، وأصابعه باردة متخدرة ممسكة بشعر رقبة الحيوان، يلمح عند قمة الهضبة شبح الرجل ذي الفأس القاطعة، الذي ينتظر، دون حراك فـي الثلج والريح اللذين كانا يعصفان بدثاره الفضفاض الأسود. يوقف حصانه الصبور المطياع غير بعيد عنه.

ما أن وصل إلى مستوى القاتل الشاب، حتى ترجل الكاهن عن فرسه.

- نحن الآن يوم الإثنين، هل تقدمت المرأة إلى الاعتراف؟

- نعم، يجيب الكاهن، مثلما اعتادت على ذلك فـي كل يوم اثنين منذ صلاة الصبح.

- إذن، أخبرني بسرعة عما اعترفت لك به.

- هذه هي المرة الأخيرة يا سيدي، لا أريد أبداً خرق كهنوتي. حتى باسم قضيتنا المقدسة.. المرة الأخيرة!

ـ حسناً، لكن هذه المرة الأخيرة مفيدة لي!

هل تكلمت عن أصدقاء آرسيس دوبريين؟

يكرر رجل الدين أمام القاتل ما كشفته الأرملة. وبفضل ذاكرته القوية التي يتمتع بها، أخذ يكرر له الرواية كلمة كلمة بشكل عملي.

ـ آه، قال القاتل عندما انتهت من ذلك لقد ذكرت اسم رجلّي علم، من اليهود! ومهندساً معمارياً.. نعم، هذا يؤكد ما تمكنت من استنتاجه بفضل بحثي وتحقيقي الخاص.

ـ لا أجرؤ على التخيل بمَ يتعلق الأمر! يصيح الكاهن.

ـ لا تلعب دور الخبيث، أنت تعرف جيداً ما هي طبيعة المؤسسة المكونة من الشامبانيين.

ـ أفضل أن لا ألعب أي دور فـي هذه القضية. أعتقد أنني خدمتك بشكل كاف، بإخلاص وصدق. أسمح لنفسي بالتكرار أنني أراك للمرة الأخيرة.

ضحكة عالية تشبه القهقهة حادة وقصيرة تهز القاتل، ثم يفتح بقوة معطفه، يمسك بالفأس القاطعة الموجودة تحت حزامه ويشهرها فوق رأس الكاهن قائلاً:

ـ أنت محق، أيها الكاهن. المرة الأخيرة!

رفع الكاهن وجهه المبلل بالثلج ليتابع حركة شفرة الفأس مسمّراً فـي مكانه.

ـ بإذن مني! قال القاتل:

ترسم البلطة (الفأس) نصف دائرة لتهوي وتضرب ضحيته عند وسطها.

ـ وبركتي!

يتدفق الدم فـي الحال وبغزارة من الجرح الذي أحدثه من الحديد.

بقي الكاهن لثوان منطوياً تحت تأثير الألم الذي يسحق جسده. دفق من الدم يصعد إلى بلعومه، يتقيأ خثرات ضخمة على الثلج، وعلى قدميه.

العينان محدقتان بالسماء البيضاء، يتمايل ويدور حول نفسه على شكل رقص متنافر. ويهوي.

ينقلب فـي الفراغ ويندحرج نحو الحفرة العميقة.

يتناول القاتل حفنة من الثلج ليغسل الشفرة المبللة قبل أن يصعد على سرج حصانه ويستدير.

الحركة الهادئة لدابته ووقع أقدامها المنتظم ينتهيان بأن يقوداه إلى نشوة مريحة مهدئة.

فخداه مبللان عند نهايتهما العلوية بطراوة دافئة، يوجه إلى الله الصلاة التي يحبها أكثر من الكل:

أبانا الذي فـي السماوات، ليتقدس اسمك..

4

المرسم

اتخذ مورين عادة الذهاب إلى مكان الرسم التابع لأبيه، ما أن يتناول كوب الحليب الساخن مع قطعة كبيرة من الخبز الشيلم المغطى بشحم الخنزير. ارتدى بسرعة قميصاً طويلاً دافئاً فوقه عباءة مبطنة بالفرو وانتعل حذاءه، اجتاز باحة المزرعة الكبيرة. بدا مسروراً أثناء سماع قرقعة ثلج الليل المتجمد عند كل خطوة من خطواته. أمه واقفة على عتبة غرفة الجلوس الواسعة، تنظر إليه مبتسمة، وكعادتها تؤنبه كل صباح:

ـ مورين، لا تذهب لإزعاج أبيك؟ دعه يعمل بسلام!

عندها يلتفت الصبي إلى أمه ويقول:

ـ وعدني بأن يعلمني ضربات جديدة بالسيف! ويتابع طريقه مع قوقأة الدجاجات التي يصادفها، متسلياً بملاحقة واحدة أو اثنتين لبضع ثوان، عارفاً أن هذا يسلي إيميلين، أخته الصغيرة، التي تنظر إليه عبر نافذة غرفتها.

فـي هذه الأثناء تنزل الصغيرة للقاء أمها لتتناول حليبها، وتقضم بعض الثمار الجافة.

ماذا يفعل والدي وهؤلاء الرجال المجهولين الذين نأويهم يا أمي؟

ـ آه، إن... والدك منكب على عمل عظيم يا إيميلين. وفيما يخص ضيوفه، فإن منهم شخصيات مختصة بالبحوث تساعده لحل حسابات صعبة .

ـ تجيبيني دائماً بنفس الشيء، لكنهم ومنذ أكثر من ثلاثة أسابيع يحبسون أنفسهم فـي المرسم. مورين هو من له الحق بالذهاب إلى هناك!

ـ إنه صبي! وسيبلغ العاشرة من عمره قريباً. تجلس الفتاة الصغيرة إلى الطاولة بحركة رافضة من فمها و تدخل أنفها فـي كوب الحليب وبعد بضع ثوان، تتكلم بصوت منخفض:

ـ مورين لا يريد أن يكلمني عما يقوم به أبي وأصدقاؤه. يقول أنني لا أفهم!

- أعتقد على الأرجح، أنه لا يعرف عن ذلك الشيء الكثير، وأنه يريد إعطاء الأهمية لنفسه. هكذا هم الرجال دائماً: يشعرون بالحاجة لإحاطة أنفسهم بالسرّ.

- يؤسفني أنني وُلدت فتاة!

- هيا، ستدركين قريباً جداً أن النساء يملكن أيضاً أسرارهن، غير أنهن طبعاً أكثر مهارة من الرجال، بأنهن لا يتكلمن عنها!

*
* *

يمر مورين أمام تمثال من الخشب والقش مثبت عامودياً على وتد مغروس في الأرض، ولديه ذراعين ممدودتين، لقد صنعهم والده ليدربه على إعطاء ضربات سيف قوية ماهرة من سيفه.

- هو ذا زائرنا الصغير الصباحي، يقول رجل عجوز جاء ليفتح باب المرسم.

- صباح الخير، أستاذ إيليفاس. لن أعتاد أبداً على هذه البلورات الطبية التي تحملها على طرف أنفك!

- صباح الخير يا مورين. صلّ من أجل أن لاتكون عيناك في يوم من الأيام بحاجة إلى عدسات، أدخل ياولدي، أبوك الذي يتمتع بحاسة بصر جيدة شاهدك وأنت تعبر الباحة. ادخل بسرعة إلى الدفء. رائحة طيبة تفوح في الغرفة الكبيرة، مورين يتلذذ بها كل يوم بشكل أكثر دقة. هي مركبة من روائح مطعمة بالتوابل وبالنباتات التي أحضرها فيرير، أحد ضيوف والده، ويقوم بغليها للحصول على مستخلصات منعشة له رائحة العطر المسكر، والشمع والراتنج والقطران التي تستخدم لصنع التماثيل والتصاميم الماهرة، والأعمال الفنية الحقيقية الممثلة، والرافعات، السدود، والبكرات وملفافات الآبار المزدوجة الحلزونية.

هذا دون إحصاء المخطوطات من جلد الحمل والتي تخرش رائحة شياطها البلعوم تعدّلها رائحة الحبر وتجعلها مقبولة .

الطفل يحب تلك الغرفة. يحب فيها الكتب العديدة على الرفوف الخشبية، وآنية المراهم، الحوجلات، القوارير الصغيرة، الرسوم المعقدة المخطوطة على ألواح حجرية جدارية كبيرة.

إنه يقدر إيليفاس بالعدسات التي يضعها على عينيه، وكذلك فيرّير بشعره الطويل الرمادي، وثيابه المزركشة المكونة من أقمشة حريرية. وشيلوميت وقامته الصغيرة، الهزيل مثل أنثى الماعز، صاحب الإبتسامة الدائمة على شفتيه.

وأيضاً أباه، هوغ دو باينس أبوه الذي يعانقه وهو يصفعه «صباح الخير» على كل خد. والده يبدو أنه لاينام أبداً، غير أن الليالي الطوال لم تترك أي أثر عليه.

- أفترض أن أمك قد وجهت لك تنبيهات وأنك لم تصغ إليها. يقول باينس، ما هو أكثر

ما يثير فضولك في هذه الغرفة؟

ـ هذه الستارة الكبيرة، يجيب الطفل مشيراً إلى ستارة سوداء تحجب النور عن الغرفة الثانية.

ـ فضولية طبيعية: نبحث دائماً عن اكتشاف ما يخفيه الآخرون بعناية. ألا يوجد شيء آخر يهمك هنا؟

يقترب الطفل من الطاولة حيث النماذج المجسمة لبعض الأبنية. إحداها تجذب انتباهه بشكل خاص.

ـ طبعاً، أتساءل كيف ولماذا يُشاد بئر من هذا النوع، ستكون هناك حاجة إلى الحجارة لبناء شيء من هذا القبيل! وأيضاً الخشب لبناء هيكل المجموع!

ـ الحجارة والأخشاب موجودة في غابة الشرق، ينوه إيليفاس بصوته الخشن.

ـ دون شك، يتابع مورين، أين يمكن الحصول على ما يكفي من الذهب لدفع أجور كل العمال والمياومين الذين سيترتب عليك تشغيلهم؟

ـ بكل تأكيد أنت خبيث! يلاحظ باينس ضاحكاً. أنت لم تأت إلا للتحري عن عملنا؟

ـ معاذ الله! جئت أبحث عنك، لأنك قلت لي أننا سنتمرن على التمثال، وأنك ستريني كيف يمكن تمزيقه قطعاً قطعاً كما سبق أن فعلت ذلك مع الملحدين في القدس.

ـ أنت تعزو إلي أعمالاً باهرة لم يسبق أن قمت بها، لست العملاق الذي تخاله.

ـ بلى، بلى! يلح مورين، هذا ما يقال حيثما كان في الجوار، يا أبي.

ـ أمهلني قليلاً من الوقت لأتمكن من دراسة رسم أحد الأخوة وسألحق بك.

ـ سأسرع وأرتدي ثياب العمل.

ما أن غادر مورين الغرفة، حتى قال إيليفاس لباينس:

ـ إبنك ذكي، سؤاله حول الذهب لم يكن بريئاً!

لقد فهم أننا كنا سنحتاجه بكمية كبيرة لإنهاء عملنا بشكل كامل.

ـ إنه طفل، ليس إلا، بعيداً عن تخيل أي سلطة وقوة نملكها. تيفين زوجتي تجهل ذلك أيضاً. لقد كلمتها فقط عن سدود وحواجز كان في نيتي تشييدها على أراض أملكها.

أما جوفروا دو سانت ـ أومير، وباسيل لوهارني والكونت هوغ، فهي تعتبرهم بمثابة أصدقائي المخلصين، رفاقي في السفر إلى الأرض المقدسة، لا شيء أكثر. أبقيتها بعيدة عن اكتشافنا، فهي لا تشك بشيء وكانت ستعتبرني أسوأ الهراطقة فيما لو علمت بذلك.

ـ هذا تصرف عاقل، بالفعل.

يتدخل شيلوميت بالقول:

ـ لكن أيها الأخ، ألم تسألك بخصوص هذا الخاتم؟

ـ طبعاً. علمت أيضاً أن القاتل كان قد بتر يد آرسيس دوبريين اليمنى التي كانت تحمل شبيهاً له. أكيد أن زوجتي تشك أن هذا الحجر الثمين يحتوي ذخيرة أو بقايا آتية من القدس. مع ذلك فهي لم تحاول معرفة المزيد وأنا أمدح تكتمها!

يقول فيرّير وهو يملأ أربعة أكواب من سائل معطر شديد السخونة.

ـ مع ذلك يا أخوتي فالسر الثقيل الذي ندافع عنه في المحفل الأول، يمكن أن يكتشف في أي لحظة من قبل أعدائنا.

ـ أنت محق، يستدرك باينس. لهذا علينا الإسراع في حماية جثمان معلمنا، بحيث لن يستطيع أحد بلوغه.

ـ عندما سنضع «الأول» في القبو في قعر هذه المتاهة العمودية المزدوجة، فإن السر سينام بأمان طيلة القرون القادمة، يقول إيليفاس.

باينس يضع يداً على كتف المعماري العجوز ويقول له:

ـ ما ولد عقل مثل عقلك، يا إيليفاس، كان بمقدورك تصوّر هذا النوع من المعجزة المعمارية، قبر لا يمكن دخوله أو تدنيسه!

ـ أشكرك. على الأقل فإن فقيدنا الأخ آرسيس ساعدني بإعطاء الرسوم التوضيحية، أفكر به في كل مرة أستأنف فيها أعمالي. الآن اذهب والتحق بابنك، يا صديقي، وعلمه فنك. رفقتنا تتطلب نفس القدر من الفرسان الشجعان، وعلماء الفكر. بالنسبة لنا سنذهب للشروع بالعمل، قد نفتقر الوقت اللازم.

5
الميـت

ـ لنعد إلى I.N.R.I، يقول شيلوميت وهو يبسط رقاً من جلد العجل الذي رسم عليه باينس العلامات المقدسة.

ويقول بصوت عال: ***Igne Natura Renovatur Integra***

ـ «بالنار، تتجدد الطبيعة بكاملها» ترجمها فيرّير.

ـ بالنور، يستعيد المسيح الحياة! قالها إيليفاس ببطء.

ـ لكن الساعة لم تأت بعد يا أخواني! يستدرك شيلوميت. يجب علينا التصرف بحيث لا يقع السر الكبير فـي أيدي أعدائنا. لقد ورّث لنا سلطته لنسهر عليها وننقلها إلى البشرية عندما سنرى هذه الأخيرة قابلة لتلقيها واستقبالها.

ـ هل سيكون البشر يوماً ما عقلاء بما يكفي؟ يسأل إيليفاس.ألا يجب أن يستريح I.N.R.I إلى الأبد فـي القبر الذي أبنيه له؟ من سيكون الحكم؟ من سيعرف تقدير اللحظة حيث الأخوة الأوائل سيكون من واجبهم نشر المعرفة؟

ـ أجهل ذلك، يقر شيلوميت. كل ما أعرفه أن الذهب والحياة الأبدية لربما سيسببان حالياً أسوأ الشرور. وأن السعادة والخلود لربما ستصبحان أدوات شيطانية فيما لو كانتا ضالتين فاسدتين. INRI هو أعجوبة لن تتكرر إلا لمرة واحدة عندما تدق ساعة نهاية العالم.

ـ أتعتقد أن التقليد سيجتاز الحقب والأزمنة؟ يسأل فيرّير، وأن السلسلة سوف لن تنقطع أبداً؟

لم يجب شيلوميت، يذهب إلى إحدى النوافذ الثلاث المطلة على الباحة الرحبة حيث وجد باينس ابنه ينهي ربط رداء العمل، فيرّير وإيليفاس يلتحقان به.

ـ أعرف عما تتحدث، قال الأخير بصوته الرصين المبحوح قليلاً.

ـ أنا أيضاً، يقول فيرّير، باينس وموررين هما المستقبل.

ـ شرط أن نتوصل إلى فك الأفخاخ التي ينصبها لنا حراس الدم، يحدد إيليفاس. لقد سرقوا لنا واحدة من العلامات المقدسة؟ سيقومون بكل شيء ليستولوا على الشارات الأربع الأخرى.

ـ لكن لو كانت هذه هي الحالة، لكان رجال الدين وجهابذة الكنيسة قد تمكنوا من كشف المعنى؟ يعلق فيرّير.

بدون التقليد الذي أسرّه يسوع ونقله شفهياً منذ أحد عشر قرناً إلى الأخوة الأوائل، سيلزمهم الكثير من الوقت، لكن الكنيسة صبورة. تبدو معركتها شرعية عادلة والغفران العام للقتلة يجب أن تقوم به للوصول إلى غاياتها.

ـ انظروا! يقول شيلوميت، باينس يعلّم ابنه مورين واحدة من أجمل ضرباته.

*

* *

استعمل باينس معصمي ابنه، الذي يمسك قبضة السيف. يخفف الفارس عنه بهذه الطريقة جزءاً من ثقل السلاح ويقوده فـي حركاته. الأب والابن متحدان أحدهما فـي الآخر، لا يشكلان سوى واحداً. باينس خلف مورين ليدفع عن جسده أصغر تنقل وأقل حركة وأدق تملص، فارضاً عليه حركات صارمة محددة ودقيقة.

يتلقى الرجل الوهمي المصنوع من القش الضربات التي يكيلها له نصل سيف الفارس الواقف بأربعة أيدي. هجوم متواصل متكرر متشابه بطريقة يتمكن الصغير من حفظها فـي ذاكرته بشكل تام.

ـ طرف السيف فـي المغبن! يصرخ باينس لدى كل هجمة من هجماته، تجنب الجهة اليمنى للخصم، ثم وجّه له ضربة قاضية بحزم، واغرس سيفك فـي حفرة فخذه الأيسر.

ـ هل بهذه الطريقة تخلصت من الأعداء فـي الأرض المقدسة؟

ـ أنا لم أقاتل أبداً. أضف إلى ذلك أن ما أعلمك إياه هنا يخضع لإصول الفروسية. يحصل فـي أغلب الأحيان أن نكون قساة للتخلص من الخصم.

ثم يرخي باينس ضغطه على ذراعي ابنه ويقول له:

ـ إياك أن تقاتل بمفردك يا مورين!

ـ لكني، عادة أفعل ذلك مع سيفي الخشبي. أما هذا السيف فهو ثقيل جداً.

ـ لو لم تقم الآن بحركة صحيحة، فإن نصل السيف يفقد ثقله، يطير ويصفر قبل أن تضرب. حاول..

ـ قطب الطفل جبينه بتأثير الجهد، وانطلق إلى مهاجمة التمثال، يضربه كما علمه والده لتوه.

ـ عاود الكرة!

ينطلق من جديد، السيف الثقيل يمزق القش.

ـ «باينس»:

مورين يترك السلاح يسقط على الأرض.

ـ هل سمعت يا أبي؟

ـ نعم. هذا الصوت يأتي من خلف الاصطبل.

«باينس»..

نداء نواح وألم.. الرجل والطفل التفتا إلى الخلف. غير متمكنين من تمييز أي شيء..

ـ أعد لي سيفي، لنذهب ونرَ.

الصوت، ثانية: «النجدة.. يا باينس!».

يتوجهان نحو الإصطبل.

ـ ابق فـي الخلف، يا فتى.

ـ حشرجة. أنت من ينادي، يا أبي!

عشر خطوات أيضاً لبلوغ زاوية البناء الذي يأوي الإصطبلات.

يظهر شبح يتمايل، يد ملطخة بالدم، يستند إلى الجدار، برنس وثوب سوداوان، فرس، على مسافة أبعد منه بقليل. آثار وقع أقدام على الثلج. علامات سقوط رجل، ثم آثار خطى قادمة، بلغت الإصطبلات. الجريح ساقط عن مطيته، قاطعاً الأمتار الأخيرة من عذابه سيراً على الأقدام.

ـ أقسم بالقديس يوحنا انني أعرف هذا الرجل! يصرخ باينس راكضاً للقاء الزائر الذي سقط على الأرض.

ـ «إنه يرتدي ثياب كاهن»، لاحظ مورين.

ـ لأنه كذلك. مع جرح خطير فـي خاصرته.

وضع باينس إحدى ركبتيه أرضاً ليضع الكاهن على الظهر.

ـ باينس؟ هل هذا أنت فعلاً؟

ـ نعم، هذا أنا. أنت كاهن كنيسة آرسيس دوبريين أليس كذلك؟ لقد دفنت صديقي، أتذكرك جيداً.

ـ سيدي.. علي أن أكلمك.. أن أحذرك..

ـ اركض يا مورين وابحث عن المساعدة، يأمر باينس. يجب أن تقدم العناية لهذا الرجل دون تأخير.

ـ أخبر أمك أن تعد نقيعاً مسكناً!

يركض الفتى بكل ما أوتي من قوة.

ـ سأموت، يتلجلج الكاهن وهو يتكلم. ملعون أنا ملعون!

ـ لماذا تقول هذا، أيها الكاهن؟ يسأل الفارس. أنت رجل الله وأنت ستحسب كقديس فيما لو أراد هذا الأخير أن يحاسبك قريباً.

ـ الله سيعذبني.. أنت مقضي عليك.. أنت وكل أصحابك بسببي..

تعلّق الجريح بعنق باينس بيديه المرتجفتين يبدو انه يريد النهوض، لكن وهنه وضعفه الكبيرين يسمرانه فـي الأرض.

وجهه المشوه شاحب بفعل الألم، يعرف باينس أن الموت بدأ يتملك هذا الهيكل الممزق.

ـ القائمة الحمراء.. قال الكاهن متمماً، القائمة الحمراء! العينان تنحرفان نحو الأعلى والشفتان تمتدان على الأسنان مثل تشنج الرعب، ثم يفقد المحتضر وعيه.

يفحص باينس الجرح المفتوح، اللحم المشطور بوضوح، العظم المحطم.

«ضربة فأس قاطعة».

عاد مورين مع اثنين من فتيان المزرعة، يتبعهم من بعيد شيلوميت، فيرّير وايليفاس الذي يجهد فـي الإسراع فـي مشيته.

يتوجه باينس إلى الخدم:

لنحمله إلى مكان دافئ فـي المنزل، مع أنني لست متأكداً أنه سيبقى على قيد الحياة حتى بلوغ المكان.

ثم التفت نحو إيليفاس، مضيفاً:

ـ مع ذلك كنت أحب أن لا يموت سريعاً.

ـ على الأقل قبل أن ينهي ما بدأ قوله.

ـ لهذا السبب جاء ليموت عندك؟

هل كان كلامه عالي الأهمية لهذه الدرجة؟

ـ كان يهذي بسبب الحمى والألم.. مع ذلك فقد كلمني عن قائمة ما محاولاً إفهامي أني والذين يحيطون بي فـي خطر بسببه. «قائمة حمراء»!

يسرع الفتيان التابعان للمزرعة إلى مدخل المنزل، تتهيأ تيفين لاستقبالهم، وهي تحمل أقمشة بيضاء بين ذراعيها.

يتابع باينس محدثاً أصدقاءه الثلاثة:

ـ وحده فأس قاطع يمكنه أن يقسمه بهذه الطريقة.

ـ أفهم يا فيرّير، هل كان سبّب هذا الجرح الرجل القاتل فـي القدس؟

ـ فـي هذه الحالة يا إيليفاس، فما هي العلاقة التي توجد بين هذا الكاهن والقاتل الذي ذبح آرسيس؟

تيفين تهرع لحظة الدخول إلى المنزل مع الجريح.

ـ ابتعدوا عن أقدامنا أيها الأطفال؟ هذا المشهد ليس لكم أبداً!

مورين وإيميلين يبتعدان. يوضع الكاهن على الطاولة الكبيرة لتعريته ووضع الضماد المطوي على جرحه.

ـ عزيزتي، هل نقيعك جاهز؟ يسأل باينس تيفين.

ـ نعم، نعم، حشيشة الدينار والهتونية بمعايير متساوية.

ـ أعشاب هومَيلوس وميلليغوليوم، يقول شيلوميت، للسيدة تيفين. يجب أن يسكن هذا الخليط الألم ويوقف النزيف.

الأم تشد أطفالها فـي ثوبها.

ـ تعالي أيتها الصغيرة، هذا يوحي بالموت، ههنا! تعالى أنت أيضاً يا مورين.

أجريت محاولة لإجبار الكاهن على شرب النقيع المسكن.

ـ انظروا، يقول شيلوميت، شفتاه شاحبتان جداً، هذا الرجل على حافة الموت. أخشى أن لا تتمكن من فعل أي شيء.

ـ عليه أن لا يغادر العالم قبل أن يكلمني، يلح باينس. أريد معرفة السبب الذي قاده إلى هنا.

ـ النبض ضعيف، ليس هناك من أمل يا باينس.

ـ قم بأعجوبة يا شيلوميت، ألست رجل علم؟

ـ ليكن، يمكنني رفع درجة حرارته لبعض الوقت، ليؤتَ لي بغطاء وبماء ساخن.

ـ خلال دقائق وضع المحتضر داخل غطاء سميك مبلل بالماء الساخن، يعود ويفتح عينيه، يرى الخاتم الأحمر فـي اصبع باينس:

ـ هذا الخاتم،

ـ تكلم أيها الكاهن، يأمر باينس قرب أذنه. تكلم!

لقد تكلمت عن تهديد يعنينا أنا وأصدقائي. بماذا يتعلق الأمر؟

الكاهن يرتعد بالرغم من حرارة الغطاء الذي يغلفه كشرنقة رطبة. برد جليدي يجري في أوردته وينتشر في رئتيه، في قلبه الذي يجعله يتألم عند كل خفقة.

مع ذلك عليه أن يتكلم مع الفارس.. قام بمجهود فوق طاقة البشر ليخرج من الحفرة، زاحفاً إلى فرسه، امتطاها، وقادها بصوته.. تحدى الموت وأبعده. صلى إلى الله، طلب منه أن يمنحه فرصة.

وأيضاً قليلاً من الحياة لكي يعترف إلى باينس ليفتدي حياته بثمن هذه التضحية، مستمداً من بعيد من داخله الذرة الأخيرة من الشجاعة.

ـ عميل البابا، حارس الدم.. يبحث عن كل الخواتم، يعرف كل شيء، لأنني قلت له.. هذه الحقيقة المريعة! قبر الدجال في القدس.. كفنه..

ـ كيف علمت بذلك؟ صاح باينس. كيف؟

بدأت الظلمة تغزو نظرته التي تظلل وجه باينس المنحني عليه. ثمة ستار قاتم محمر من الدم.

ـ كيف علمت بذلك؟ صوت يدوي مثل صدى في صدغيه.

ـ القاتل يعرف كل شيء. كل ذلك اعترفت لي به هيلين دوبريين.

هل يخرج صوته من حلقه؟ هل هو مسموع؟

يضرب باينس على الطاولة بقبضته، على مقربة من وجه الكاهن ضربة تدوي في الغرفة.

يزعق الفارس إلى حد ما ويقول:

ـ أنت تكذب! هيلين لن تخوننا أبداً! أتسمعني؟ هيلين لم تخن أبداً زوجها ولم تبعنا.

ـ ليست هي، يقول الكاهن متلعثماً. إنه أنا الذي كرر على سمع القاتل ما كشفته لي السيدة دوبريين على كرسي الاعتراف.

حراس الدم على علم منذ سنوات بطبيعة أبحاثكم.. عن إرادتكم في اكتشاف قبر الدجال واقتطاع الشارات الخمس من كفنه.

فجأة أدرك الكاهن أنه لا يشعر بأي ألم، حتى أنه فقد الإحساس بجسده فهو ليس سوى روح ممدودة نحو غفران وشيك، بين ذراعي الله إنه الصفاء الأزلي.

هذه الحالة بالنسبة له ممتعة اكثر من الحياة لأنه فهم أنه بين عالمين. هنا حيث الوعي يزول بهدوء تدريجي لتحرير الروح من سجنها الجسدي.

أؤمن بإله آب ضابط الكل..

صوته يرتل فـي كنيسة كبيرة من النور. يرتفع مثل لهب يبحث عن الريح..

مع ذلك يبقى هناك سؤال أخير:

ـ باينس، أريد المعرفة قبل الموت.

ـ ماذا؟

ـ المسيح.. إذا لم يكن قضى على الصليب..وإذا كان قد نجا.. فماذا حل به بعد ذلك؟

هل كان من لحم ودم مثل أي إنسان آخر؟ فقط هذا؟

ماذا يهمه! الضوء الشديد الذي طرد الظلام قد استولى على عقله.

ـ سأجيبك يقول باينس:

استراحت يد شيلوميت على كتف باينس لتدعوه إلى الوقوف.

ـ عبثاً تحاول، لقد أسلم الروح.

ـ الأفضل أنه لم يعرف أكثر من ذلك، ما جدوى تحميله حقيقة مربكة بهذا القدر أثناء الإنتقال إلى الموت؟ إلا أن جثته تربكنا. ماذا سنقول للشرطة العسكرية بخصوصه؟

يقترح فيرّير:

ـ لا شيء يمكن أن يثير فضولهم حول أعمالنا. هذا الكاهن هوجم من قبل قاطع طريق يسلب بالقوة وجاء ليموت عندك صدفة. إنها أفضل رواية يجب إعطاؤها. يقبل باينس ويقول:

ـ أنت محق يا فيرّير، سوف أتقيد بهذه الرواية المؤكدة، آملاً أن لا تقوم الإسقفية بالمطالبة مستقبلاً بإجراء تحقيق خاص.

ـ أساقفتنا المكتنزون صحة وبدانة لديهم مشاكل أخرى كبيرة تشغلهم عن الإهتمام بكاهن صغير من أبرشية بعيدة. يشير باينس إلى الخادمين اللذين بقيا فـي الغرفة طوال الزمن اللازم لاحتضار الكاهن.

ـ أناسي مؤيدون لقضيتي، أحببت سكوتهم وصحبتهم. وفيما يخص زوجتي وولديّ، فإنهم سيمسكون لسانهم فيما لو طلبت منهم ذلك.

ثم توجه نحو أحد المستخدمين بشكل خاص يضيف:

ـ أنت يا إيميريك، بعد نقل الجثمان إلى غرفة المؤن، ستلتحق بنا فـي الحال إلى المرسم.

ـ حسناً أيها السيد.

يمسك الفتيان التابعان للمزرعة بساقي وذراعي الجثة، يرفعانها عن الطاولة ويغادران الغرفة.

تيفين وطفلاها ينزلون من الطابق، فتطلق إيميلين صراخاً حاداً لدى رؤية الدم الذي يقوم باينس وفيرّير بتجميعه بواسطة البياضات.

- دعوكم من ذلك، تقول المرأة، سأهتم بذلك. اعتقد أن لديكما ما هو أهم لفعله. مورين، سيساعدني.

يفاجئ باينس زوجته وهو يقبلها فجأة على الخد قبل أن ينسحب دون أي كلمة والوجه مكفهر.

بعد قليل، إيميريك، الذي نقل جثمان الكاهن إلى بيت المؤن، يعود إلى المرسم حيث الرجال الأربعة.

يسلمه باينس ثلاث رسائل قائلاً له:

- سوف تسلم هذه الرسائل يداً بيد إلى إخوتنا بعد أن تقدّم لهم كلمة التعارف.

- أعرف أيها المعلم، إنها كلمة «شرق - أصل».

- هوغ دو شامباني، جوفروا دوسان أومير، باسيل لوهارني سيحرق كل واحد رسالته أمامك بعد قراءتها حسب وصية باينس. ستذهب فيما بعد إلى رئيس الشرطة الذي ستأتي به ليتأكد ويتحقق من وفاة الكاهن.

- سيتم هذا.

أيميريك يستدير.

- إذن أنت تنوي جمع محفلنا يا باينس؟ يسأل فيرّير.

- بالفعل وبأسرع ما يمكن، لكن قبل ذلك يجب علينا الذهاب إلى منزل هيلين دوبريين لنطرح عليها بعض الأسئلة، يجب أن نعرف بالضبط ما قالته أثناء الاعتراف الذي قد يسبب لنا الضرر.

- أخونا آرسيس لم يكن حذراً كفاية عندما كشف لزوجته عن أسرارنا، يقول إيليفاس. هل تعتقد أنه صرحّ لها أين يستريح جسد المسيح؟

ويجيب باينس دون اقتناع كبير:

- لا أظن.. على الأقل، أصلي من أجل أن لا يكون فعل ذلك. ليس هذا!

- لا يمنع، يتابع إيليفاس، إن أقل تفصيل أعطاه إلى هيلين يمكن أن يساعد حراس الدم في أبحاثهم. لقد شددوا من ضغوطهم علينا، وهم يسبقوننا.

- لهذا السبب فإننا لن نرتكب أي مخاطرة بترك جثمان «الأول» هناك حيث يوجد حالياً. سوف ننقله من مكانه لنضعه في موضع آمن. الزمن اللازم لحفر قبره النهائي في غابة

الشرق، واضح حسب مخططاتك يا إيليفاس. لقد دنت ساعة إخراج الحلقة..

تكلم باينس بصوت منخفض، إنه يقف قرب إحدى النوافذ حيث يمكنه رؤية مورين عائداً ليتقاتل ضد التمثال مستعملاً سيفه الخشبي.

إيليفاس يقف قرب صديقه.

ـ أتظن أنه يمكن للبابا أن يساوره الشك بأنك أنت من يحمل الحلقة لأنها نُقلت إليك عبر سلالتك؟ من قبل جدك، ووالد جدك، وهذا، منذ يوحنا الصديق المخلص ليسوع؟

يضيف شيلوميت:

ـ والذي أعطاها إلى الابن البكر للمسيح!

ـ والذي يعود لك بالقانون، ينوه إيليفاس.

باينس يلتفت نحو صديقيه ويقول:

ـ لي.. ثم لمورين، يوماً ما.

6
الكيمياء

ترتفع كاتدرائية ريمس فـي السماء المخنوقة بالثلج. أشكالها المتينة، الفظة والأنيقة رغم ذلك، الشامخة القوية معاً، تضفي على الكنيسة الحكمة والصفاء. إلى جانبها الجنوبي يستند القصر الإسقفي، المكون من أبنية على شكل حرف T. يسكن فـي أحد أجنحته الإسقف البابا باسكال وحاشيته.

يروق للحبر الأعظم قضاء الساعات الأولى من الصباح فـي مكتبة مليئة بالمؤلفات التي يرجع إليها أحياناً، يساعده فـي الترجمة دوم مستراني، الذي يتقن بيسر وسهولة أكثر من عشر لغات. كان يهتم بالمخطوطات الأكثر تنوعاً، متسلياً أحياناً فـي تصفح القوائم الكبيرة للإقطاعات القروية المسجلة على ألواح بسيطة وقديمة جداً.

الغرفة مساحتها كبيرة، جيدة التدفئة بواسطة مدفئة حائط كبيرة مغذاة دون توقف بقطع الحطب الضخمة، تنيرها شمعات وشمعدانات كبيرة ذات لهب محاط بشباك معدنية للوقاية.

هذا الصباح، البابا جالس على كرسي مريح ذي مسند ظهري عال، خاصرتاه مستندتان إلى وسادة سميكة، يتحدث مع دوم مستراني، كمادته، ومع رجل بسيط، مرتدياً رداء من الصوف البني، مكلل الرأس أشعث يتمايل من قدم إلى أخرى.

يقوم هذا الضيف بفحص العلامة المقدسة، التي نسخها الحبر الأعظم.

ـ إذن أيها الراهب؟

يسأل البابا باسكال. أنت مرجعٌ فـي العلوم الخفية، أليس كذلك؟ أنتظر لتخبرني عن موضوع هذا العلم.

ـ قداستك تنسب إلي معرفة كبيرة، يقول الرجل القصير القامة وهو يعض على شفته السفلى، غامزاً مرات عديدة بعينيه مثل بومة.

ـ إنها معرفة يمنعك تواضعك من الاعتراف بها يا دونيس، يضيف دوم مستراني.

يتابع الكاهن:

ـ بالأحرى أنا خجل من أن أدخلكم في الخطأ، طبعا أنا فخور جداً ويشرفني أن قداسته أرسل من يأتي بي لأنيره بمعارفي المتواضعة. أعترف أنني أمتلك بعض الشهرة في البلاد، وحتى أنني أسديت نصيحة أثناء قضية شعوذة. بفضل تدخلي، أنقذت متهمة من القتل حرقاً.

كانت فتاة في الخامسة عشرة من عمرها. تمكنت من إثبات أن المسكينة لم تكن تقيم أي علاقة مع الشيطان، بل كانت تشكو من ورم في الرأس كان يضغط على مركز العقل والمحاكمة.

ـ ما كان مصير تلك الطفلة؟ يسأل البابا باهتمام.

ـ قام جراح بفتح جمجمتها ليستخرج منها ذلك الورم الذي جعلها تغرق في الجنون وتتلفظ بوابل من اللعنات والسباب!

– حسناً، حسناً، قال البابا. وماذا بعد؟

ـ بعد ذلك قال الكاهن دونيس، أعيد وضع الجمجمة إلى مكانها وخيط اللحم حسب قواعد الفن آملاً أن تنجبر العظام. هذا ما تحقق.

ـ هذه الطفلة انقذت إذن!

يعض الكاهن من جديد شفته السفلى، ويقفز مرتين من قدم إلى الأخرى قبل أن يضيف:

ـ لا أعرف ما إذا كان يجب أن أعتبر تدخلي في هذه القضية إيجابياً يا قداسة البابا. سمحت للفتاة التعيسة الحظ بأن لا تنهي حياتها محروقة حية، هنا الناحية الحسنة من القضية، لكن منذ أن أجري لها العمل الجراحي، لا تقوى المسكينة على الكلام أو الحركة، تقضي حاجتها دون تحكم، لا تأكل إلا إذا أطعمت بواسطة قمع كما يتم مع طيور الأوز.

يخفي البابا باسكال ابتسامة خلف يده ويقول:

ـ يبدو لي أنك رجل ذو عقل سليم، أيها الكاهن. لقد تصرفت بتوافق ووفاق مع ضميرك ولا تخشى من عذاب الضمير. لنعد إلى الرسم الذي بين يديك، هل هذا يتوافق معك على الأقل؟

ـ الواقع، يبدأ دونيس، سبق أن التقيت بهذه الإشارة الفريدة نجمة داوود في الكتاب السري لفيلسوف عربي يدعى أرتيفيوس الذي تمكنت من الرجوع إليه في مجمع البدع وعلمت منه بعض المقاطع.. هذه النجمة مؤلفة من مثلث أبيض ومن مثلث أسود يطلق عليه أرتيفيوس مفتاح الكون.. في مركز هذه الإشارة العبرية، حرف يشير إلى روح الله، ريح الخلق الآتي من الأفلاك الأكثر علواً لتنظيم الأشياء الأكثر صغراً.. حتى حبيبات التراب! التراب الأسود!

ـ يقول البابا: أرى أنك تتكلم عن الخيمياء!

يؤكد دونيس:

ـ كلمة الخيمياء. فهي من ناحية أخرى مشتقة من كلمة كيمياء التي من كيم المصرية: **التراب الأسود! يقول أرتيفيوس في كتابه هذا: من يستطيع تبييض التراب الأسود يملك سر البلسم ويمكنه بعث الميت.**

ينحني الحبر الأعظم إلى الأمام، يداه تتشدان مسندي كرسيه، ويقول بصوت منخفض وهو يلفظ بوضوح كل مقطع:

ـ المثلثات البيضاء والسوداء المتعانقة.. الحياة والموت ممزوجان، «ألفا وأوميغا متداخلتان»!

الكاهن دونيس، لم يكن قادراً على تمالك فضوليته:

ـ ثم سأسأل قداسته أين وجد هذا الرمز؟ في أي كتاب للطلاسم؟

يجيب البابا بنشاف:

ـ يعود لك معرفة ذلك بالمقابل، من المحتمل أن أطلب منك مستقبلاً قراءة الإشارات الأخرى التي ستصلني، وجمعها إلى بعضها البعض.

يبتسم الكاهن:

ـ كما يروق لك أيها الحبر الأعظم. أنا بتصرفك سأجهد في مشاركتك بمعارفي المتواضعة، من جهة أخرى فهمت أن هذا الشكل لا يمكنه أن يكون كافياً لوحده.

ـ آه؟

ـ إنه مثل كلمة بسيطة تفصلها عن جملة. أي معنى يجب إعطاؤها حقاً دون الاستعانة بالكلمات الأخرى؟ معادلة غير كاملة.

ينظر الحبر الأعظم ملياً بوجه ذلك الرجل ذي النظرة الماكرة.

ـ لم يخدعني أحد أيها الكاهن، لدي ذهن حاد وحاذق .

يتدخل دوم مستراني:

ـ لقد تعهدتَ بأن لا تكشف أي شيء عن هذا اللقاء لأي كان، لا تنساه!

ـ لقد وعدتكم بذلك، يؤكد الكاهن. انتم تعرفون أين ستجدونني إذا ما... إذا ما ظهرت رسوم أخرى من هذا النوع! يمكن لقداسته أن يستدعيني، عندئذ سألبي الطلب مسرعاً.

يعيد الكاهن دونيس ورقة جلد العجل إلى البابا وينسحب.

دوم مستراني يغلق الباب عليه.

فـي الممر المؤدي إلى درج عريض، يقوم دونيس بقفزة إلى الخلف فيرى عند الخروج بشكل مفاجئ من خلف الدعامة شبحاً ضخماً هزيل الجسم.

ـ سيدنا الإسقف! متعجباً. لقد أوشكت أن تخيفني وأنت تنبثق من الظلمة. أترى؟ لقد انقطع تنفسي!

ـ أنا آسف على ذلك، دونيس، لقد فاجأتني بانفعالك ؟ تبدو لي غارقاً فـي التفكير! لقد استقبلك البابا فـي جلسة اجتماع خاصة وكنت أتساءل:

أخيراً كنت أقول لنفسي إن كان يشكو من مرض خفي لدرجة أنه أمر بإحضار عطار قدير عالم مثلك.

لم يرق للكاهن هذا الإسقف المتكبر المتعجرف المائل للسياسة اكثر منه إلى الدين الذي أجابه بشيء من السخرية:

ـ اطمئن، حبرنا الأعظم غير مصاب بأي مرض.

ـ آه، أنا مسرور لذلك، لا شك أنه كان يحاول الإستعلام منك حول موضوع غامض تجعل منه همك اليومي؟

ـ سيدنا، محاولتك لإجباري على الكلام لا تجدي . قداسة البابا أعطاني أمراً بأن أبقي فـي السر محتوى محادثتنا.

ثم يقوم الكاهن الصغير، بحركة وقحة، يدفع الإسقف الذي يعترض طريقه.

ـ اسمح لي يا سيدنا.

ـ ليكن، ها أنا أبتعد عن الطريق، أنا فـي بيتي والبابا يتآمر عليّ مع كاهن مشهور بالشعوذة، تليق به المحرقة.

دونيس يكاد يسمع ما قاله. تمتم من الباب بصوت مغتاظ يضيق من بين أسنانه:

ـ لمن توحي أن قداسته جاء إلى ريمس فقط لكي يراجع شخصياً الأرشيفات المقدسة للمنطقة المغطاة بالغبار ويكلمني عن مواضيع تافهة تتعلق ببروتوكول تقديس ملوك فرنسا؟

❋

7
كرم باينس

الكونت هوغ دوشامبانيا، جوفروا دوسانت ـ أومير وباسيل لوهارني وصلوا على التوالي إلى مزرعة باينس الذي أعلمهم بآخر الأحداث.

اجتمعوا فـي غرفة المؤونة وأقاموا حلقة حول جثمان رئيس أبرشية بريين. الجسم ممدد على لوح خشبي يرتكز على قاعدتين.

أصغى هوغ بانتباه إلى باينس دون مقاطعته، وقال:

ـ هكذا إذن الرجل ذو الفأس القاطعة أقدم على تصفية الجاسوس الذي لم يعد بحاجة إليه. إن القاتل إذاً يعرف ما يكفي عنا. أفهم جيداً لماذا جاء البابا إلى منطقة شامبانيا.

ـ البابا باسكال هنا؟ يندهش جوفروا.

ـ يشرح هوغ: رحلةٌ حذرة بصفتي كونت لا يمكنني تجاهلها، قداسة البابا أعلمني أنه سيقوم بزيارة مجاملة لي عند آخر الشهر.

ـ قال باينس: خدعة جميلة!

طبعاً! أظن أنني على «القائمة الحمراء» لحراس الدم مثلك تماماً، يقول الكونت. قداسته يأمل دون شك أنني سأموت قبل ذلك بقليل.

ـ صرخ باسيل: يا له من ثعلب ذلك الرسول! . إنه قادر على أن يطلب منك مبلغاً ضخماً قبل أن يأمر بقتلك.

ـ تابع باينس: أنت محق، أخ باسيل. لكن يمكن للذهب أن ينقذنا.

ـ بتمويلنا الصليبيين التابعين للملك بودوين فـي القدس

ـ أفهم: يمكننا إغراق الكنيسة بطوفان من الذهب وعلى هذا النحو نشتري أمننا، حدد باسيل.

يلتفت باينس نحو الكونت هوغ ليقول له:

ـ أنت الأقوى بين إقطاعيي فرنسا، وسلطتك تمتد جيداً إلى أبعد من شامبانيا، ستتوصل سريعاً لجعل مشاركتك فـي الحروب الصليبية أمراً لا يمكن الاستغناء عنه.

ـ لكن الكنيسة لن تُخدع فيما يخص مصدر ذهبنا يا باينس، هذا ما يلاحظه جوفروا. إنه أيضاً سر من صنيعها، ذلك السر الذي تطمع فيه.

ـ طبعاً أيها الأخ باسيل، يقول هوغ: طبعاً، على الأقل ما دامت لم تبلغ السلطة المطلقة، فإننا سنبقى أسياده.

ـ أتظن أن هذا البابا سيتراجع عن مخططاته فيما لو توفرت لنا وسائل رشوته؟ سأل جوفروا.

ـ هذا البابا أو من يليه، يجيب باينس. هناك لكل نفس ثمن! لدينا الوسائل للرد على المزايدات الأكثر ارتفاعاً وتجاوز أي سوق!

ثم، لمح عبر الباب المفتوح جزئياً قدوم فارسين، وقال:

ـ آه، ها هو قائد الشرطة! انتظروني فـي المرسم لحين حل المشكلة.

تركه أصدقاؤه الثلاثة واجتازوا الباحة، مارين أمام تمثال التدريب بأكتافه البيضاء بفعل الثلج الذي تساقط منذ لحظات.

يبدو قائد الشرطة مرتعداً على جواده، الظهر منحن، الأنف إلى الأمام على رقبة دابته الملتصق بها، يبدو كاتبه أصغر منه سناً، وأكثر منه نشاطاً.

يترجل الفارسان، بينما يقوم فتى من المزرعة بالإمساك بلجام الدابتين. يضع الكاتب على عنقه حمالات بنطال، ثم يعلق بها مقرأ صغيراً سيحرر عليه التقرير الذي سيمليه رئيسه.

يستقبلهما باينس بطيبة قلب مصطنعة:

ـ يا قائد الشرطة أدخل بسرعة إلى غرفة المؤن. لتكن مشكوراً لأنك جئت بهذه السرعة.

ـ قال رجل العدالة بلهجة وقار مصطنعة: قضية قتل لا تستوجب التأخير. خادمك، وبناء على طلبي شرح لي كيف تمكن القتيل من العودة؟ إذن تقول يا سيد باينس أن هذا البائس تمكن من جر نفسه حتى بلغ منزلك وهو فـي هذه الحالة.

ـ قد تكون فرسه قادته إلى هنا حسب مسارها صدفة.

يشير قائد الشرطة بيده إلى مساعده، الذي لم يتوقف عن الإرتجاف وصك الأسنان.

ـ سجل يا بوزان.. كان الكاهن قد أُبرح ضرباً لكي يجرد من كل ما يملك، لم يمت بسبب جرحه.. بل تمكن من ركوب فرسه التي حملته حتى منزل السيد باينس..

ينحني قائد الشرطة على الجثة ليتفحص الجرح العميق ويلاحظ:

ـ سجل يا بوزان.. ضربة واحدة كانت كافية لقتل الشخص، ضربة واحدة ووحيدة، إذن. لكن بأي قوة! انهالت شفرة عريضة جداً، كما تبين من حيث عمق الجرح .

باينس يحذر التدخل، ما دام قائد الشرطة لم يستنتج أن الجرح سببته ضربة فأس خاطفة. من غير المفيد إيراد اسم القاتل.

بخطى طبيعية، وهو منحنٍ، يدور الضابط حول الجثة يشمها قريباً كما يفعل الكلب أمام الجيفة.

ـ حسناً، حسناً يقول، اكتب يا بوزان.. لنلخص:

لم تهاجم الضحية بعيداً عن أملاك السيد باينس حيث جاء ليموت.. ماذا نقول أكثر؟ يتوقف التحقيق هنا وسوف أخبر الإسقفية. أعرف قليلاً هذا الكاهن لم تكن لديه أي عائلة.. لقد قضي عليها أثناء آخر عدوى بالطاعون.

ثم، ضرب كفيه ببعضهما قبل أن يفركهما بقوة، ليخلص إلى القول:

ـ أنا أحب التحقيقات التي تجري بهمة وصراحة.

ـ سأتكفل بمراسيم دفنه، يقول باينس، هذا اقل ما يمكن أن أفعله من أجله. كل شيء سيكون على نفقتي الخاصة.

ـ سجل يا بوزان.. اكتب أن السيد باينس سيتكفل بنفقات الجنازة وأن هذا العمل يستحق العرفان بالجميل من قبل المجتمع.

ـ تابع الفارس: سآمر بأن تتلى الصلوات كل عام لراحة نفسه.

ـ طيبتك كبيرة يا صديقي. أنت تعفيني من حمل ثقيل. لو تعرف كم هي كثيرة الاعتداءات التي نسجلها حالياً.

ـ مثل كل شتاء، الفقراء يشعرون بالجوع ويتصرفون كالذئاب.

ـ هكذا، نعم، نعم، الذئاب! لكن مع ذلك فكيف يعتدون على كاهن! الذئاب، هذا صحيح تماماً. والذي هاجم هذا الكاهن يملك فكاً مرعباً حيث يوجد الآن قرب الأب الأزلي، أظن أن هذا الراهب البائس يهنئ نفسه لأنه أسلم الروح في منزلك أيها الفارس. لم يكن بمقدوره العثور على روح أفضل، أو أي شخص أكثر إحساناً. ثم ألقى نظرة أخيرة على الجثمان وأضاف:

ـ حقاً، فيما لو شرعنا في قتل رجال الكنيسة، فإلى أين نحن ذاهبون؟

رفع قبته المصنوعة من الفرو على ذقنه واستأذن من باينس:

ـ أحييك أيها الفارس.

ـ وأنا كذلك. تمتع بصحة جيدة.

تيفين تلحق بزوجها الواقف على عتبة غرفة المؤونة، والذي تأخر في رؤية قائد الشرطة وكاتبه وهما يبتعدان.

ـ ألم يأخذا الجثمان؟ قالت مندهشة.

ـ قررت أن أتكفل بدفنه، لقد جاء الكاهن للموت عندنا، إنه يستحق كرمنا، هل يزعجك هذا يا عزيزتي؟

ـ إذا كان من شيء يجب أن يزعجني يا حبيبي، سيكون السر الكثيف الذي يحيط على الأقل بحركاتك، سرٌّ غامض، محاط بلغز: كنت دائماً هكذا لكنك الان أكثر بكثير منذ أن عدت من القدس. وأصدقاؤك كذلك!

ـ قال باينس:اعذريني يا تيفين، ممسكاً بيدي زوجته بين يديه.

ـ أعذرك يا حبيبي؟ وعلام أعذرك؟ أجهل ما تخفيه عني.

ـ لا أخفي شيئاً عنك، لأنك تثبتين لي كل يوم كم تحبينني.

صحيح أنني أعزك يا ملاكي. كل صمتي لا يستخدم إلا من أجل حمايتك. علي أن أذهب قريباً إلى منزل هيلين دوبريين لأتأكد من.. سأشرح لك فيما بعد يا عزيزتي.

يقبل باينس أصابع زوجته، بكثير من القبلات القصيرة. طبعات صغيرة دافئة على بشرتها الباردة.

ـ ذلك دون شك على علاقة بمقتل زوجها؟ تقترح تيفين. الأصدقاء الذين رافقوك إلى القدس مهددون، أليس كذلك؟ وأنت أيضاً. أنت في خطر! أيّ لعنةٍ جئت بها من الأراضي المقدسة؟

ـ كوني صبورة، يا تيفين.. سأقول لك فيما سيأتي.

ـ سأنتظر إذن. ليكن في علمك أنني أصلي كل يوم كي لا يصيبك مكروه. ماذا سأصبح من دونك؟

باينس على أهبة أن يغادرها عندما أخذته من يده اليمنى.

قالت:

ـ هذا الخاتم جميل جداً.

يرسم ابتسامة، ولكن دون جدوى. ليست الإبتسامة سوى تعبير عن العجز بأن يصرّح لها بأي شيء.

تتخلى عن يده ويخرج من غرفة المؤونة ليذهب إلى المرسم حيث يجد الفرسان الثلاثة وإيليفاس وشيلوميت وفيرّير يتناقشون، يتوجه إليهم في الحال:

ـ علينا أن لا نضيع الوقت وهيا بنا نذهب على الفور للقاء هيلين.

ـ لو سمحت يا باينس، أفضل البقاء هنا، يشير باسيل وهو مرتبك قليلاً. إنني أشفى بصعوبة من هذا الداء الذي يدعك خواصري ويحرق أحشائي ومثانتي.

ـ كما تريد يا باسيل، أما نحن فلننطلق!

يخرجون جميعاً، يراهم مورين،، فيهرع نحو أبيه.

ـ آسف، يعتذر باسيل، لقد شربت بدقة كل العقاقير التي يحضرها لي عطاري بناء على وصفة باينس، مازلت أشعر بارتخاء مفاصلي.

ـ لا تعتذر، أيها الأخ، يقول جوفروا مازحاً، وهو يربت على ظهره إنها مصائب التقدم في السن!

ـ مع ذلك هل تدل ملامحي على أنني طاعن في السن؟ مازلت قادراً على التغلب عليكم جميعاً بالسيف وجعلكم تعضون التراب، ومعكم باينس، بالرغم من كونه سيافاً ماهراً!

ـ هكذا إذن، ينتقد جوفروا، فكر مجنون متبجح في هيكل سقيم!

يقف مورين قرب تمثال التمرين من القش ويبدو خائباً.

ـ أنت تغادر يا أبي؟

ـ لن أتغيب طويلاً، أيها الفتى. ثلاث ساعات على الأكثر. يبقى لك فقط أن تتابع تمرينك.

لكن باسيل ينحني على الطفل ليهمس في إذنه:

ـ سأريك، أنا سأعلمك حركات الهجوم والخداع التي ستجعل منك مقاتلاً شديداً بالسيف كبير...ذ سوف لن يقال أن الشجاع باسيل لوهارني قد انتهى!

ـ إنه لشرف كبير لي أن أكون تلميذك، أيها الفارس باسيل، يجيب مورين بفرح.

يلتفت جوفروا نحو باسيل، يقول له:

ـ سيكون من الأفضل لك أن تستخدم سيفاً من الخشب، أيها الأخ! آمل أن أجدك عند عودتي قطعة واحدة.

8
الهجوم

زوابع من الثلج تضرب الفرسان على وجوههم فيما هم ذاهبون إلى بريين عبر طريق تجاور قناة تجمد ماؤها، بينما تنقض الغربان الجائعة عبثاً حولهم..

لم يتوقف جوفروا عن أن يرغي ويزبد على فصول الشتاء فـي شامبانيا التي تتزايد قساوتها عاماً بعد عام.

وبينما هم يدخلون القرية، منتظرين أن يجدوا فيها القليل من المياه بسبب الطقس السيء، فوجئوا بحركة نشطة تدب فيها.

كلما زادوا فـي التقدم، ازداد عدد جماهير القرويين، وازدادت كثافتهم نحو مسكن هيلين.

ساور القلق باينس وأصدقاءه، وشرعوا يحثون جيادهم لتشق الجماهير الكثيفة.

ـ اسمحوا بالمرور، اسمحوا بالمرور!

يترجلون نحو منزل الأرملة، عندما يخرج رجلان جثماناً ملفوفاً بقماش أبيض ملطخاً بالدم.

دفع الرعب باينس إلى الاندفاع وسط الجماهير المتسكعة دون أي حيطة، نحو العربة التي هُيأت لوضع الجثة فيها.

وبصوت هادئ مشوب بالقلق:

ـ انتظروا، أريد النظر!

يرفع الغطاء رغماً عن احتجاجات الحمالين.

ـ ليست هيلين دوبريين..

المرأة أكبر سناً. الشعر رمادي هناك جرح عميق بين الثديين وآخر فـي البطن.

ـ أبداً يا سيدي، يقول أحد الرجال، الأمر يتعلق بـ عمتها، الآتية لمساعدتها على تحمل ترملها. انظروا ماذا فعل بها بعض المرتزقة.

يمسك باينس أحد القرويين من جلبابه ويطرح عليه أسئلة كثيرة:

ـ ماذا حصل؟

يتخلص من المحادثة قائلاً له:

ـ من غير المجدي أن تهزني بهذه الطريقة: أدر رأسك وستكون مطمئناً.

ـ باينس يا صديقي..

ظهرت هيلين وسط الحضور الذي يبتعد عن مسارها مستندة إلى رجل بدين، يهرع باينس إليها يضمها بين ذراعيه، ويشدها بقوة، مبتسماً لأنه وجدها حية..

استعاد صوته نغمته الإعتيادية.

ـ اعتقدت للحظة..

ـ لقد قتلوا نانتيلد.. كانوا يبحثون عني ولكنهم قتلوها هي..

اقترب الكونت هوغ وجوفروا منها:

ـ من؟ إروِ لنا!

ـ كانوا ثلاثة، أعتقد أنهم دخلوا المنزل بالقوة.

حاولت نانتيلد منعهم مستنجدة طالبة مني أن أختبئ، كنت عندها فـي بيت المؤونة.

ـ هل أنت متأكدة أنهم كانوا يبحثون عنك، يسأل هوغ:

ـ نعم، نعم، لقد اختبأت فـي معجن مليء بالحبوب حتى غصت فيه تماماً وجاء رجلان ليفتشا فـي بيت المؤن.

وسمعتهم يقولون قبل أن يهرع القرويون، الذين حركهم وأقلقهم صراخ عمتي التي كانت تحتضر.

ـ ماذا قال هؤلاء الرجال؟ يسأل باينس:

ـ لم أستوعب جيداً.. مع ذلك لقد فهمت أنها كانت مسألة قائمة وضعها زعيمهم، وضمنها اسمي. كان علي أن أموت مثل عزيزي البائس آرسيس.

ـ هل هذا كل شيء؟

ـ لا، لقد تكلموا عن منطقتك يا باينس.. عن هجوم وشيك.. ثم فروا عبر الحقول. خاتمك.. آرسيس كان يضع خاتماً مشابهاً ولقد بتروا له يده اليمنى ليسرقوه!

أعرف ما تحتويه هذه الحجارة الحمراء...

يقاطعها باينس:

ـ سنتكلم عن ذلك فيما بعد يا هيلين! ونحن في الطريق. باسيل وعائلتي في خطر. حراس الدم سيمحون من هذا العالم كل أولئك الموجودين على القائمة الحمراء التي لدى الرجل ذو الفأس! لنمتطي جيادنا سريعاً.

امتطى باينس صهوة جواده وانحنى نحو هيلين ليمد لها يده اليمنى:

ـ اصعدي معي يا هيلين.

يرفعها عن الأرض بحركة واحدة: إنها خفيفة جداً وشابة. يشعر بجسدها الشاب المرتعد وهو ملتصق بها في ظهره.

ـ أمسكيني من وسطي.

ـ تحتضنه. يهمز جواده. هوغ وجوفروا يفعلان الشيء نفسه، موشكان على إسقاط المتسكعين ويخرجون من القرية بسرعة كبيرة.

الثلج ينهمر الآن على ظهورهم، الريح المبللة الجليدية تدفعهم على الطريق التي تواكبها مرآة القناة البيضاء الطويلة حيث تنعكس عليها ركبهم.

ـ كاهن الاعتراف الذي تذهبين إليه كان يعمل لحساب أعدائنا يا هيلين، قالها باينس بنبرة قوية، كل ما أفضى به لك آرسيس، عرفه حراس الدم.

يدا هيلين تشدان على صدر الفارس، الشابة تبكي بصوت عال قائلة:

ـ يا إلهي، هذا يعني أنني مسؤولة عن موت زوجي! هذا كما لو أنني قتلته بنفسي، هو من كنت أعزه وأحبه كثيراً! لكن كيف عرفت ذلك؟

ـ القاتل لم يكن طبعاً بحاجة بعد إلى خدمات كاهنك للاعتراف. أصابه بجرح عميق، جاء الكاهن ليموت في منزلي ليريح نفسه. علمنا عن طريقه أن حراس الدم استخدموك دون معرفتك للتجسس علينا.

*

*   *

الرجل ذو الفأس وسبعة رجال ربطوا أعنة جيادهم إلى الأغصان المنخفضة لشجرة سنديان وهم يتقدمون الآن، منحنين كل اثنين وسريعين، خلف تلة.

من مكان وقوفهم تمكنوا من رؤية دخول وخروج الفرسان الشامبانيين وكذلك قائد الشرطة وكاتبه.

بعد أن قطعوا ما يقارب الثلاثين خطوة، منكشفين يتسلقون خاصرة أكوام التراب ليجتازوا حقلاً واسعاً محفوراً بمستنقعات موحلة وطوينة، نعالهم تحطم وتكسر الطبقة السميكة من الثلج القاسي.

توجهوا مباشرة نحو منطقة باينس، يتعرفون على أبنيته الضخمة المثبتة بشكل جيد في الأرض، سطوحها المنشاة بالبياض، مداخنها العالية التي يتصاعد منها الدخان، مسكنه الرئيسي بنوافذه حيث تتلاعب انعكاسات بعض المصابيح، مرسمه مغلق. الباحة المربعة الواسعة حيث يجلس على عرشه الرجل المصنوع من القش للتمارين، يضرب عليه باسيل ومورين وهما يضحكان، ضحكتهما التي تحملها الريح لتصل إلى الرجال الذين أخرجوا لتوهم السيوف والخناجر من أغمادها.

الضحكة الواضحة النقية الحادة الفرحة التي يصدرها الطفل، والضحكة الأكثر طولاً والأكثر خشونة للرجل الراشد.

صفّ من الأشجار البلورية. تتوقف عنده المجموعة لفترة لتسترد أنفاسها. يشير الرجل ذو الفأس إلى جدار صغير وينطلق من جديد متبوعاً حالاً بمأجوريه.

يتسلق الجدار الصغير بنشاط، ويتجاوزه بمهارة ليجد نفسه في باحة الاصطبلات الصغيرة، يقوم رجاله بنفس الحركات صامتين خلفه.

*

*   *

هذا الثلج يعيق خيولنا، يبطئ خطاها، يقول باينس متأففاً .

من فوق كتفه يحاول الكونت طمأنة صديقه:

ـ سنصل قريباً. لا تقلق،لم يحن الظلام بعد. غير أن باينس لم يستطع طرد هذا التخوف الذي تمالكه عندما أخبرته هيلين أن القتلة كانوا يخططون للذهاب إلى مزرعته. رؤية مرعبة سيطرت عليه آنذاك. صورة من نار ودم ونداءات مذعورة، صرخات من شدة الألم والرعب والويل. ضاعف من همز الحصان بمهمازيه، لدرجة أنه أدماه، والحصان ينفر وينخر. حوافره تنزلق كثيراً في الحفر. هناك عند نهاية هذا الطريق المستقيم، تيفين، إيميلين، مورين وأصدقاءهم في خطر. وخلف ذلك الأفق المشوش لا يتوقف الضباب عن إبعاده.

يملك ذهن باينس قدرة عجيبة، فهو أحياناً قادر على النظر إلى المستقبل القريب، كما لو كان قادراً على إلغاء قواعد الزمن. يمسك بثلاثة مقتطفات من أحداث مشابهة للأوهام.

حاول الفارس خنق هذه القابلية الفريدة، معتبراً إياها لعنة بدل أن تكون هبة، مع ذلك، كانت تفرض نفسها عليه بكل عنفها، جاعلة إياه يحصد كمّاً من المآسي أكبر من البهجة.

جوارحه كلها ممتدة نحو عائلته وأقاربه، إنه فريسة حدس ظالم.

يطلق اسمه عبر الزمن. هناك، ثمة من يصرخ باسمه. هل الآن؟ أو هل سيكون فيما بعد؟

ـ أنا فخور بك يا مورين، يقول باسيل. أرى أن والدك يريد أن يجعل منك فارساً على صورته.

ـ هل صحيح أنه لا يوجد سيّاف أفضل منه في كل منطقة شامبانيا؟

ـ ذلك ما يقوله أولئك الذين شاهدوه وهو يقاتل!

أدرك باسيل أن الطفل الشاب مبلّل وتخيل استنكار السيدة تيفين:

ـ نفعل خيراً إن توقفنا عن الدرس. أوصيك بأخذ حمام ساخن، نُقِعت فيه بعض من أوراق الغار.

ـ سأكون تعيساً لو تسببت لك بالتهاب رئوي سيبقيك في السرير!

ـ أنا أكثر مقاومة مما هو ظاهر، يؤكد مورين بعناد.

ـ يُنصح بالوقاية بدل التبجح، ومن ثم، أقرُّ أنني بدأت أشعر ببعض الآلام في مفاصل أطرافي.

فجأة، ثمة صراخ يصل إليهما، صراخ مؤثر، تعرف مورين على صوت أمه. يدور حول نفسه، بدا له أنه يصل بسرعة، لكن جسده يتحرك في مكان أضحى فجأة مختلفاً، سميكاً ودبقاً.

يرى أمه التي خرجت من المنزل، محركة ذراعيها بصورة غريبة، صائحة أيضاً، صارخة دائماً، بينما هو لم يعد يسمع شيئاً.

ـ رجل يخرج بدوره، وراءها، يمسك بفأس مدماة يرفعها فوق رأس أمه، وتنهال الشفرة. لتحطم الجمجمة، تنغرز في اللحم الذي يتفجر إلى كتل محمرة.

رجال آخرون في باحة المنزل.

أمه تهوي على الأرض ببطء، بطء شديد. باسيل يرفعه على الأرض ويدفعه إلى الخلف.

ـ تراجع يا صغيري! إنه ذلك الشيطان، رجل القدس ذو الفأس القاطعة!

باسيل، يجرد سيفه ويحميه بجسده. القاتل الذي يخرج فأسه من رأس تيفين ينتصب، آخذاً وقته ليوجه إشارة إلى رجاله.

يقف شيلوميت على مدخل باب المرسم، ويصرخ به باسيل:

ـ هجوم من قبل حراس الدم! علينا إنقاذ ما يمكن إنقاذه والتصرف حسب المقتضى.

يد تمسك مورين تشده إلى المكتبة، يخرج خدم المزرعة، متفرقين حاملين سيوفهم.

ـ الطفل عندي يا باسيل! يصيح شيلوميت.

ثم صوت فيرّير:

ـ جاء دورك الآن!

ـ مستحيل، إنهم يأتون من كل صوب. أغلق الباب وتصرف، لا تهتموا لي، وحده مورين يهمني!

فـي المرسم روائح شمع وقطران وجلود وحبر.

مورين مدفوع، مأخوذ، محمي.

إيليفاس يجمع على عجل بعض الوثائق بينما فيرّير، الذي أمسك بيده مطرقة ضخمة، يقف جزعاً قرب خابيتين كان قد وضعهما خلف الباب.

قلب شيلوميت الطاولة، فاتحاً طاقة فـي أرض الغرفة، يرفع بابها عدة درجات.

ـ أسرعوا!

ـ على مورين أن ينزل أولاً.

عينا الطفل تبتل بالدموع.

ـ لكن أين الآخرين؟ أختي، باسيل، وإيميريك.

يقول له شيلوميت طالباً منه الإسراع:

ـ لا تطرح هذا الكم من الأسئلة وانزل إلى هذا الكهف.

ـ أريد أن أعرف.. لماذا تنقذوني، أنا؟

كلام لاذع من شيلوميت:

ـ لأنك صبي.. من دمه! دم آل باينس!

فيرّير عند الباب:

ـ هل أنتم جاهزون؟

ـ لنعط قليلاً من الوقت الإضافـي لأخينا باسيل، يقول إيليفاس:

كما لو أنهم سمعوا أن باسيل يناديهم:

ـ حطموا الجرار، أحلفكم بالقديس يوسف، ماذا تنتظرون؟

أحد الخدم قد ذُبح وهو يحتضر أرضاً. رفاقه يترجلون بالرغم من أوامر إيميريك وإرادته فـي الثأر للموت الدنيء لسيدتهم.

ثلاثة رجال يتقاتلون بالسيوف مع باسيل، الذي يجد صعوبة فـي رد هجومهم. لقد وهنت قواه بعد الدرس الذي أعطاه لمورين الذي بدا فيه بأفضل حالاته، إذ بذل جهداً يفوق المعقول.

يبدو أن الرجل ذي الفأس يتسلى بالمعركة المؤثرة التي يقوم بها الفارس،وهو يضعف عند كل ضربة متجنباً بقوة متناقصة الهجومات المتكررة دون انقطاع وبدقة أكبر.

تخور قوى باسيل، ويترنح، يصبح سيفه ثقيلا بين يديه المرتجفتين.

يشق النصل صدره على شكل خط نار. ساقاه تخوران ويسقط على ركبتيه، متخلياً عن سلاحه. يضيق نفسه. دمه يبلّل سترته ويدفئ جلده.

يغلق جفنيه للحظة على ظلمات صارخة وقرمزية، يفتش عن نقطة بعيدة حيث سيريح عقله. ذكرى واضحة منيرة يمكنها أن تطفئ رعبه. لا شيء سوى صورة عن شبابه. امرأة، صديق.. مكان آمن يموت فيه بسلام.

غير أنه يسمع صوتاً رتيباً وتعباً، يذكره بهذا الجحيم الذي هو الحياة الأقرب إلى المنية:

ـ هذا من أجل الجرح الذي سببته لي في القدس أيها الفارس باسيل.

يعيد فتح عينيه ليرى، في آخر دفعة من الشجاعة، نظرة قاتلة.

يفهم في آخر جزء من الثانية، متألماً للإنتهاء بهذا الشكل، أنه يقتل مثل خنزير عادي، وظهره مقسوم بضربة فأس مريعة.

إنه باسيل لوهارني، أخ في المحفل الأول، وريث التقليد، مسمر على الأرض، الوجه في الثلج ذليلاً مهاناً.

في المرسم أقدم فيرّير على كسر الجرتين ونشرهما على بلاط الأرضية ليشكلا طبقة سميكة من سائل أسود زيتي. ثم أفرغ عند قدميه محتوى كيس صغير من الجلد، مسحوقاً رمادياً، ثقيلاً وكثيفاً.

ـ انتبه يا فيرّير! يقول له إيليفاس وهو يمرر رأسه عبر الباب الأرضي المفتوح، ليس أكثر من ربع المئة من المسحوق هذه الكمية من مزيج الزيت، نحن أيضاً سنحترق مثل كسرات القش!

ـ لا تقلق، أيها الأخ إيليفاس، لقد سبق أن جربت لمرات عديدة ملح البارود الذي حضرته.

ما أن انتهى فيرير من العملية حتى أمسك بالمشعل.

ـ لن يكون أمامك سوى قليل من الوقت لتنزل في الكهف، يذكره إيليفاس.

ـ أعرف. لهذا أرجوك أن تبتعد وتفسح لي الطريق. يتهيأ فيرّير لرمي مشعله على مسحوق البارود. بينما في الخارج يقوم الرجل ذو الفأس بتجميع رجاله أمام الباب ويطلب منهم كسرها بضربات قوية من سيوفهم.

رجلان يقومان بذلك وهما يضحكان، متأكدان سلفاً أنهما سيقومان بمجزرة جديدة، بينما ثلاثة من رفاقهم يهزمون خدم المزرعة.

فجأة، انفجار مدمر يقذف من حوله قطع الخشب، والحجارة، وحطام الآنية والمخطوطات الممزقة إرباً إرباً، ممزقة الرجلين المنشغلين بكسر الباب، ملقية أرضاً بالآخرين الذين جرح بعضهم بوابل من الشظايا.

الرجل ذو الفأس ارتفع عن الأرض وانقلب على ظهره كما لو أن ثوراً نطحه. نهض بسرعة ورجلاه متأثرتان بفعل الانفجار ـ وعيناه لا تريان سوى النار.

باسم الله القوي، يتعجب أحد الناجين، هل كان ذلك من عمل الشيطان، الذي تقيأ جزءاً من الجحيم ليميت اثنين من رجالنا؟

الرجل ذو الفأس القاطعة ينظر إلى رفيقيه اللذين احترقا وبترت أطرافهما وأصبحا شبه عاريين بفعل قوة الانفجار ويجيب:

ـ إنه سحر! هذه الأعجوبة الشريرة تثبت أننا أمام سحرة مشعوذين. إنها شعوذة اليهود!

قال منتبهاً أن المرسم لم يعد إلا كومة من الجمر:

ـ لقد فضلوا قتل أنفسهم..

رجل يشير إلى جيش من الفرسان في البعيد.

ـ إنهم يأتون يا سيدي!

ـ باينس والفارسان الآخران.. امتطوا جيادكم! سألتحق بكم ما أن انتهي من ذلك الهرطقي.

يضع القاتل ركبة على الأرض، يخرج الذراع الأيسر لضحيته، يمددها على الثلج ويقول:

ـ شيء شائن ولا يمكن تقبله!

ينهال بفأسه على قبضة ضحيته التي تنقطع وتتحطم مثل الحطب الجاف، ليستولي على اليد المبتورة ويعيد جثمان باسيل إلى وضعيته.

على جبين هذا الأخير، يرسم إصبع الفارس الذي صبغه بالدم لتوه:

2 +

بهذه الإشارة ستنتصر. حصاد جيد، جلب لي الإصبع الثانية من اليد اليمنى للمسيح!

9

الألـم

منذ مغادرة المهاجمين، نظم إيميريك سلسلة لمحاولة الحد من امتداد حريق المرسم، معتقداً مع ذلك أنه لم يكن ممكناً إنقاذ أي شيء. الماء مأخوذ من بئر، نساء ورجال خارجون من الأبنية ينقلون من يد إلى أخرى سطول الماء. أعمال بسيطة وعبثية ضد عنف ألسنة النيران التي تؤججها الرياح.

ترجل الفرسان. وركض باينس نحو جثمان زوجته الذي ارتمى عليه ليبكي مازجاً دموعه بدم الضحية..

إنه ينتحب، يتأوه، ينوح ويبكي حبيبته.

إيميريك يترك رفاقه لينضم إلى سيده.

ـ لم أتمكن من فعل شيء يا سيدي. قُتل رونان بينما كنا نسرع لمساعدة الفارس باسيل.

يقف باينس ووجهه محمر. يلمح جثة صديقه.

ـ باسيل أيضاً! قال متمتماً.

ـ لقد دافع عن نفسه بشجاعة كبيرة، غير أن المهاجمين كانوا ثلاثة ضده.

ـ ومورين؟ وإيميلين؟

قفز باينس مصاباً بقلق عميق يسحق صدره.

ـ تمكن مورين من إيجاد ملاذ في المرسم. يطمئنه إيميريك. لا شك أنه بأمان في الكهف مع شيلوميت، إيليفاس، وفيرّير. بالمقابل لم أشاهد إيميلين من جديد يلتفت الفارس نحو منزله، بقي باب غرفة الخدمة مفتوحاً. يقوم ببضعة خطوات، ساقاه متيبستان تستجيبان بجهد كبير لإرادته.

يمنعه الكونت هوغ من السير:

ـ كلا دعني أنا أذهب إلى هناك!

أخذ جوفروا ذراعه.

ـ ابق معي يا أخي، سأكون غبياً جداًلأقول لك كلمات تشد من عزيمتك. ذهني ليس طليقاً مثل ذهنك، لكن بمقدوري أن أؤكد لك حزني وتعاطفي.

ـ هل رأيت ما فعله ذلك الجزار بتيفين؟

عند سماع هذه الكلمات، نزع جوفروا رباط برنسه الذي وضعه برفق على جثة المرأة الشابة. يعود ليمسك ذراع باينس، يشد صديقه إليه ويسرُّ له بصوت منخفض في أذنه:

ـ كما قلت لك، لا أملك ذكاءاً حاداً.

مع ذلك فأنا معلم في فن الحرب، ولا أخشى من قتل قريبي فيما لو لسوء الحظ هذا الأخير يستحق مصيره. سأكون دائماً إلى جانبك لطرد هذا الوحش! أقسم لك أنني على استعداد لأقدم حياتي فيما لو فرضت علي المؤسسة هذه التضحية.

باينس مجففاً عينيه بطرف كمه:

ـ أنت دون شك الأكثر إخلاصاً بين أصدقائي، يا جوفروا، والأكثر تحبباً وعطفاً أيضاً، لأن تسامحك هو دون حدود ودون حساب. إنه نقي مثل حُب الطفل. شفقتك وبذلُك في العطاء وبراءتك تساوي أكثر بكثير من أي ذكاء.

هيلين دوبريين اقتربت من الرجلين، لم تجرؤ على الكلام مع أنها تتقاسم ألم باينس لتعيش على الألم الذي سببه لها موت آرسيس: حزن من الآن فصاعداً أصبح مغروساً في روحها لما تبقى من وجودها.

صراخ يدوي في الباحة، طويل ومفجع، يلحظ باينس لتوه الكونت هوغ يجتاز عتبة بيته، حاملاً على ذراعيه جسد إيميلين الخالي من الحياة والمضرج بالدم.

لولا مساعدة جوفروا، لكان باينس سقط على الأرض، كل طاقته وحيويته خانته وتخلت عنه فجأة، كي لا تترك فيه سوى فراغاً متجمداً بارداً. كارثة كبيرة ابتلعت عقله.

إنه مصاب بتشنجات تهزه، وها هو يتقيأ على الثلج بطريقة تمزق بلعومه.

ـ ساعدني! يطلب وهو يرفع عينيه بشكل جزئي نحو جوفروا.

هذا الأخير يستدير، يرفعه وينهضه ليجعله يتقدم ويذهب إلى هوغ:

هيلين، باقية في مكانها، تجمع يديها جاهدة لتصلي. كلمات غامضة تخرج من شفتيها دون أن تكون حقاً واعية ومدركة لمعناها. إنها فقط ذاكرتها التي تجد بعضاً من تلك القطع العصية التي علمها إياها أحد الكهنة في طفولتها، مؤكداً أنها كانت عونا كبيراً في أوقات الحداد.

أخذ باينس ابنته وضمها إلى صدره ليهدهدها واضعاً رأسها الصغير على عنقه، وشفتاها دون نفس على جلده.

يرمق هوغ جوفروا بنظرة مليئة بالقلق، إنه بائس تماماً كما هذا الأب المنهك، بائس لأنه لا يعرف أيهما يبكي. لأن باسيل يرقد وحيداً، على خطوات من المكان ولم يأت أحد ليضعه فـي الوضعية الصحيحة، يقول هوغ:

ـ هيا يا جوفروا.

يمر الرجلان أمام هيلين، هوغ يطلب منها:

ـ تكرمي واذهبي إلى جانب باينس، اعتقد أنها وحدها المرأة التي تعرف كيف تريحه فـي لحظة كهذه.

خذي الصغيرة، من غير المرغوب أن يبقيها هكذا لمدة طويلة، ضعيها على سريرها ونظفيها.

ـ نعم يا سيدي الكونت.

وصل الفارسان إلى جثة أخيهما باسيل وقاما بتمديده على الظهر ليمسحا عن جبينه الرقم وإشارة الصليب اللذين رسمهما الرجل ذو الفأس القاطعة.

ـ ألا تظن أنه يجب علينا أن نفترق عن خواتمنا، هوغ؟

ـ مستحيل! لقد أدينا القسم بالحفاظ عليها فـي أصابعنا، لأن مكانها لا يمكن أن يكون فـي مكان آخر.

ـ يعود لنا حمايتها بالشكل الأفضل. من جهة أخرى، فإن القاتل من حراس الدم سوف يحاول اغتيالنا وقتلنا، إن كنا نحمل أو لا نحمل هذه الخواتم.

ـ تعرف أنني لست نذلاً أو جباناً، هذه المرّة، عليَّ الإقرار أن هذا الجزار يخيفني. إنه يخوض ضدنا حرباً حقيقية. حرباً نحن غير معتادين عليها. هناك شيء ما غير منطقي فـي تصرف هذا الشيطان.

ـ بالعكس يتابع الكونت وهو مستمر فـي غسل وجه باسيل بالثلج. إنه يتصرف ببرودة أعصاب ومنهج، غير مبال لا بالأدب ولا بالأخلاق. مصمم، عنيد، ينفذ مهمته كمتعصب لله بعنف رهيب. مقتنع طبعاً بأنه يستحق الخلاص الأولي فـي نهاية هذه المعركة. فهو من هذه الناحية خطر. إذ أنه مؤمن أشد الإيمان!

ـ سر يسوع يكلفنا الكثير من الدم، أيها الأخ، يقول جوفروا وهو يداعب معصم باسيل المبتور.

ـ ما زال النزاع فـي بدايته.

ثم ينهض ليقول:

ـ لنهتم الآن بالأحياء، وسيكون لدينا متسعاً من الوقت لإحياء ذكرى موتانا.

ينضم الفارسان إلى سلسلة الخدم والموظفين الذين يسكبون الماء بكمية كبيرة على ألسنة النيران التي بدأ أجيجها يخبو من حدته.

ذهب إيميريك ليبحث عن رفش يستخدمه بقوة كبيرة ليلقي كتلاً ضخمة من الثلج على الحريق.

بالعزيمة والاجتهاد، قُهرت ألسنة النيران، ولم يبق سوى توقف الدخان، هوغ وجوفروا يدخلان في حطام المرسم.

يمران فوق الطاولات، والصناديق وأخشاب المقرأ المتكلسة. جوفروا يمرر نصل سيفه عبر حلقة الباب الأرضي قصد رفع البوابة دون أن يحرق يديه.

كان مورين أول الخارجين من الكهف، عيناه منتفختان بالدموع ووجنتاه قرمزيتان بسبب بالحرارة.

يشده الكونت هوغ نحوه ليأخذه بسرعة خارج البناء، الذي يوشك سقفه على الانهيار في كل لحظة.

ـ إيميلين؟ يسأل الطفل، إيميلين؟ أختي الصغيرة أين هي؟

10
الخاتم الثاني

أرخى الليل سدوله على ريمس

أظهر البابا الرغبة في أن يكون وحيداً كي يصلي في الكنيسة الصغيرة المكرسة للعذراء مريم. كذلك فهو يعاني من مزاج سيئ لرؤية كاهن يتوجه نحوه.

ـ ماذا تريد؟ طلب بجفاء.

ـ ألتمس مقابلتك، يا أبتي.

تعرف البابا باسكال على صوت الرجل ذو الفأس، ذلك الصوت البطيء المخنث.

ـ هل أنت مجنون، لتأتي إلى هنا؟ لو أن أحداً التقى بك!

ـ لم يلاحظني أحد. أعرف كيف أخترق الجدران كما الظل.

أترى، لقد حسبتني أنت راهباً بسيطاً كالآخرين.

بزفرة قوية، ترك البابا مكان الصلاة وقال:

ـ اتبعني، سأقودك إلى شقتي الخاصة. ماذا لديك لتقوله لي؟

اصبح الصوت أكثر دماثة:

ـ لديّ ما أقدمه لك.

ـ هل جئت تخبرني عن ضحية اخرى تسببت بها ...؟

يخرج الرجلان من الكنيسة، يعبران جناح الكاتدرائية، يمران عبر باب منخفض ليسلكا ممراً يقودهما إلى القصر البابوي.

يُدخل الحبر الأعظم زائره إلى غرفة مجاورة لغرفته، يعرف أنه ما من أحد يأتي ليزعجهما هنا.

يشمر حارس الدم عن درعه الذي يخفي محفظة. يتناول منها ورقة من القماش، ويضعها على الطاولة.

ـ هذه هي اليد اليمنى للفارس باسيل لوهارني.

ردة فعل مشمئزة تجبر باسكال على القيام بخطوة إلى الخلف.

ـ أرجوك يا أبتي، أسرع وانسخ الرسم الذي سأجده في هذا الخاتم الجديد، علي أن أعود إلى سانت ـ مينهولد قبل أن تصبح الطرق غير قابلة للسير بسبب الثلج المنهمر بغزارة.

يفتح البابا قطعة القماش وينزع على الفور الخاتم من البنصر ثم يرفع الحجر الأحمر ويخرج من حجرته قطعة القماش التي يبسطها ويضعها ممدودة على الطاولة.

يفحص النموذج، ألفا وإيبسيلون يحيطان حرف P المقطوعة في وسطها بمعترضة أفقية.

يفتح علبة أدوات الكتابة، يأخذ منها ريشة مشغولة على شكل إزميل وقليلاً من الحبر، ثم يشرع بنسخ الشكل المرسوم على القطعة المسروقة من كفن توما.

بينما هو يجتهد على التقيد بالنموذج بعناية، يقول:

ـ علي أن أشكرك للخدمات الكبيرة التي تسديها إلى الكنيسة. إلا أنه لايمكنني منع نفسي من التفكير إلا في اللذة التي تستمدها من قيامك بمهمتك.

ـ الرضى الذي أحس به هو ما يحس به رجل مؤمن وهو يدافع عن عقيدة الكنيسة المقدسة. نعم وبسعادة يصعب وصفها أقاتل وأدافع عن مملكة الله!

ـ هل أنت أكثر إيماناً مني، يا بني؟ ألست متأرجحاً في يقينك؟ المسيح لم يمت على الصليب وقد خلّف وراءه سلالة نخشاها...

ـ لا يهم! لقد حولت كذبة التاريخ الى حقيقة وتراني اتلاءم معها، قداسته يعرف حق المعرفة أن يسوع لم يمت فعلاً. يعود لحراس الدم بأن يجدوه قصد الحفاظ على مجد الكنيسة.

أليس هذا هو هدفك يا أبتي؟

ـ دون شك، يقول الحبر الأعظم بملل، نعم، إن ذلك الشيء الذي لا يمكن تخيله هو للأسف يقين، مع أن عقلي غير قادر على قبوله منطقياً. لقد جرب المسيح على نفسه المعادلة الخيميائية!

خربشة الريشة من جراء تعلقها بالقضيم، فرقعة الحطب في المدفأة الجدارية، والريح التي تتكسر على مصاريع النوافذ الخشبية.

ـ تعرف أيضاً أنه من واجبنا التخلص من جسد الناصري، يتابع القاتل.

ـ بالفعل، هذا البرهان، مثل كل البراهين الأخرى، يجب أن يختفي. لايمكن للبشرية أن تعرف بأن رجلاً قهر الموت بمساعدة العلم وليس بمساعدة الله. من غير المعقول أن رجلاً كهذا يبقى فـي قبره فـي حالة لا تقع فـي الحياة ولا فـي الموت. من بمقدوره قبول هذه العجيبة دون الشك بالقدرة العليا لخالقنا؟

من يمكنه فهم أن جسداً أفسده الموت، متفككاً، متعفناً يمكنه يوماً ما استعادة جسده (لحمه) دمه وضميره تحت تأثير علاج كيميائي.

ـ أكيد يا أبتي.. البشرية حمقاء، وإيمانها بالله ليس متيناً كفاية! وهي إن علمت بوجود هذه الجثة فستغرق فـي الظلمات. بالنسبة اليّ، معرفة ذلك الشيء الدنيء لن يؤثر فـي إيماني. الأسطورة هي غالباً ما تكون أكثر مثالية من الحقيقة عندما تُستخدم فـي دعم معتقدنا، أسطورة يسوع الميت على الصليب والمنبعث من بين الأموات ستبقى إلى الأبد واحدة من المبادئ الأكثر بناءً للكتب المقدسة!

ـ أنت تلعب على الكلمات، يقول البابا وهو ينهي نسخته.

ليس الله هو من تدافع عنه، بل الدين الذي شيّد باسمه!

ثم طوى القضيم وقال:

ـ يمكنك استعادة هذا الخاتم والذخيرة الموجودة فيه.

القاتل يقبل الخاتم، غير أنه يرفض اليد:

ـ إرمها فـي النار كما فعلت باليد الأولى.

يغادر الغرفة. يمسك البابا باليد بقرف ليرميها فـي النيران، غير متمكن من منع نفسه من رؤيتها وهي تتقلص كما لو كانت ما تزال حية، لم يمض إلا وقت قصير قبل أن يبدأ جلدها على تشكيل الفقاعات والتمزق.

رائحة اللحم المشوي التي تملأ الغرفة أصبحت منفرة لدرجة أنه عاد إلى غرفته.

تلك الليلة أيضاً، سيكون نومه مضطرباً بالكوابيس المرضية، وفـي الصباح سينهض مع الشعور، أنه نام فـي الجحيم.

بهذا الثمن سيتم إنقاذ الكنيسة.

11

قبـر «الأول»

فـي أكبر غرفة فـي منزل باينس، ألواح من الخشب موضوعة على ركائز، وبداخلها جثـامين تيفين، إيميلين وبـاسـيـل وقـد كفـتوا بشـراشـف بيضـاء، وأُبقـيت وجـوهـهـم مكشوفة. رأس تيفين وجبينها رُبطا بالبياضات لإخفاء الجرح الدنيء الذي سببه القاتل بفأسه.

باينس، وإخوته فـي المحفل الأول وموربن يتماسكون باليد على شكل سلسلة مشكلين دائرة حول الجثامين.

على الجدران تشتعل الشموع التي تلاعب لهبها ريح خفيفة متسللة عبر شقوق خشب النوافذ المغلقة.

هيبةٌ، مورين يشاهد على التوالي هؤلاء الرجال الرصينون ذوي الملامح التي تبرزها الظلال بوضوح، متأكداً من حضور إيميريك، يتساءل لماذا لم تدعَ هيلين إلى هذا المجمع؟ لكنه تماسك وتراجع عن طلب السبب.

ينظر إليهما جميعاً. يبدو له أنه يراهم للمرة الأولى. يراهم فعلاً! بلا حراك، صامتين. تماثيل متتالية، وحدها عيونهم اللماعة تدل على الحياة.

أكثر من الحزن، يصبرون على الغضب.

يقف مورين بين أبيه وكونت شامباني. الرجلان يضغطان على يديه بقوة لدرجة التسبب له بالألم، وفـي هذا الضغط الإرادي تعبير عن إظهار محبتهم وعطفهم عليه وحمايتهم. لم يكن فـي نيته أيضاً التشكي أو التذمر. فجأة يترك باينس إبنه ويقول:

ـ لقد حان الوقت!

انتزع من أحد الجدران مشعلاً. وتوجه إلى مورين:

ـ يمكنك مرافقتي. لديك الحق فـي ذلك منذ الآن. الحق الذي دفعت ثمنه غالياً مثلي تماماً مع موت أمك وايميلين.

يذهبان إلى الباحة ويتوجه باينس مباشرة نحو تمثال التمرين.

ـ ماذا علينا فعله؟ يسأل الطفل.

ـ استعادة بعض الأشياء التي خبأتها. شيء ما مقدّس! والذي كان فـي متناول الجميع، حتى تحت أنف القتلة أنفسهم!

يناول المشعل إلى ابنه ويقول له:

ـ أنرني.

يجرد الفارس سيفه، وأمام تعجب الطفل، يبدأ فـي تقطيع تمثال القش بضربات قوية حانقة.

ـ أبي.

باينس يضرب، ويعاود الضرب بكل ما أوتي من قوة، يساراً، يميناً، باقراً بطن التمثال، محولاً إياه إلى خرق بالية، لاهثاً من الجهد.

ـ أبي.

القش يتطاير كالغبار، تلمع حبّاته فـي النور مثل قطع الثلج الصغيرة.

أخيراً يظهر العمود الخشبي عارياً. أوقفه باينس بيده، ثم طلب من مورين رفع مشعله عالياً، ليعلق فوق قمة الوتد هناك حلقة من البرونز أدخلت بين فرضتين.

ـ حلقة؟

ـ أجل يا مورين. لكن هذه الحلقة تمثل المفتاح الذي يفتح قبراً ستقصده هذه الليلة.

ـ أنت تخيفني يا أبي!

ـ سأكلمك عن ذلك أثناء الطريق يا بني.

سأنقل إليك سراً رائعاً.. من خلالك سأكلم أيضاً والدتك وايميلين. سأسلمهما سبب السر الذي من أجله سقطتا ميتتين. بعد أن أبوح لك بكل شيء، عندها يمكنك تقبّل تضحيتهما بوضوح وسكينة أكبر. هيا لنذهب ونبحث عن أصدقائنا، ولنغادر.

يعيد الفارس سيفه إلى غمده ويمسك من جديد يد ابنه.

ـ أبي.

ـ نعم؟

ـ أنت تبكي!

ـ بالفعل، أبكي، بدل أن أصلي.

الرجال السبعة والطفل يذهبون سيراً على الأقدام، خوفاً من أن تسبح الخيول في مستنقعات غابة الشرق. جوفروا وإيمريك يحملان نقالة، سيضعان عليها قريباً جثمان يسوع! كما شرح باينس لابنه.

كان مورين قد حفظ من الأناجيل أن المسيح قام من بين الأموات في القدس. وزاد على ذلك أنه من أجل تخليص وإنقاذ قبره جاء الصليبيون إلى الأرض المقدسة.

ـ كلا، يقول باينس. يسوع الذي أسره المصريون من دير المدينة، أسره فيما بعد الكهنة الآسينيون في قمران، ثم كرس نفسه للخيمياء (كيمياء الشعوذة). إنه تعليم الحب الذي يلقته لأقرانه من البشر، ومثال المروءة، والأخوة التي أعطاها لهم، جميعها كانت ثمرة دراساته. نجح في استيعاب قوانين الطبيعة الثابتة في تركيبها المعقد، ونظامها المقدس، لكي يطبق قواعدها وقوانينها على الجنس البشري. كان يؤكد أن الطبيعة لم تكن إلا الحب فقط! الطاقة التي تديرها يجب أن تعود لتستقر في نفس الإنسان.. بالأحرى في وعيه وضميره.

ـ أبي، لا أفهم ما تقوله لي.

فيرّير يتدخل.

ـ هذا لا يدهشني يا مورين، ينسى باينس أنه يتكلم مع شخص غير بالغ.

ـ أنا آسف، يعتذر باينس. فعلاً أنني أتعجل في عملي، أخذت طريقاً متعرجاً جداً لأقودك إلى قبول أن يسوع لم يصلب. توما، أخوه التوأم، صلب وتعرّض للعذاب مكانه.

ـ كيف يمكن التأكد من هذا؟ يسأل الطفل.

ـ بعد أن غادر فلسطين، سافر يسوع وتلامذته لفترة طويلة قبل أن يستقروا على أرض شامبانيا، حيث بدأوا تعليم وتلقين أنصار جدد سراً.

ـ لماذا سراً؟

ـ لأن المسيح كان حاملاً لسرٌ هو أكبر الأسرار..

سرٌ كان يجب حمايته على مدى القرون. لهذا أسس جماعة سماها المحفل الأول، التي كلفها بالسهر على جسده هو.

ـ جسده؟ يندهش مورين.

ـ نعم. السرّ هو جسد يسوع! العجيبة الوحيدة الحقيقية التي لم يسبق أن نمت وعاشت على وجه هذه الأرض.. أعجوبة الـ I.N.R.I.: ***Igne Natura Renovatur Integra***

بينما كان الرجال يغوصون في واحد من أكثر الأماكن وحولة في الغابة، يتابع

باينس روايته، ناسياً أنه كان يتوجه إلى صبي عمره عشر سنوات فقط.

يكلمه عن رسالة خفية ليسوع، عن التجربة التي طبقها على نفسه قبل أن يلفظ نفسه الأخير، عن هذه الجثة المتعفنة ببطء في قبره، وكيف احتفظت بجزء يسير من الحياة الأبدية التي ستسمح لها يوماً ما بالنهوض من الموت، ومن تلك القدرة من الوعي الباقية في فكره المتفكك جزئياً، من تلك الذرة من الروح التي منع عليها أن تتفكك وتتحلل نهائياً في العدم. من تلك الروح المحفوظة من جثمان قادر على عبور أزمنة متناهية في الطول بانتظار القيامة. ميت صبور، تغذى بالطاقة الأرضية واحتسى من سوائل الطبيعة.

ـ تريد أن تجعلني أصدق أن يسوع يمكنه أن ينهض من جديد من القبر؟ هل كان سيتوصل لفعل ذلك منفرداً؟

ـ كلا غير صحيح . إذا كان قد طبّق على نفسه السحر، وإذا كان يملك في أصغر أليافه الإمكانية المطلوبة ليقهر الموت بشكل نهائي ويعيد تركيب جسده انطلاقاً من بقايا اللحم والعظم، وإذا كان بمقدوره تحديد دمه وأعضائه فهو على الأقل بحاجة أن يكون بصحبة أحدهم لإتمام هذه الأعجوبة. القرار بالسماح له العودة إلى الحياة لا يمكن أن يؤخذ إلا من قبل تلامذته، الذين عليهم أن يقدموا نوعاً من علمه لبقاياه. معرفة كبيرة هي ضرورية، مورين.

ـ هل أنت واحد من تلامذته يا أبي؟

ـ مثلي مثل الأصدقاء الذين يحيطون بنا هذه الليلة.

نعم نحن تلامذة يسوع عبر الزمن.

كان سره قد انتقل إلينا من جيل إلى جيل، وسيكون الأمر كذلك في القرون الوسطى. هذا ما يسمى بالتقليد. المسيح نفسه كان واحداً من حلقات التقليد. سبق أن قلته لك، سبق ليسوع أن تلقى التعليم السري من الحكماء المصريين ومن أحبار الآسينيين، الذي ورثوا هذا العلم من تعليم تجريبي عائد إلى فجر البشرية. إلى ابنيّ الله، آدم وحواء!

يقاطع الكونت هوغ، باينس:

ـ أليس هذا هو الحد الذي كلمتنا عنه، والذي يجب أن يدلنا على المسار الجديد للطريق؟

باينس يبعد بملء ذراعه الشجر الشوكي ويتفحص بانتباه الحجر الذي يبرز من الوحل والطين.

ـ إنه هو. على بعد مئتي قدماً منه. انظروا إنه يشكل سهماً يرشدنا إلى الاتجاه: نحو الشرق تماماً! حتماً:

ـ أنت تفاجئني كثيراً، يقول مورين إلى أبيه. كيف عرفت أن هذا الحجر سيدلنا على الطريق الواجب سلوكه؟

ـ كل هذا مثلما أنت تعلمته الآن يا بني! هذا ما قاله أبي.

يتابع الموكب سيره. من الآن يجب اجتياز مساحة واسعة من القصب ذات الأوراق القاطعة، التقدم في وحل ثقيل ولاصق.

أخيراً يدخل الموكب إلى مساحة أكثر جفافاً مزروعة بالصفصاف ذي الأوراق المفرضة التي أثقلها الثلج. بعيداً وعلى انفراد تقريباً تنتصب سنديانة عملاقة ذات جزع عريض وأسود وأغصان مكسرة .

ـ يصرخ باينس، يوجد فراغ مضيء في الغابة. لنحصِ سبع خطوات باتجاه الشرق انطلاقاً من شجرة السنديان.

ـ إنه يرقد هنا؟ يسأل مورين؟

ـ نعم، يجيبه باينس

في حفرة قام يوحنا بحفرها بينما كان يسوع يقارب التسعين سنة.

وصل الرجال مسرعين إلى أرض أكثر علواً بقليل، نتوء صغير محدب ومغطى بالعشب وشكّلوا حوله حلقة ممسكين بأيدي بعضهم البعض.

ـ لنتحد، أيها الأخوة، يعلن باينس. بما أن الساعة قد دنت وبلغنا العمر الملائم، لنفتح جلسة أعمالنا. لندخل الطريق الذي رسمه لنا معلمنا، الأول بنور كلامه، بقوة معرفته، نطلب من I.N.R.I أن تنيرنا.

يتابع الكونت:

ـ باسم العلامات الخمس المقدسة باسم الأشكال المحترمة، المثلث، المسدس، أوميغا، الصليب والتاو، لنعمل هذه الليلة قصد الحفاظ على التقليد!

تبعه جوفروا:

ـ باسم القوانين الأزلية، بما كان وسيكون، مثلما تشرق الشمس من الشرق وتغيب من الغرب، لأنه دورة غير معكوسة تربط الحياة بالموت، بالحب الذي يحكم الكون، لنستقبل فينا جسد ودم أخينا الذي لا عمر له.

باينس من جديد:

ـ في ذلك الزمان، قال يسوع لتلامذته المجتمعين أمامه: **جسدي هو حقاً غذاء، ودمي هو حقاً شراب. من يأكل جسدي ويشرب دمي سيسكن في. وأنا به سأكون عبر القرون، من يشارك سلطتي هو طفل المعرفة، يعرف أن جسدي لن يصبح أبداً عفناً وأن دمي لن يكون أبداً فاسداً. المعرفة موجودة في داخلي كما هي فيه. والحق، الحق أقول لكم: رجل جديد مولود من الموت سيعود، مستدعى من قبل إخوته. سيكون الراعي الآتي بالحب لقطيعة. لكن البعض سيحاولون إعادته إلى الظلمات، وعلى إخوته واجب النضال لإنقاذ جسده ودمه.**

الحق، الحق أقول لكم: بؤس وألم ينتظران إخوتي في الأزمنة الآتية!

أصغى مورين بتأنٍّ إلى صوت أبيه، قطعه جهشة بكاء في نهاية عظته. هو نفسه لم يتمكن من حبس دموعه، فتركها تنهمر من عينيه، واخذة، حارقة. يفكر بأخته الصغيرة، بأمه. يستعيد رؤية الأخيرة وهي تدور حول نفسها وجمجمتها محطمة، الذراعان ممدودتان نحوه، لم يكن بمقدوره الإتيان بأي حركة. فهو صغير جداً، لم يكن سوى مشاهداً مرعوباً. لو كان يملك قوة والده لانقض على المهاجم وخرق جسده بضربة سيف.

لكن سلاحه كان من الخشب.

يد والده تشد بقوة على يده.

- لنحطم السلسة لاستقبال الأول فيما بيننا..

- الرجال يرفعون ويخفضون أذرعتهم لثلاث مرات قبل أن ينفصلوا.

يركع باينس على المرتفع الصغير، يفتش تحت معطفه ليخرج الحلقة البرونزية، التي وضعها على الأرض، يبعد الأعشاب التي جعلها الجليد قابلة للكسر، يمسك ويمزق الطحلب الأبيض، غير مبال بما يسببه ذلك من جرح أصابعه.

- اقترب الرجال، وضع الكونت يداً على كتف مورين، حضور حار وودّي.

تمكن باينس من تحرير حلقة ربط من الحجر التي تظهر على بلاطة كبيرة عارية جزئياً. يمسك الحلقة من جديد ليدخلها في الكلاب الذي يشدها تماماً.

يقول وهو يستعد للشد:

- إنها المرة الأولى التي يُفتح منها هذا القبر.

التفت نحو جوفروا:

- ساعدني في رفع البلاطة، سأكون بحاجة إلى قوة عضلاتك.

- إنه لشرف كبير لي يا باينس!

- توقف عن اعتبار نفسك فظاً واسحب معي. قم بالشد على هذه الحلقة واسحبها!

أنهك الرجلان نفسيهما، دون نتيجة. باب الحفرة لا يتحرك. يتدخل إيليفاس:

- دون شك يجب تمرير نصل سيفي في الفواصل بين الحجارة. الزمن هو أقوى من أي مادة اسمنتية!

- امتشق إيميريك سيفه وركع بدوره مع الرجلين ليزيل الطحلب بحثاً عن حروف البلاطة مدخلاً سلاحه الفولاذي في فواصلها.

بعد ذلك بقليل، أمسك باينس وجوفروا من جديد الحلقة. هذه المرة تمكنا من إخراج البلاطة من مقرها، مع صرير الحجارة المحتكة ببعضها ولهاث الرجال.

- في الحال، تشارك الجميع.

حرروا القبر ووقفوا، لم يتجرؤوا على النظر إلى الداخل. حمل باينس المشعل الذي

غرزه في التراب من جديد، ومن ثم رفعه فوق الحفرة. النور المتمائل الصادر عن اللهب يظهر الكفن المغلف للجثمان.

ـ ماذا يوجد على صدره. يسأل مورين وهو يشير إلى رزمة من الجلد المنقط بالعفونة.

ـ إنه إنجيله، يجيب باينس، وضعه تلاميذه هنا أثناء جنازة متواضعة، كان يسوع قد طلب أن يُدفن مع مذكراته، كانت الكنيسة، التي تعلم بوجوده، تبحث عنه منذ البدء، وقد ورد ذكره تحت اسم «وصية المجنون».

الكونت، متقدماً خطوة إلى الأمام ينحني على بقايا المسيح:

ـ إلى جانب رواية حياته، كان يسوع قد أوكل إلى الكتاب المقدس الكتاب التلقيني لسحره، نحن الأخوة الأوائل كُلفنا بالسهر على هذا الإنجيل، ومنع أعدائنا بأي ثمن من الاستيلاء عليه.

ـ أعداؤنا..؟ يقول مورين.

ـ حراس الدم! يقول فيرّير. إنهم هم الذين يلاحقوننا.

يتابع شيلوميت:

ـ لقد أقسموا على إعادة كتابة التاريخ بطريقة يفرضون بها عقائدهم رغماً عن الحقيقة، أغلب ظننا أن البابا هو خادمهم، متخيلاً أنه يتحكم بهم. إنهم ينتمون إلى فئة قديمة قدم المحفل الأول، كانوا قد اكتشفوا باكراً أن المصلوب كان توما، الأخ التوأم للمسيح.

ـ إنه لأمر يصيبني بالضياع، يعترف مورين. ذهني مثقل وكئيب جداً لأتمكن من استيعاب هذه الأشياء المقلقة. زيادة على ذلك، ففي الصباح، وبينما كان شيلوميت يدفعني إلى داخل كهف الرسم، قال لي جملة تراودني وتدفعني للتفكير:

ـ ماذا قلت لك؟ اللحظة كانت مأساوية وأعترف أنني لا أتذكر ما تمكنت من الإفصاح لك عندئذ.

قال الطفل محدداً:

ـ قلت أن علي أن أنقذ نفسي لأنني كنت من دمه! وأنني من آل باينس: أنا أعي أنني مازلت صغيراً على تقييم بعض النباهة التي لدى الراشدين، مع ذلك عرفت أنه محتم علي البقاء حياً لأنني كنت ذكراً..

ـ نعم، بالفعل، يتقبل شيلوميت، لقد تلفظت بهذه الكلمات وآسف لذلك الآن، يعود لأبيك بأن يشرح لك كل شيء بهذا الخصوص.

ـ لا ألومك، يؤكد باينس قبل أن يلتفت نحو مورين ليشرح له: من دون المآسي المريعة لهذا اليوم، كنت انتظرت حتى تصبح أكبر سناً لأكشف لك سراً يعنينا أنت وأنا، نحن موسومون بقدر لا يمكننا التنصل منه. أترى، هذا الرجل الذي يرقد في القبر، هذا الرجل الذي طبع علامته على البشرية عبر رسالته الداعية إلى الحب، هذا الرجل هو جدنا يا بني! نحن من دمه!

حركات بطيئة. دينية.

حُمِل جسد المسيح على النقالة. وقد أبرز الكفنُ الرمادي نحولةَ الجثمان، لكنه مع ذلك يحدد فيه بعض الخطوط المليئة المشيرة إلى أن الأعضاء متصلة ببعضها البعض، وإن يكن بعض الجسد ما زال موجوداً.

أما مورين، فلا يتوانى من إبعاد نظره عن الجثة التي يرسم لها فـي خياله وجهاً قريباً من وجه أبيه. الأنف مقوس زيادة، العظم القاسي بارز. الوجنتان عاليتان نسبياً،بارزتا التقاطيع ، الشفتان رقيقتان، وشاحبتان.

مورين لم ينطق بأي كلمة منذ الكشف الذي أعلمه به باينس. منهك، مضطرب، محموم، لقد أصبح شاهداً بعيداً للأحداث التي يتتبعها بدهشة فـي غفلة جليدية تقريباً، يبقى هنا، دون حراك، ينظر إلى جسد المسيح، جده الأكبر.

يسمع صوت أبيه البعيد:

ـ لنغلق القبر. سأضع الحلقة فـي مكان آمن.

وصوت الكونت:

ـ تبدو منهكاً يا مورين.

إذن نحن نتكلم معه. يجب أن نبذل مجهوداً لاستعادة حس حقائق الأشياء، بالعودة إلى تلك الليلة الغريبة التي تشبه نوعاً من الهلوسة.

ـ كان يسمع ذاته وهو يقول: أشعر بالبرد، أريد العودة. كان يحب العودة إلى حياة الطفولة، بأفراحها اللامبالية وهجماته ضد تمثال القش، جريه خلف الدجاجات، لعبه مع إيميلين، لحظة العطف بين أحضان أمه، أن يكون من جديد، ببساطة، ذلك الطفل الذي كان فـي الصباح. ليس هذا الصبي الميت، الحي المغروس فـي باحة المزرعة مع صرخات اليأس والألم تصدر عن والدته وتصم أذنيه.

شرع الموكب بالسير. أخذ باينس بيد ابنه.

ـ سأعد لك نقيعاً من النعناع والزعتر وسأجلبه إلى غرفتك.

ـ أين تنوي تخبئة الجثمان يا أبي؟

ـ غابة الشرق بأكملها ستصبح قبر الأول. التراب، الماء، الريح ستكوّن العناصر التي سيستمد منها قواه ليجدد جديد نار الحياة التي يبقيها فـي حال سبات فـي دمه. إيليفاس وأخوتنا سيبنون قبراً فـي هذه الغابة لا يمكن تدنيسه. سيضم فـي حناياه جسد يسوع الذي لن يتمكن أحد من تدنيسه. بانتظار ذلك، من الأنسب أن نجد له مأوى مؤقتاً بعيداً عن استقصاءات حراس الدم. مكاناً يمكننا مراقبته باستمرار.

12
إحدى كتابات باينس

لقد أقمنا هذا الصباح مراسم جنازة تيفين، إيميلين وباسيل لوهارني. تمت المراسم بصورة ضيقة جداً مقتصرة على المقربين ولم أرغب بمؤازرة أي كاهن.

كان من الأساسي أن لا نفاجأ بأي شاهد غريب على هذا العمل التغييري الذي نظمته بمساعدة اخوتي. الكاهن الذي خان وخدع السيدة هيلين دفن بتواضع جانب أحد الحقول قبل الفجر، ووضعنا علامة على قبره عبارة عن حجر أبيض. الى جانبه وفي مقبرة عائلتي، دفنا رفاة يسوع بانتظار أن نحفر له قبراً لا يمكن تدنيسه أو الوصول إليه في غابة الشرق.

إلى جانبهم ترقد الآن زوجتي الحبيبة، ابنتي العزيزة وصديقي باسيل. يمكنني بهذا الشكل المجيء للانحناء والتأمل كما أشاء على قبورهم.

من غرفتي، من النافذة الموجهة نحو الشمال، أرى القبور الثلاثة، علي من الآن أن أعتاد على حضورهم، عالماً أن الشيء الأول الذي سأقوم به كل صباح سيكون النظر إليهما. مع ذلك فإنني لن أقدر على نسيان أن تيفين وايميلين ستنحلان في الصلصال، في تلك الأرض السوداء من شامبانيا، في حين أن المسيح سيبقى في حالة متسامية. تطهير نفسي، لا شعوري خارج الزمن البشري. أعجوبة يقع أصلها منذ أكثر من ألف سنة، أعجوبة ناتجة من التجربة التي حققها لنفسه ولم يتمكن أي كيميائي آخر أبداً أن يكررها منذ ذلك الوقت.

كشف يسوع عظمة علم السحر مبعداً بذلك ظاهرة التعفن الطبيعية.

أعرف أن مورين لن يتمكن من إدراك كل ما علمته إياه في وقت وجيز. إنه ما زال صغيراً! يتألم كثيراً على فقدان أمه وأخته.

أثناء مراسم الجنازة، جلس إلى جانب السيدة هيلين، باحثاً بطبيعية عن الحضور

اللطيف لامرأة. أشكر هذه السيدة! التي عرفت كيف تظهر العطف، والشفقة إلى ولدي، مبعدة الهم والغم (اللذين تسببت بهما تلك الجنازة التي دعيت إليها. فهمت سريعاً أنها كانت غير مرتاحة وسط حضور يبكي أمواته دون أي ممثل عن الكنيسة.

لكنها على الأقل قدمت هذا الود إلى مورين الذي كان مرتاحاً لذلك أثناء طقوس الاحتفال.

مدهشة وعجيبة إنها لطقوس بالنسبة لمن يكتشف احتفالنا! فقد ارتدينا جميعاً معاطف بيضاء، مما أدهش هيلين على الفور، وبالنسبة لها لايمكن فهم الحداد إلا باللون الأسود.

حملنا موتانا على نقالات ومددناهم قرب حفر جُهزت في الليلة السابقة. أشعل إيميريك ثلاثة مشاعل غرسها في الأرض قرب رؤوسهم.

تلفظت بهذه الجملة:

ـ بما أن الساعة قد حانت وأننا بلغنا العمر المناسب فلنفتح أعمالنا!.

أمسكنا بأيدي بعضنا البعض. قبلت هيلين أن تمسك يدي. نظرت إلى مورين، ابتسمت له مع شيء من الاندهاش، وأمسكت بيده.

ثم تلوت الكلمات التي علمني إياها أبي والمعلمين الذين استقبلوني فيما مضى في المحفل الأول.

الريح الآتية من الغابة تهب بعنف، كانت مليئة بروائح التربة العضوية والطورب ولحاء الشجر، سماء بلون اللبن تكاد ترمي ثلجها. أسراب من الغربان تنعق في البعيد.

عندما انهيت الكلام، وضعنا الجثامين في الحفر، ثم أطفأ إيميريك المشاعل لدى أول رشقة رفش من التراب. قال الكونت هوغ:

ـ المعرفة هي طريقنا، تقع بين الحياة والموت، إنها أم الكون. بها كان كل شيء وكل شيء سيكون، بها وبأسرارها نجد القوة لقبول تعفن وتفسخ الجسد. لينيرنا الـ I.N.R.I ويستقبل أخوتنا وأخواتنا في النور الأول! أضفت:

ـ الموت ليس الموت.

ويختم جوفروا:

ـ والأرض ليست القبر!

شرع مورين بالبكاء: منظر أمه وأخته وقد بدأت الأرض تغطيهما كان لا يطاق، ترك يد هيلين واستدار ليهرب من المقبرة.

ـ سألحق به، طمأنتني الأرملة الشابة وهي تركض نحوه. أجهل لماذا كنت أشعر عندها

بحدس مظلم قلبي معصور بكمّاشة وفقدت تنفسي. الكونت هوغ، الذي لاحظ توعكي، أعطاني ذراعه ونصحني بالعودة إلى المنزل، لكنني رفضت. كنت أريد حضور الاحتفال حتى نهايته.

بمساندة صديقي، نظرت إلى إيميريك، جوفروا وفيرّير يغطون القبور، في تلك اللحظة بعد أن انتهوا من عملهم، عزمت على مغادرة المقبرة لأعود وأجد مورين.

كان نَفَسي متقطعاً قصيراً وفكري مثقلاً برؤيا مريعة لم أتوصل إلى إبعادها: صورة مورين دون حراك بين ذراعي، وصدرها ملطخ بالدم.

تمالكت نفسي عن العويل والصراخ. لكن روحي كانت ممزقة بألم لا يمكن تحمله، شدة أسوأ وأقوى من تلك التي كان الشيطان سينزلها بي شخصياً.

أوقف باينس ريشته، وأخذ يفكر، يستعد لمتابعة روايته، لكنه يتنبه من جديد ويغلق محبرته (دواته).

إنه شاحب، العرق يتصبب من الجبين والعنق. عيناه محمرتان ومنتفختان من كثرة البكاء.

الليل يصر عند مصاريع نوافذ الغرفة، بومة عنيدة لا تتوقف عن النعيق بصوت مشؤوم.

يطوي باينس ورقة القضيم، يغادر طاولته متجهاً إلى آخر الغرفة لينقل صندوقاً، حيث يوجد لوحان خشبيان متحركان، فيسحبهما ليضع جلد العجل في تجويف مظلم. هناك خبأ وصية المجنون، ثم أعاد اللوحين الخشبيين إلى مكانهما.

الجزء الثالث

قبر الشرق

1
المعلم روجمورد

آذار 1108 ألفاً ومئة وثمانية

بلدة جيبزي الواقعة على بعد أقل من ساعة على الجواد من ترويس. ببضعة مساكن حول الكنيسة غير المتواضعة، المنخفضة البناء.

في ذلك الشتاء الذي جاء متأخراً متباطئاً على شامبانيا غرقت هذه القرية الصغيرة في جو دائم من البرد وثلج عنيد. وحده مصنع التجارة للمعلم روجمورد يعج بالحياة.

هذا الرجل قوي البنية، عضلاته مفتولة، عريض المنكبين، بشرته شاحبة، شعره أصهب، كانت له نزوات خلال تعلمه مهنة النجارة، كان عليه أن يوزع بعض الصفعات العنيفة على أولئك الذين ينعتونه بكيس من التبن.

ـ هكذا صنع لنفسه شهرة كبيرة، من قوة لكماته، ومن حيث مهارته في إنجاز القطع المعقدة. لأنه ينافس من حيث المهارة أفضل العمال اليدويين في صنع جميع المسننات وبعض الوصلات الخشبية وأشياء أخرى، أسنان المحاور والألسنة الخشبية.

تجاوزت سطوته وشهرته حدود أبرشيته، يأتون من البعيد ليعرضوا عليه بعض الأعمال، عارفين أنه سينجز كل اتفاق بنفس المعرفة والخبرة.

هذا الصباح، نهض باكراً منتظراً إشعال مدفأة المطبخ الجدارية مجدداً لكي يوقظ ابنه، الذي يحب التكاسل في السرير الدافئ، تحت غطاء من ريش الأوز.

يكاد نيزيير يدخل في سنه الإثني عشر، أشقر مثل أبيه، يأخذ عن هذا الأخير ملامح وجهه المستدير، لحمه السميك، وقوته الطبيعية.

في نظرته الصافية يطفو الدمع باستمرار دالاً على نوع من الحزن منذ وفاة أمه،التي فقدها منذ ثلاث سنوات.

المعلم روجمورد يفتخر بأنه يفرض على أعماله بساطة كبيرة، فضيلة جعل منها مبدأ أساسياً في وجوده. هكذا وبكل منطق اتخذ نيزيير مهنة النجارة، متأكداً أن هذه المهنة النبيلة تجلب حصتها من التعويضات والرضى، من الناحيتين الفنية أو المالية.

إنه معلم بارع، لا يغضب إلا نادراً، مستعملاً بدل ذلك الصبر، الذي يعرف كيف يظهره الناس الأذكياء.

يبتدئ المعلم روجمورد يومه بتهنئة نفسه لكونه سعيداً، ويشكر الله لمساعدته على تجاوز خسارة زوجته التي يعزها يومياً بالفكر، وبإعطائه ما يلزم لبدء حياة هانئة بتناغم، وابنه البكر إلى جانبه. يوماً بعد يوم تصبح يدا هذا الأخير ماهرة، بارعة تستعمل بنشاط ومهارة المتجر، المطرقة، المنشار والمنشار الكبير.

هذا الصباح، بدأ المعلم روجمورد يدندن وهو يؤجج الجمر، معطياً له ما يلزم لإشعال حطبة كبيرة مأخوذة من شجرة الإجاص القديمة من حقله.

يجهل أن أربعة رجال يراقبون منزله. واحداً منهم يحمل فأساً قاطعة يمررها تحت حزامه.

*

* *

يدخل الرجل ذو الفأس ورفاقه الثلاثة إلى مشغل النجارة، الذي يبقى دائماً مفتوحاً على الطريق.

ـ قال المعلم روجمورد:أيها السادة؟.

ـ سأل القاتل بصوت عذب: هل أنت المدعو لانديريك، من عائلة روجمورد؟ هل هذا الصبي هو ابنك نيزيير ؟

ـ بالواقع، لم أستطع معرفتك مثلما تعرفني أنت!

ـ أنت تهمني، دون شك، أعرف أن الفارس باينس قد اتصل بك لتشارك في ورشة بناء على أراضيه.

ـ لا يبدو عليك أنك عامل يطلب عملاً، لاحظ روجمورد محاولاً اكتشاف ملامح محادثه من تحت القبعة التي تغطي وجهه.

ـ هذا يتعلق بالعمل. أعرف أن باينس تجول في كل المنطقة ليجند أفضل النجارين والحدادين والنحاتين، وأنه يقوم بتجفيف المستنقعات في غابته «غابة الشرق» فلأي هدف يقوم بذلك؟

ـ لم يرق للنجار لهجة صوت المجهول، كما أنه لم يرق له أن يحيط به الرجال

الثلاثة المرافقين له، هو وابنه. لهذا قال بقساوة غير مموهة:

ـ هيّ! وماذا تقولون عن سر المهنة التي يجب على أي عضو نبيل شريف فـي رابطة النقابات احترامها.

لقد أقسمت وأنا ملزم بالصمت فلو خالفت ذلك، فإنني سأفقد بسرعة مصداقيتي. الآن رجاءً وأدباً دعوني وشأني. أتمنى لك يوماً سعيداً يا سيدي:

يضحك الرجل المجهول ويقول:

ـ ليس فـي نيتي الخروج دون الحصول على ما جئت أبحث عنه

ثم، فجأة، يمسك بيد نيزيير اليمنى الذي يصرخ لوقع المفاجأة.

ـ ابنك لديه يدين جميلتين، يقول القاتل، قويتين لكنهما ناعمتين، صلبتين وأنيقتين! يدان ستصبحان دون أي شك يدي فنان على صورتك.. فيما لو لم يحصل لهما سوء!

أراد روجمورد أن يحرر نيزيير من هذه القبضة لكن الرجلين يمنعانه من ذلك ويوقفانه.

القاتل يجبر الطفل على وضع يده على منضدة العمل ويبعد أصابعه بعنف قبل أن يخرج الفأس القاطعة من وسطه وهو يطلب:

ـ أي اصبع تفضل أن أقطعها له؟

ـ أبي.. يتوسل نيزيير

ـ اصبع واحد فقط كبداية!

روجمورد لم يكن لديه الوقت ليجيب حتى رسمت الفأس نصف دائرة فـي الفضاء لتسقط على المنضدة. قرقعة حادة، لحظة صمت، نيزيير ينظر إلى يده برعب قبل أن يصرخ. بترت سبابته عند السلامية الأولى.

يمسك القاتل بالطفل المنهار، يوقفه ويضع مجدداً يده المشوهة على المنضدة ويرفع سلاحه.

ـ تكلم، أو أسقط فأسي من جديد وهو يأمر النجار.

ـ بحق الله، انك مجنون!

ـ أنا متأكد أنه تلميذ ومساعد جيد. ألا تعتقد أنه بحاجة إلى كل أصابعه ليمسك بالمنشار ويستعمل المقص؟

تكلم إذن، أيها الصديق. مستقبله كنجار يتعلق بما ستخبرني به.

روجمورد لم يعد يحتمل، إنه لن يتحمل رؤية نيزيير يتعرض لتشويه آخر.

ـ سأصرح لك بما أعرفه، يصمم على القول. أرجوك دعه واعفُ عنه.

ـ أسمعك.

بصوت منخفض، ونفس قصير، يشرح النجار:

ـ يتعلق الأمر بمهمة كبيرة واسعة سيشترك فيها، كل أصحاب المهنة. لكن كل واحد من ممثليهم يجهل حقاً أي عمل سوف يكرّس له. باينس يبقي مجموع كل عالمه فـي الجهل. بعض الرجال القادمين مباشرة من منزل كونت شامبانيا ـ الحفارون ـ سبق أن بدأوا بالعمل سراً. خلف سور، ولا أحد يمكنه الاقتراب من ورشتهم، إنهم تحت أوامر مهندس معماري يهودي، يدعى إيليفاس الذي لم يكن لديَّ الفرصة المناسبة لمقابلته.

ـ أهذا كل شيء؟

ـ أرجوك اعفُ عن ابني يا سيدي!

يتوسل روجمورد، وقلبه ممزق لبكاء نيزيير.

أبقى القاتل فأسه فوق يد هذا الأخير.

عندئذ يضيف النجار بحماس:

ـ علي أن ألتقي بالفارس هوغ دو باينس غداً لكي يعطيني مخططات علي تنفيذها فيما بعد على الأرض.

ـ هل لديك موعد للتائه فـي غابة الشرق؟

ـ بالفعل، فـي كنيسة صغيرة.. تستخدم كمسكن لرؤساء العمال، حيث يجتمع باينس والمقربين منه. وهناك رأيت للمرة الأولى سيادة الكونت هوغ دوشامبانيا.

ويزفر زفرة طويلة تحت القبعة، كزفرة انفراج.

يفرج القاتل عن الطفل، ويخفف الرجلان اللذان يمسكان بروجمورد من إحكامهما عليه.

يسرع النجار نحو ولده، يمسك يده اليمنى ليتفحص الجرح من حيث ينبجس الدم.

ـ حسناً، يقول الرجل ذو الفأس، من الآن أنت ملكي. ستكون عيني وأذني فـي ورشة الفارس باينس. فإذا ما شكوتني إليه فإنني سأبتر يد ابنك من جديد أو سأقتله. حيثما يذهب، أو حيثما تخبئه، إذا كانت تلك نيتك، فإنني سأجده. أفهمت أيها الصديق؟

ـ قال النجار المغلوب على أمره:سأتقيد بمشيئتك،سيدي.

يخرج حراس الدم من المصنع ويلحقون بجيادهم قريباً، مبتعدين قليلاً عن بلدة جييرّي سالكين طريقاً متجمداً يتقدمون فيه بحذر.

أحد الرجال الراكبين إلى جانب القاتل يقول بزهو واضح:

ـ نحن نمسك باينس وجماعته فـي راحة يدنا. سبق أن وضعنا منزل جوفروا دو سانت ـ أومير تحت المراقبة، كما اتفقنا. مع ذلك أجهل كيف تنوي التصرف معلمي.

ـ سأقوم بما علي فعله وأجعل منه شغلي الشاغل. سانت ـ أومير هو التالي على القائمة وأنا حريص على تصفية حساباتي، ما من شك أن هؤلاء المرتدين اللعينين هم قيد تشييد قبر لاستقبال رفاة يسوع المسيح الذي توجب عليهم إخفاءه مؤقتاً، يبدو أن عملهم هو فـي مرحلة متقدمة، إذا ما اردنا الحكم بناءً على ما قاله لنا النجار.

ـ قبر لا يمكن دخوله، صمّمه ذلك اليهودي إيليفاس.

ـ سنسبقهم! سنجبرهم على النطق بكل أسرارهم! سوف أنتزع يدهم اليمنى كما سبق أن فعلت مع رفيقيهما. البابا باسكال يؤجل سفره من ريمس بأمل أن نكون قد انتهينا منهم. لكن ليس بامكانه البقاء ضيفاً على الإسقف لما لانهاية. البابا هو طبعاً حليف، ونحن حالياً ميليشياته، عليه أن لايتجاهل إرادتنا فـي تأسيس كنيستنا، كنيسة حراس الدم! لا يهم الزمن الذي سيلزمنا لنفرض نظاماً جديداً! معركتنا عادلة وستبقى عبر القرون.

عندنا رجل قوي وجيد التسليح، فإن كل ما يملكه هو فـي أمان.

ـ إلهي خلص شعبك، سيدنا وبارك ميراثك.

يرددون معاً، بصوت واحد وقوي:

ـ آمين.

2

في غابة الشرق

كان الضباب الصباحي،بكثافته الشديدة ولونه اللبني،يغطي اغصان اشجار غابة الشرق، ممتداً بمحاذاة سطح مستنقع جاف،له شكل حوض واسع. وسطه ترتفع على جزيرة صغيرة، غابات من القصب العالي المحبوك حول بعضه البعض، راسمة دائرة كاملة. ذلك السياج المكون من عصي الخشب المفروشة على الأرض والمدعمة هنا وهناك بأوتاد تخفى أو تموه الورشة التي يديرها المعلم إيليفاس لحساب المحفل الأول.

للدخول إلى الحدود الخارجية الممنوعة، يجب سلوك جسر صغير مرفوع على بضعة أوتاد وعبور باب ذي مصراعين، يحرسه رجال مسلحون تابعون لمنزل كونت شامبانيا.

جنود آخرون يعسكرون على ضفاف المستنقع. إنهم ينامون تحت أكواخ من سوق نباتات القمح والخشب أو يتدفؤون فوق لهيب مواقد الجمر.

أبعد من ذلك إلى الشمال، حفرت العديد من قنوات المياه التي تحتوي حواجز وسدود مكونة من التراب والحجارة والألواح الخشبية التي يستمر الحفارون في تدعيمها.

شبكة من أقنية ضيقة حفرت بحيث يسيل جزء من ماء الأحواض الاصطناعية خارج الورشة، باتجاه الأحواض البعيدة. خلف غابة القصب، ثمة بئر حفرت حديثاً مغطاة برافعة، دعامات مائلة تدعم جدران الحفرة التي تغوص في الظلمات. وعلى متراس الجذوع تستند غرفة ذات منور، مقر صغير حيث يمكن للمشرفين على العمل الاستظلال. هنا في هذا المكان يقف حالياً جوفروا دوسانت ـ أومير وخبير المعدن اللذان يتأملان عاملين يحركان دولاب الرافعة، مشغلين ببطء بكرة يتدلى حبلها في البئر.

ـ في العمق،يتابع باينس وايليفاس نزولهما تحملهما سلة من الخيزران. يحمل المهندس المعماري قنديلاً ينير بصعوبة جدران المدخنة العريضة ذات الدعائم المثبتة.

ـ كل هذا العمل أنجز فـي وقت قصيرا يتعجب باينس. أنت ساحر، إيليفاس أنت خبير عمل لا مثيل له!

ـ هيا، علينا بالأحرى أن نذهب ونشكر أخينا هوغ. وطواقمه من الحفارين الذين لم ينفروا من العمل، عملوا ليلاً ونهاراً. ولحسن الحظ، لم يحصل معهم أي حادث، بالرغم من صعوبة العمل.

سلة الخيزران تلمس قاع البئر. ينزل منها الرجلان، ويظهر أمامهما دهليز. إيليفاس يرفع مصباحه، ويطلب من باينس بأن يتبعه شارحاً له:

ـ لقد فرضت صنع جهاز تتداخل فيه ألواح خشبية بألواح الأرضية لمسك التراب، هذه الأخيرة سريعة الحداثة وتسبب لي متاعب كثيرة. كنت اظن أنها مكونة فـي جزء كبير منها من الكلس. لا يمنع أنه اعتباراً من هذه البئر سيدخل النجارون والبناؤون.

ـ أنا أحفظ مخططك فـي ذهني، يقول باينس. المتاهة العامودية ذات المدخنتين، والتي تخيلتها هي أعجوبة فـي الابتكار.

بعد أن تقدما بضع عشرات من الخطوات فـي الدهليز الموحل، يصل الصديقان إلى غرفة محفورة فـي قلب الصلصال. من سقفها المدعم برافد من خشب السنديان يرشح ماء أسود شديد البرودة يبلل رأسيهما وكتفيهما.

يرسم إيليفاس على الأرض دائرة من الضوء بواسطة مصباحه ويقول:

ـ هنا.. سيرقد طوال قرون وقرون إلى أن يعود بين الأحياء. سنخبئ جسد يسوع فـي هذه الغرفة، فـي هذا القبر سنكون بحاجة إلى نجار ماهر ليصنع الأساسات التي سيضع عليها البناؤون حجارتهم.

ـ لديّ الرجل المناسب، يطمئنه باينس، لقد قابلته مرتين مع هوغ، وسأقابله هذا الصباح مرة اخرى لأعرفك عليه وأوكله مهمته.

*

* *

ظل جوفروا على السطح لا يقوى على تخفيف قلقه:

ـ باسم القديس يوحنا، لا أحب معرفة أنهما فـي قاع هذا البئر، إنه دون شك عمل جيد، لكن تنقصه جدران متينة ليكون آمناً

ـ لا يوجد شيء نخشاه يؤكد المسؤول خبير المناجم، إنها ليست الحفرة الأولى التي أحفرها، معلم جوفروا، يمكن الوثوق بي.

ـ لاعليك؟ الغوص فـي أحشاء التراب المشبع بالماء! الدخول بين فكيه الموحلتين.. تقول

لاخوف؟ اعذرني بأني لا أشاركك رأيك، أيها الصديق ولا يضايقك القول أن شهرتك لا تكفي لتطمئنني تماماً. حقاً؟ لا عليك

ـ هل تظن أن المعلم إيليفاس سينزل إلى البئر ويأخذ حصة صديقك، لو كان هناك خطر يخشاه؟

ـ باسم الله، الثقة بالنفس غالباً ماتكون مصدر ضلال كبير!

أقسم بروحي، مع كل الاحترام الذي أكنه لك يا سيدي، ومع ذلك، لا أتمكن من منع نفسي أن اعتبرك مثل رجل قليل الإيمان!

فجأة، واحد من العاملين المخصصين لتحريك الرافعة، ينحني نحو الفراغ، صارخاً:

ـ آه، إنهم يشيرون لتوهم بواسطة المصباح، ويطلبون رفعهم إلى السطح.

ـ أخيراً، يزفر جوفروا بارتياح. حسناً، أسرعوا وأخرجوهما من داخل هذا!

رفعت السلة، جوفروا يلتقي برفاقه من جديد مع إظهار قوي للصداقة، يشدهما على التوالي بين ذراعيه ضارباً براحة كفه الضخم على ظهرهما.

ـ لن أعش طويلاً! تعرفون أنني أتعرض لتشنج في البطن يسبب لي المغص!

ـ هذا مؤكد، ألا تريد النزول بدورك؟ يسأل إيليفاس ببراءة.

ـ أنت تهزأ بي يا معلم إيليفاس، فأنت تعرف حق المعرفة أنني أصاب بالدوار.. دون حساب لشعور الضيق الذي كنت أشعر به لدى وجودي في فم الجحيم هذا.

ـ إنه لأمر مؤسف، يبالغ باينس، لكنت تأملت بالمهمة التي أنجزت.

ـ أصدّقك بغير دليل. وأكتفي بتقريرك.

باينس متوجهاً نحو باب المنطقة المسورة.

ـ لقد حان الوقت لنذهب إلى الكنيسة، علينا أن لا نجعل نجارنا ينتظر.

قبل الذهاب إليه بصحبة جوفروا، يذهب إيليفاس إلى تحت السقيفة ليمسك كيساً من الجلد موضوعاً على طاولة. ويقول:

ـ أخذت الرسوم المنجزة التي تعنيهم ولم أترك أي أثر يستطيع تتبعه.

يسلك الرجال الثلاثة ممراً طويلاً مثبتاً على أوتاد، ليقودهم إلى الجهة الأخرى، حيث يسلكون درباً ضيقة تحدها النباتات الشوكية ذات المخالب الحادة. يلاحظ باينس أن جوفروا يبطئ خطاه، وهو يلهو بالخاتم الأحمر الموجود في يده اليمنى.

ـ تبدو متعباً يا أخي فإن كنت غير قادر على مرافقتنا، فعليك البقاء في الدفء وفي منزلك.

ـ هذا الشتاء.. هذا الشتاء الذي لا ينتهي! ليس إلا هذا. يجب رغم كل شيء، كمضيعة للوقت، طرد الضجر، الظلام والبرد. والذكريات!.

ـ شيء آخر يا صديقي، يلح باينس. لاحظت أنك لم تتوقف عن حك أصبعك كما لو أن حلقة الخاتم تحرقك.

ـ باينس وعينيه كعيني الثعلب! أعرف ذلك، هذا الخاتم ينخر عظمي. ولا أتوقف عن التفكير بما تحتويه تلك الخواتم التي انتزعت من أخوينا المرحومين. لقد ألقى حراس الدم لعنتهما علينا، وذلك القاتل الملعون ذو الفأس سوف لن يدعنا لشأننا قبل أن يقتلنا، أفكر أيضاً بتيفين و إيميلين.. زوجتك أظهرت لي دائماً العطف وأظهرت نفسها صبورة حيالي، كم من المرات أزعجتها وأنا أروي لها مفاخري في المسابقات والمنافسات؟ وفيما يخص ابنتك الرائعة، لايمكنني نسيان أنني كنت ما أزال أجعلها تقفز على بطني الضخم منذ وقت قليل.

ـ إن الأمر لا يتعلق بلعنة، يتابع باينس. التهديد ليس لعنة حتمية.

ـ انظر، الروماتيزم سبب انتفاخ مفصل سلامياتي، سيكون من الصعب والمؤلم إخراج هذه الحلقة فيما لو أردت ذلك.

لقد نذرنا أنفسنا بأن لا نفترق عنه مهما كان الخطر.

جوفروا يتوقف تماماً، مصاباً بغضب عنيف يتفجر عبر كل قسمات وجهه باحمرار فجائي لجلده، ثم قال وهو يُرعد:

ـ باينس الرابط الجأش! باينس الفاضل! أصدقاؤك وعائلتك قطعوا إرباً مثل خشب حقير وتبقى هنا، دافقاً في العاصفة، مسكوناً بقناعاتك وتأكيداتك! كم من الوقت سيكون علينا الانتظار قبل أن يأتي الرجل ذو الفأس ويقتلنا بدورنا؟

ذلك الرجل هو تجسيد للشر!

لم يظهر أنه تأثر من الحملة، يقول باينس:

ـ ليس سوى قاتل ماهر أكن له حقداً لا حدود له.

ثم، تابع سيره، ليضيف:

ـ سيأتي وقت سأغرس سيفي في قلبه.

فجأة واعياً بزلة اللسان التي ارتكبها منذ لحظة، جوفروا يسرع ويطيل خطاه ويصل إلى جانب صديقه ليقول له:

ـ اعذرني يا باينس.. إنني أشفق على مصيري بينما علي أن أريحك وأشفق عليك، ليس لدي قوة حزمك يا صديقي القديم. الموت الذي يحيط بنا يمنعني من النوم بسلام

ويطاردني مثل ذئبة جائعة. كيف يمكنني مساعدتك لتحمل هذا الألم المريع؟

ـ سننتصر! يصيح باينس، بطريقة أو بأخرى سننتصر، بأي طريقة!

*

* *

المعلم روجمورد وابنه ينتظران أمام كنيسة يمكن اعتبارها مهجورة لو لم تكن محروسة من قبل ثلاثة رجال يمضون وقتهم وهم يلعبون النرد على حجر عريض ومسطح.

باينس وصديقاه يخرجان من النباتات الشوكية، أحذيتهم محملة بالوحل، وأسفل معطفهما مبلل.

ـ صباح الخير يا معلم روجمورد، تسعدني رؤيتك من جديد.

ـ أنا أيضاً، سيدي، جئت لأضع نفسي تحت تصرفك هكذا كما كنا اتفقنا وأنا متلهف لاكتشاف ما سيكون عملي.

ـ لا أعرف هذا الصبي: هل هو أحد الذين يتدربون لديك؟

ـ هو كذلك إلى حد ما، يجيب النجار مبتسماً. إنه نيزيير، ابني. يرافقني من الآن ليتعلم المهنة، إنه فـي سن التثقيف والتعلم، ولا يوجد تعليم أفضل من المشاهدة.

ـ أنا متأكد أنك تقدم له تربية رائعة، الناس فـي الناحية يجزلون لك الكلام الجيد.

اقترب باينس من الطفل، أخذ يده ليتفحص الضماد السميك الملطخ بالدم، وأضاف:

مع ذلك يجب الانتظار ليكون لك سنداً ثميناً.

ـ ماذا جرى ليده؟

المعلم روجمورد يتوقف قليلاً قبل أن يجيب، يتنحنح ثم يصمت وبصوت متصنع يريده واضحاً:

شفرة مسحاج أخذت قطعة من اصبعه. إنها أشياء تحصل عندما لا نتقن تماماً استعمال الأداة، أليس كذلك؟

ـ دون شك. مع ذلك إنه لأمر مؤسف. الجرح طري حديث، عندما تحكم عليه من حيث شحوب وجهه والدم الموجود على الضماد. آمل أن يكون من الضروري أن تجري له الإسعاف اللازم لتجنب الإلتهاب.

ـ نعم أيها السيد، يبدأ نيزيير، أؤكد لك أنني سأتعافى سريعاً. هذا شيء يسير بالحقيقة.

المعلم روجمورد يسرع ليتابع:

ـ هو كذلك، تماماً كما قال لك. سيتعافى. صدقت..

لاحظ باينس شيئاً من القلق فـي صوت النجار.

ـ هل لدى الرجل شيء يلام عليه؟ هل هو مسؤول عن الحادث؟

ـ لندخل إلى الكنيسة، يدعوهم إيليفاس

يلتفت النجار نحو ابنه.

ـ انتظرني يا نيزيير، لست قادراً بعد على تلقي الأوامر من أصحاب الورشة.

ـ نعم يا أبي.

يخاطب باينس المعلم روجمورد وهو يعبر الباب:

ـ يبدو أن ابنك صبي صالح.. أنا لدي ابن قد يكون من جيله.

ـ نيزيير فقد أمه. التي توفيت أثناء وضعها طفلنا الثاني.

ـ إبني أيضاً فقد أمه..

ـ إذاً أنت تفهم الحب الذي أكنه له. يجب أن أعوض غياب أمه بتصرفي كأب.

إيليفاس يتوجه نحو المذبح، الذي تحوّل إلى مخطط عمل، يعد مكاناً بين رزم رقائق الجلد والنماذج الحجمية، ليفسر فيها اللوحات المرسومة بالقلم الذي يخرجه من كيسه الجلدي.

نور منكسر ينفذ من زجاج النوافذ الملونه، يدفئ الحجارة الرمادية لهيكل الكنيسة العاري من أي زينة، والتي يضفي عليها صليب كبير مسحة من القداسة.

يدعو إيليفاس المعلم روجمورد للاقتراب من المذبح.

ـ العمل الذي سنوكله إليك يفرض أن تجند الخدم والرفاق من أخوتك، يقول له:

ـ هذا سيكون سهلاً علي، كنت قد اخترت قاضياً في محكمة للعمال من قبل نقابتنا، علينا أيضاً الاعتماد على نجارين يتراوح عددهم بين عشرة وعشرين من الأبرشيات المجاورة، وكذلك على رقباء يلبّون النداء، فالعمل حالياً قليل والعمالة متوفرة.

إيليفاس يضغط على رسومه بسبابته مجدداً.

ـ لقد رسمت كل العناصر التي ستكوّن العوارض، وأخشاب الثّوب ودعامات السقف التي عليها حمل تركيبات من الحجر والبناء.عليك التقيد بدقة لا متناهية بالنسب بين حوامل الروافد، وأحجار الحوافي، لأن نجاح عملنا يتعلق بكم. ستسلمنا القطع، التي ستجمع فيما بعد وتوضع في مكان من قبل عمال آخرين.

ـ سيقع هذا العمل على عاتق الرجال التابعين لمنزل السيد كونت شامبانيا، يحدد باينس. لقد أخبرتك مسبقاً عن هذا الإجراء. هل ما زال يناسبك؟

هذه المخططات واضحة جداً يا سيدي، سأتقيد بها دون محاولة معرفة إلى أي بناء ستكون مخصصة مع أن فضوليتي الطبيعية تتألم لذلك!

ـ أنت رجل شهم، ونحن نتفاهم بهذا الشكل، يقول باينس. مع ذلك، قبل الكلام عن

راتبك، سنطلب منك أداء القسم وليس من قبيل الصدفة جاء اختيارنا لهذا المكان.

يندهش المعلم روجمورد ويقول:

ـ عن أي قسم تتكلم؟

ـ ستقسم بالإنجيل المقدس أنك لن تكشف لأي شخص عن محتوى هذه المخططات أو الإفشاء بأي من محادثاتنا.

ـ آه! بما أن هذه هي مشيئتك..

باينس يظهر إنجيله أمام النجار الذي شحب لونه قليلاً، لكنه مع ذلك مدّ ذراعه اليمنى.

ـ ردد خلفي، يطلب منه باينس، **أنا المعلم لو ديريك روجمورد، أتعهد بالحفاظ على السر حول كل ما سيقال لي في هذه الكنيسة، وحول المخططات التي ستعهد لي، وحول كل ما أتمكن من كشفه.**

عرق بارد جداً يسيل في ظهر النجار، الذي يوجه كل إرادته نحو يده اليمنى لكي لا ترتجف و هو التقيّ جداً المحترم والملتزم بوصايا الله ومبادئ الكنيسة المقدسة. إنه المعلم روجمورد، سيكون عليه أن يحنث بيمينه!

*

* *

يخرج النجار من الكنيسة ليجد ابنه وهو يضرب الأرض بقدميه كأنه يرقص من شدة البرد.

ـ لقد أطلت البقاء في الكنيسة يا أبي. خلت أنني سأتجمد في مكاني.

ـ كان علي أن أعقد صفقة مع هؤلاء الفرسان يا نيزبير. لقد تم ذلك، هيا بنا نذهب.

يعود الأب والطفل إلى حصان الحراثة القوي الذي يتخذونه كراحلة. يرفع المعلم روجمورد نيزبير عن الأرض كما لو أنه لا يزن شيئاً ويجلسه مفرشخاً على ظهر الحيوان.

باينس وهو ينظر إلى الطاقم المتواضع يبتعد:

ـ ذلك الطفل..

ـ أنت تفكر بولدك، يقول جوفروا.

ـ بالفعل، إنهما العينين نفسيهما. النظرة الحزينة، الخاوية نوعاً ما.

ـ حسناً ماذا تنتظر لتعود إليه؟ ألم يكن من الواجب علينا الذهاب لزيارته، وكذلك السيدة هيلين؟ كلاهما في أمان عند هوغ.

ـ بالفعل، يقول إيليفاس مبالغاً، لا أتصور كيف سيتمكن حراس الدم من التسلل إلى قصر أخينا المشهور. أتتصور وجود قتلة مجانين ليقدموا على مهاجمة كونت شامبانيا صهر الملك؟

ـ بالضبط، يتابع باينس. رجل واحد يكفي! الرجل ذو الفأس القاطعة. كنت أجهل أنه في

يوم من الأيام سأشعر بهذا القدر من الحقد! وأقسم بالمسيح، أن هذا الحقد سيقودني إلى الأسوأ لأثأر لزوجتي وابنتي ولأخوينا الإثنين!

ـ الأسوأ؟ يقول جوفروا، ألم نعرفه نحن عندما أتينا بعلامات يسوع الخمس من القدس؟

ـ ما سيأتي سيكون أكثر هولاً، يؤكد باينس: سأذهب لأنقل الشر إلى وسط البابوية!

يبقى صامتاً لبضع ثوان ثم يقول:

ـ أنت محق يا جوفروا، لقد حان الوقت كي نلتحق بالأخ هوغ في مقر مقاطعته.

ـ أبلغه سلامي، كذلك الأساتذة سُيلوميت وفيرّير، يقول إيليفاس. ولا تنسَ أن تقبل ابنك نيابة عني وتبلغ السيدة هيلين تحياتي.

ـ سأنقل لهما عواطفك وأسهر جيداً على سلامة الورشة. يجب أن يشاد القبر في أسرع وقت، إذ علينا أن ننتظر كل شيء من طرف حراس الدم.

ـ طبعاً، سنلتزم بالمهلة المحددة، سيستريح يسوع قريباً في ملاذه المقدس بحيث لا يمكن لأحد أن يدنسه.

إيليفاس يفارق رفيقيه ويعود من هناك إلى المكان المسوّر، بمشيته البطيئة كرجل مسّن. يختفي خلف ستار النباتات الشوكية.

ـ هيا، لنمض يا جوفروا! يصرخ باينس وهو يظهر فرحته. إنها لنزهة جميلة تنشط الدم وتعيد لك بعض اللون.

ـ سيلزمني أكثر من ذلك لأزيّت مفاصلي! لقد مضى زمن طويل ولم نقاسِ من شتاء بارد كهذا.

يمتطي الرجلان جوادهما، وبينما هو يهمز دابته يقول باينس:

ـ قال لي هوغ أن أخيه فيليب، أسقف شالون، سيأتي اليوم لزيارتنا، يبدو أنه كان يملك بعض المعلومات ذات الأهمية لينقلها لنا.

اعتقدت أن الأمر يتعلق بالرجل ذي الفأس!

ـ ذلك الشيطان!

ـ إنه قاتل يا جوفروا. إنه ليس شيئاً آخر، ماهر ومنحرف. قاتل يختفي في مكان ما وسوف نخرجه من وكره!

*

* *

يتقدم الحصان البدين بخطاه الثقيلة على الأرض المغطاة بالثلج الكثيف. يتنفس بقوة، مع نخير طويل متكرر. ظهره منخفض، بسبب الحمل الذي على

ظهـره وحــمـولة السـنوات المتراكمة التي أعـطته هـذه المشيـة الكسـولة.

نيـزيير يمسك بوسط والده، أحد خديه ملتصق بظهره.

ـ لقد أديت قسماً إلى الفرسان، يقول النجار.

إنه وعد بأن لا أكشف عن موضوع هذا العمل، الذي سيشكل سبل العيش للعديد من الرفاق فـي النقابة. غير أنني لاأستطيع منع نفسي من التفكير بالرجل الذي بتر إصبعك..

ـ كان عليك أن تتكلم عن ذلك مع السيد باينس وأصدقائه.

ـ لا أظن أن بمقدورهم حمايتنا من ذلك المجنون، يا نيزيير.

لقد أقسم بأن ينتقم منك وهو يهددنا بالانتقام.

ـ لكن، أنت قاض فـي محكمة العمال يا أبي، تعهدك أمام شـركائك هو شيء مقدس!

ـ أنت تساوي بالنسبة لي أكثر من كلمة أعطيت يا بني إن روحي فداك.

3
الإسقف فيليب

يقع قصر الكونت هوغ، كونت شامبانيا في الشمال الغربي من ترويس. يقيم فيه هذا الإقطاعي الكبير معظم أيامه، مهملاً دون ندم بيته البسيط في بروفنس.

عرف هوغ كيف يعطي لمدينته التي يعزها، دفعاً تجارياً، جعل منها ملتقى الطرق التجارية. تجري بين جدران مدينته كل المعارض الدافئة والباردة التي تعقد على التوالي في سان جان وسان ـ ريمي.

إن هذه التجمعات العملاقة التي تدفع إلى الطرقات بباعة الجوخ، والحديد، والصاغة، وبائعي الرقوق والدباغين، تلزم الكونت بحماية الطرقات، وتحضير الفنادق، والمحافظة على السلام والأمن في أصغر الأحياء، وفي أصغر الأزقة، لأن قطاع الطرق واللصوص والمجرمين ينتشرون بأعداد كبيرة في المدينة.

ـ يتم التداول بجميع العملات الغربية، أما الصرافون الخبراء كالفلورتين والبندقيين فهم يفرضون نسب أرباحهم من خلال العمليات الحسابية التي يقيمونها على لوحات عداداتهم.

تمتلئ ترويس بالثروات. تزدحم، تساوم، تبادل، تماحك، تجمع البضائع وتتاجر بالتحف، إنها تعيش من الضوضاء والصراخ والغوغاء.

كانت تنحصر بين معرضين، متوسعة، كاسية طرقاتها بالحجارة الملساء، حافرة آباراً جديدة، وموسّعة ساحاتها.

ـ هذا جيد، يقول الكونت هوغ بصوت تعب. سوف نخصص حارة القديسة هيلين إلى الشرقيين ونعدهم بحماية أفضل من العام السابق!

ـ طبعا، يقول الرجل القصير القامة النحيل الجسم ذو اللحية، الذي يطوي الوثائق التي

نشرها على الطاولة. طبعاً إن طلب هؤلاء الناس الطيبين مبرر جداً ياسيدي لا تنس أنهم فقدوا اثنين منهم بسبب طعنات الخنجر وثلاثة من نسائهم اغتصبن.

ـ أعرف، يزفر هوغ. لقد أعلمني قائد الشرطة والمشرفون على الملكيات بنتائج تحقيقاتهم، وانهم لم يتمكنوا من اعتقال أحد، فقد كانوا متأكدين أن تلك الجرائم كانت من فعل الفلامنديين المخمورين. أكرر لك يا حضرة القهرمان، أخبرهم ممثل المشتكين أن المدينة تتعهد بحمايتهم من أي محاولة اعتداء جديدة. ودون مطالبتهم بتقاسم التكاليف.

ـ أدلى الوكيل برأيه ضاحكاً:سيقدرون لك هذه العلامة من الطيب والشفقة.

يلتفت الرجل القصير إلى الوراء، ووثائقه تحت ذراعه متسللاً مثل فأرة إلى أن يبلغ الباب، وثوبه البيتي يكنس أرضية المكان.

ما أن أصبح هوغ وحده حتى استراح على كرسيه. إنه يضع مرفقيه على الطاولة ويأخذ جبهته بين يديه، عادة، قد يكون فرحاً لفكرة تحضير المعرض الجديد. والا لأمكن لأصغر المسائل أن تثيره، مجبرة إياه في البحث عن حل قادر على خدمة مصالح كل طرف بالشكل الأفضل. لكن هذه المرة، أضجره مشرف الأملاك. صوته الحاد ثقب طبلة أذنيه، يحتفظ بصداه المعدني في الأذنين.

ذهنه الخفيف عادةً واليقظ يبدو له من الآن ثقيلاً مزدحماً. موت أصدقائه، وزوجة باينس وابنته سبب له ورماً أسود يملأ ليله بكوابيس مريعة.

إنه مشتاق جداً إلى آرسيس وباسيل..

كل يوم من الصباح حتى المساء تفرس أشباحهما في نفسه هوة من اليأس، حيث لا يمكن لأي صلاة أن تريحه.

يفتقدهما كأخوة حقيقيين. يدا آرسيس الطويلتان والنحيلتان اللتان كانتا تشدان على يديه بحنان، نظرة باسيل، البعيدة دائماً والحالمة...

ينهض هوغ، يقصد أحدى النوافذ، ويسند جبهته إلى زجاجها البارد، كما كان يفضل النوم هكذا، واقفاً، مثل نصب أو تمثال من الحجر. يتمنى أن ينام وهو لا يفكر بأي شيء.

ضجة أحد الأبواب من ورائه، خطوات بطيئة ثقيلة. هي خطوات أخيه فيليب.

يلتفت هوغ نحو الإسقف، هذا العملاق البشوش ذو العينين الطفوليتين والابتسامة الملائكية. جسمه محاط بهالة من النور الذي يدخل الغرفة، يتقدم على مهل، يفتح الذراعين وحركة استقبال وتأهيل يقول:

ـ لنتعانق، يا أخي.

يتوجه الكونت نحوه، ويقبل المعانقة بعرفان جميل، يقبّل خداً واحداً ويتساءل:

ـ هل قمت برحلة طيبة؟ ألم يزعجك الثلج كثيراً؟

ـ نقّالتي أوشكت على السقوط أكثر من مرة فـي الحفر، غير أن الحوزي، وهو رجل خبير، يحرص بكل نخوة على ألا يرمي أسقفه أو يسبب له ما لا طاقة له عليه! هذا ما سبق أن وبخته عليه بعنف، وبأسلوب غير مغفور، حتى لو أظهر ندماً صادقاً!

هوغ يروق له سماع صوت أخيه. فهو يذكره بصوت أبيهما.

يقول الإسقف متخلصاً من المعانقة:

ـ سحنتك باهتة ولونك شاحب وقد نقص وزنك.

ـ لدي بعض المواضيع التي تضغط علي.

ـ نعم أعرف.

يتخلص الكاهن من الفروه التي كانت تغطي كتفيه.

هوغ يدفع مقعداً ويقترح:

ـ اجلس، حتماً أنت تعب.

يسترخي فيليب على المقعد الصغير الذي يصل إلى مرفقه تحت تأثير وزنه ويقول:

ـ البابا يخوض حرباً دون هوادة ضدك. لقد أطلق حراس الدم معطياً إياهم الحرية فـي ملاحقتك أنت وكذلك أصدقاؤك. بهذا الخصوص، لقد تصرفت دون حذر عندما أرسلت لي رواية رحلتك إلى القدس ومن ثم الرسالة التي تعلمني بها موت الفارسين آرسيس دوبريين وباسيل لوهارني.

ـ يمكنني الإجابة عن الرسول الذي أوكلت له هذه الرسائل. إنه إيميريك، من بيت باينس. رجل ينتمي إلى أخويتنا.

ـ كان من المحتمل أن يعترض سبيله!

الصوت قوي:

ـ أنت محق، يقبل الكونت. مع ذلك، كنت أرغب أن تكون على علم بسياسة البابا حيالنا. كانت الأوامر المعطاة إلى إيميريك تقضي بأن يحرق أو يمزق الرسائل فيما لو سقطنا فـي كمين.

ـ لا أفهم شيئاً فـي مسائل التجسس هذه، وأظن أن الحذر هو طبعاً فضيلة ضرورية لقيادة هذا النوع من المبادرات إلى بر الأمان.

ـ هل جئت إلى هنا لترهقني بالتحذيرات مثلما كنت تفعل عندما كنا صغاراً؟

يصدر الإسقف ضحكة عالية تهز صدره.

ويجيب وقد اغرورقت عيناه بالدموع:

ـ لقد أخذتَ دائماً نصائحي على أنها توبيخات يا هوغ!

عندما كنت صبياً، لم تكن سوى كتلة من الأعصاب المتحركة، تخبط بيديك ورجليك، وأنت تدخل المكان طيلة ساعات في معارك خيالية. بالرغم من قوتي وقامتي، فقد كنت أكرس معظم وقتي في القراءة، والكتابة والحساب، هل تتذكر معلمينا الذين كانوا يجبرونك على البقاء في مكانك لتصغي إلى دروسهم؟ كم من المرات همست لك بالأجوبة على مسائلك، وقوافي قصائدك؟ لدى سماع هذا الاستحضار يبتسم هوغ:

ـ أقر أنك كنت لي مراراً عوناً كبيراً، لم أنس حكمتك أو طيبتك تجاهي.

لقد طيبت خاطري وأرحتني لمرات عديدة واليوم أيضاً، عرفت أنك إلى جانبي فهذا أمر يريحني. ويقلقني أيضاً! قال لي رسولك انه كان لديك معلومة أو خبر هام تريد أن تخبرني به..

ـ بالفعل. المعلومة تسرك أنت ورفاقك.

ـ أتريد أن نكون جميعاً مجتمعين لكي تنقلها لنا؟ إنني آوي أصدقائي منذ الهجوم على مُلك باينس من قبل حراس الدم، ووضعت تحت تصرف الأساتذة فيرّير، شيلوميت وإيليفاس مستودع حولوه إلى مختبر، في حين أن إيليفاس يقضي معظم وقته في غابة الشرق.

ـ ستطلب أيضاً من ابن باينس المشاركة بمحاضرتنا. إنني أتشوق للانحناء أمامه.

ـ أفهم، يقول الكونت. أفهم..

4
مباركة مورين

اجتمع الفرسان وشربوا الخمر الدافئ الممزوج بالماء المحلى بالعسل أمام المدفأة الجدارية العملاقة التي أمدها أحد الخدم بالقطع الكبيرة من الحطب قبل أن يخرج، رهبة من كل هذه الشخصيات الرزينة العبوسة والصامتة.

وقد تساءل الخادم بالطبع عن سبب دعوة الطفل ابن باينس للمشاركة في هذا الاجتماع. إلا أنه ودون شك لن يعرف السبب أبداً، سيكون ذلك موضوع نقاش لا نهاية له وطويل مع الخدم الآخرين.

يضع الكونت هوغ كأسه على الطاولة الكبيرة المصنوعة من السنديان ويربت بخفة على ظهر أخيه ويقول:

ـ هو ذا أخي فيليب الذي تحمل عناء السفر من أسقفية شالون، ليأتي ويخبرنا شيئاً هاماً.

ـ تقبلوا احتراماتنا يا سيدنا، يقول باينس.

يبتسم الإسقف مقترباً من باينس وينوه:

ـ بالأحرى علي أن أستحق احترامك، أيها الفارس. أعرف من أنتم، أخبرني هوغ بخصوصكم. أعرف كل شيء عنكم... كل شيء! حجتكم إلى القدس حيث تمكنتم من الدخول إلى قبر توما. اكتشاف الكفن مع العلامات الخمس التي تقاسمتموها.

وأعرف المعركة التي يخوضها ضدكم البابا وحراس الدم. والوفيات التي لحقت بكم..

يتدخل هوغ: فيليب هو حليفنا من داخل الكنيسة.

ـ أعرف أيضاً ما التزمتم القيام به على أراضيكم، يضيف الإسقف، لقد أعلمني هوغ أنكم تقومون بحفر قبر لـ .. لتوضع فيه رفاة سيدنا يسوع المسيح. هل العمل متقدم بشكل جيد؟

ـ أنت تدهشني يا سيدنا! يقول باينس بصوت عال.

فيليب يبدو متسلياً، يضيف وهو يضحك تقريباً:

ـ وبماذا أفاجئك؟ ألأنني أتكلم عن جثة المسيح؟ أليس صحيحاً أنه لم يمت على الصليب، وأنه عاش حياة طويلة، وترك أحفاداً وسلالة؟

ـ حقاً! يرد باينس. على أي قاعدة يرتكز إيمانك إن كنت تقر بأن أعجوبة القيامة لم تتم؟

ـ حقيقة أن يسوع لم يصلب لا تمنعه من تلقي النعمة الإلهية. وهل القداسة خاضعة فقط للإستشهاد؟

أعتقد بصدق أن سيدنا كان ابن الله.. لنقدم الشكر إلى السيد إلهنا، إنه قدير وعادل.

ـ آمينْ يقول جوفروا بنبرة كامدة عبوسة حاول الإسقف التظاهر بعدم كشفه لها.

يضيف فيليب:

ـ مثل كل البشر.. نعم كل البشر هم أبناء الله!

جوفروا يرفع صوته ليرد:

ـ هل ينتمي قتلة البابا إلى تلك العائلة، يا سيدنا؟

ـ جوفروا! يمنع باينس من الكلام بعد أن لاحظ أن صديقه تناول ثلاثة كؤوس من النبيذ دون توقف.

ـ دعه، يقول فيليب بدماثة. هذا الفارس يطلب مني أن أقدر درجة الأخوة التي تربط بين البشر.إنه لا ينصب لي فخاً وهو يطرح هذا السؤال. على الأقل، لن أعتبرها هكذا. أعرف للأسف أن الجنس البشري أولد أشخاصاً أشراراً لا يخافون غضب الله وهم يكذبون، يقتلون، يسلبون.. حتى أن البعض يقتلون ويذبحون وهم مستندين إلى خالقهم. لا تنسوا أنه في بداية الأزمنة، وبحسب التوراة، كان الأخوة يتذابحون من قبل..

ـ أنتم تتكلمون عن أبناء آدم وحواء، يقاطعه جوفروا. قابين قتل هابيل، الذي يحسده، والله وضع علامة في جبين قابين مثلما يفعل الرجل ذو الفأس على ضحاياه!

يضع فيليب يداً على كتف جوفروا.

ـ لم آتِ لأدعم فرضية لاهوتية أمامكم، مع أن هذه كانت تستحق التوقف عندها، يقول بصوت منخفض، كنت أريد أن أكلمكم عن قداسة البابا.

يغلق الرجال حلقتهم حول الإسقف. يشد باينس ابنه ليدخله في المجموعة.

يستمر فيليب بالقول:

ـ ما زال البابا مقيماً في ريمس. يتأخر في العودة إلى قصره، حيث يدير الكنيسة حالياً

نائبه المخلص، إلا أن الاهم في الأمر بالنسبة لكم أنه ذهب مرتين إلى دير متواضع في أسقفيتي، غير بعيد عن «شالون». زيارتان سريتان كانتا قد وصلتا إلى مسامعي.

يوضح الكونت هوغ:

ـ لديه سمع مرهف عندما يتعلق الأمر بالأسرار الصغيرة لرجال الدين!

ـ خاصة عندما تحيط هذه الأسرار بشخص الحبر الأعظم وعلى الأخص هذا الأخير يجهد في تمويه تنقله على أراضي المسيحيين في شامبانيا!

ومن ثم أخرج الإسقف فيليب ورقة من جلد العجل من تحت ممطفه وأضاف:

ـ لقد قمت بنفسي برسم خارطة للمنطقة لأظهر لكم أين يقع دير القديسة ـ مينهولد الذي أكلمكم عنه.

يفرش المخطوط على الطاولة، بين كؤوس النبيذ، وينكب الرجال معه على المخطط الذي يصفه:

ـ انظروا.. إنه هنا، على بعد أربعة فراسخ تقريباً إلى الشمال من قرية كورمو. قد يكون البابا قابل فيه مجهولاً، أواه رهبان الدير. إنه رجل غريب الأطوار، حسبما قيل لي، صامت غامض مثل الليل!

جوفروا يضرب بقبضته بقوة على الطاولة، مزعزعاً الكؤوس والأباريق ذات العروة.

ـ هل سيكون ممكناً أن. ...؟

ـ الرجل ذو الفأس قد يكون مختبئاً هنالك؟ يتساءل باينس بصوت عال.

ـ لم أقل هذا، أيها الفارس، يوضح الإسقف وهو ينتصب واقفاً، لقد تكلمت فقط عن موعدين سريين لقداسة البابا في داخل أسواره.

ـ هيّا يا فيليب، يمزح هوغ، الدقة ليست شيمتك ، لقد أعطيتنا معلومة رئيسية، اعترف أنك تفكر مثلنا؟

يحرك الإسقف رأسه الثقيل يمنة ويسرة، الحاجبان مقوستان، تعبير يشبه تعبير كلب بدين غاضب.

ـ نعم... أوافق دون شك، لكنني كنت أتمنى كثيراً بأن لا أخون قداسة البابا. هل أنتم مدركون موقفي؟ لا أشعر بالراحة عندما أضع ردفيّ بين مقعدين، فمن جهة، لا أقدر على الموافقة على أفعال الحبر الأعظم، ومن جهة أخرى، فأنا أبقى تحت سلطته. كلا. حتماً أشعر أنني ممزق وأتألم كثيراً من هذه الوضعية الغير المريحة.

ـ نحن نفهم ذلك، يعلن باينس، لذا نشكرك لقيامك بهذه الخطوة.

فيليب يهز رأسه مجدداً، أجفانه مطبقة ويقول:

ـ قد أكون مخطئاً.. بعد كل شيء قد يكون البابا باسكال يعرف احداً فـي ذلك الدير. أخٌ ما يريد أن يعترف له. روح تعرف كيف تسمع.

ـ رد الكونت:ماذا ستفعل بالمجهول الذي يأويه الرهبان؟

ـ علينا التحقق من أن هذه الشخصية الغامضة هي فعلاً المجرم قبل إصدار حكم، يوضح الإسقف.

ـ سنقوم بذلك، يقول باينس بصرامة. أؤكد لك أننا سنفعل ذلك دون تأخير، يا سيدنا. لن يذكر اسمك أبداً، لن يعرف البابا بمصدر هذه المعلومة.

ـ سأكون ممتناً لك، أيها الفارس.

ثم التفت الإسقف نحو مورين، وأمام الدهشة الكبيرة التي أصابت هذا الأخير، يركع أمامه قائلاً له:

ـ علي أن أنصرف، لكني، قبل ذلك، أرغب بالحصول على معروف من هذا الفتى الشاب: أنت مورين، أليس كذلك؟

ـ قال الطفل: أنا؟. ما الذي يمكنني فعله من أجلك؟

ـ ضع يدك على رأسي، يا صبي، باركني.

ـ أنا أباركك؟ لكنني لست معتاداً على هذا النوع من الأمور يا سيدنا. إنها مسألة لا أفقه فيها شيئاً..

ـ أطع، يا بني، برفق وحنان يأمر باينس، بارك سيدنا فيليب، كما يرجوك.

مد مورين يده اليمنى وهي ترتجف قليلاً، وضع راحته على جبهة الإسقف، متسائلاً كم من الوقت يجب إبقاؤها.

يقول الإسقف عندئذ:

ـ أنت المولود الأخير من دم يسوع. أنت ابن الإنسان من ناحية أبيك، وعبر أجدادك من قبل الله. وأقسم بدم المسيح، سيأتي يوم حيث الأخ سيتوقف عن قتل أخيه. حيث الإنسان سيحب الإنسان.. لنشكر الله.

يقف فيليب ويبتسم للطفل.

ـ شكراً يا مورين. لقد قدمت لي لتوك هدية رائعة. وبعد أن يقوم الإسقف بمعانقة كل واحد من الرجال المجتمعين فـي الغرفة، ينسحب بمشيته الثقيلة، منحنياً قليلاً، وذراعاه مسدلتان، مثل دب متعب.

الصمت.. صمت طويل، يتبادل الفرسان خلاله النظرات التي يحاول مورين شرحها. يفهم أنه هو، الطفل الذي بارك الإسقف، الذي هو فـي مركز أفكار الرجال الثلاثة.

فجأة يدوّي صوت جوفروا، الذي تنقصه الجرأة، وبنبرة متصنعة:

ـ حسناً. هل سينتهي هذا النهار في صمت الأموات هذا؟ بالله عليكم، لنشرب كرفاق. إلّي، أخوة شامبانيا! لنشرب نخب كل الذين نحبهم والذين نفتقدهم ونشتاق لهم!

هوغ وباينس ينضمان إلى النخب بتحفظ ويجبران نفسيهما على زيادة شرب النبيذ بينما جوفروا يفرغ كأسه الرابع بجرعة واحدة. جشأة قوية وقرقعة لسان تشيران إلى اللذة التي أخذها من هذه الكأس الدهاق الجديدة!

ليس لدى الكونت الإرادة في الابتسام كصديقه، في لحظة غير هذه، سيهزأ به، مقطباً وجنتيه الحمراوين، والأوعية الدموية القرمزية التي تخطط بياض عينيه، وعرق جبهته.

هوغ يعيد التفكير بما أعلمهم به أخاه. يعلن:

ـ أؤيد فكرة ذهابك إلى الدير الذي كلمنا عنه فيليب. سأستخدم صفتي ككونت،صاحب اقطاع الملك للدخول إليه والقيام بتحقيق.

ـ حقاً قلت! لنشرب نخب هذا أيضاً.

لكن باينس يمد ذراعه ويشد على قبضته بيده القوية كأنها داخل ملزمة.

ـ ما بك! يرد جوفروا.؟ أنت تسحق عظامي أيها الصديق!

ـ سأحطم رأسك إذا توجب الأمر، سكير! ألا ترى أنك تقدم المثل السيء لـ مورين؟ أتظن أنه من اللائق التصرف بهذه الطريقة في ظرف كهذا؟

ـ ماذا؟ ومنذ متى كان باينس يعطي دروساً في الأخلاق؟

ـ منذ أن فهمت أنك تقتل نفسك ببطء، يا أخي. لاحظت أنك تبالغ في الشرب أكثر من عادتك.

بدأ هذا منذ عودتنا من القدس. ألست محقاً؟

جوفروا يخفض أنفه مثل طفل صغير فوجئ متلبساً في خطأ.

ـ صحيح، أقر بذلك. أشرب أيضاً أكثر منذ الموت الأول الذي ألبسنا جميعاً الحداد. أجهل بأي سحر تتمكن به من قبول الحياة، يا باينس. لقد فقدت أخوين، زوجتك وابنتك.. مع ذلك أنت دائماً تتمتع بنفس الاندفاع والحماس، وهذا الإيمان المحيّر الذي يدفعك باستمرار إلى الأمام.. كيف تفعل هذا؟

أنا، في كل صباح، ما أن أنهض بعد ليلة سيئة من الكوابيس، أشكو وأتذمر من وجودي الذي سيأتي قاتل ليقطفه مثل تمرة نضجت وحان قطافها! ماذا تفعل أنت؟ ذلك الجزار اختطف منا أصدقاءنا وأفنى الجزء الأكبر من عائلتك! لقد مزق روحنا بقتله المقربين منا! أنا، أجد أن الحياة ستزداد جفافاً وجدباً دون باسيل، آرسيس تيفين، وإيميلين..

قال جوفروا هذه الكلمات الأخيرة وهو يجهش بالبكاء. إنها المرة الثانية التي يرى فيها مورين رجلاً يبكي. في السابق والده، والآن جوفروا، جوفروا المتين الصلب الذي تغلب على العديد من الخصوم خلال مبارزات عديدة بالفروسية حيث اشتهر ببسالته. جوفروا القوي الراسخ الرابط الجأش القادر على المضاربة بالحديد حتى الإنهاك ضد أشهر المتبارزين في شامبانيا.

يبكي، تهتز كتفاه بتقلصات قصيرة، تقريباً مضحكة.

باينس يتنهد. ويطلب منه:

- اذهب بسرعة وضع منشفة مبللة بالماء البارد على وجهك، وحاول تقيؤ كل النبيذ الذي يثقل معدتك قبل أن تعود إلينا. أتسمعني؟

يرفع جوفروا أنفه، دموع غزيرة تسيل على خديه البارزين.

- نعم، أنت محق يا باينس، قال ذلك متباكياً!

ينسحب جوفروا بخطوات مترددة، وتوازن حرج.

باينس ينتظر قليلاً قبل أن يقول:

- هل يعرف هذا الحيوان كم نحبه؟

5
الزيارة

يترجل المعلم لانديريك روجمورد وابنه عن دابتهما. لقد استغرقا زمناً طويلاً للعودة من غابة الشرق. الريح الحاملة لثلجها تجلدهما بسياطها طيلة الطريق، وترهقهما بزعيقها وبردها.

ـ لم أعد أشعر بساقي! يقول النجار وهو يحمحم ليُسقط الثلج عن فرو قبعته. سنحضر منقوعاً لذيذاً من الزعتر والزعرور والبيلسان والأسبيرولة ذات الرائحة الطيبة. وبناءً على ما أعتقد ايضاً لا بأس بجرعة معتدلة من النبيذ الحلو.

ـ ما رأيك في ذلك نيزيير؟

ـ اعتقد ذلك تماماً يا أبي.

ـ أرني يدك؟ هل ما زالت تتألم كثيراً؟ في هذه الحالة سأضيف حبات من الخشخاش بدلاً من النبيذ.

ـ لا أرى مانعاً من أن تضع الاثنين معاً! اللهم إلا إذا كنت تفضل ألا نعود إلى العمل فوراً؟

ـ مطلقاً. علي أولاً دراسة المخططات التي اوكلني إياها المعلم إيليفاس. سأذهب للبحث عن العمال الجيدين الذين لا يطلبون أكثر من البدء بالعمل. إنهم متوفرون بين كل أعضاء النقابة، سأكون متطلباً ولن أوظف سوى الأفضل ذلك لأن لي شهرة يجب أن أحافظ عليها!

أمسك روجمورد من جديد بلجام حصانه، الذي لم يرفع رأسه منذ أن شرع بالسير.

ـ تعال إذن، يصيح به النجار، تعال أيها العجوز، سوف أزينك كما تستحق!

فجأة تهب ريح عنيفة، سريعة، شيء ما يمر بعين روجمورد ونيزيير. ثم صدمة في خشب باب المصنع.

ـ حصاة من الشيطان! يقول روجمورد. من هو التافه الذي يعبث ليخيفنا؟

ـ انظر يا أبي، يشير نيزيير بيده المجروحة إلى البيت الذي دخلت فيه الفأس.

عندئذ انفجرت ضحكة قوية حادة. ما ان تعرفا على خيال الرجل الذي بتر اصبع نيزير ،حتى اخذ روجمورد ابنه وضمه اليه بحركة حماية غير محكمة.

يقفز القاتل من على صهوة جواده، وأخذ يسير كمادته ببطء،كما الهر ،ليستعيد سلاحه.

ـ قال له:ارأيت يا لاندريك ،كاد رأس ابنك ان يطيح به السلاح لولا بوصة واحدة !غير أن أوانه لم يحن بعد، هل لديك شيء تعلمني به؟

ـ حسناً، شيء قليل في حقيقة، يقول النجار وهو يخفي نيزيير تحت جهة معطفه الفضفاض.

ـ الحقيقة، حقاً.. هي ضمانة لحياة ابنك، لا أجرؤ على التصور أنك ستجازف بالكذب علي.

ـ هذا ليس في نيتي! لقد تلقيت مهمة من عاملين في الكنيسة الصغيرة التي سبق أن كلمتك عنها. كان هناك السيد هوغ دو باينس، الفارس جوفروا دوسانت ـ أومير والمهندس المعماري إيليفاس الذي طلب مني أخيراً، أن أجمع فرقة من النجارين خلال هذا الأسبوع وأبدأ في قطع الأخشاب حسب مخططات إيليفاس، من المحتمل، سيكون أمامي شهران من العمل. واتفقت أيضاً أن أسلم القطع المنتهية التي تخرج من مصنعي تدريجاً.

ـ حسناً، ابق مخلصاً وفياً لي، وهذا الطفل سيعيش. لا تنس أنني أجد بعض اللذة في قتل أولئك الذين يخونون ثقتي. سبق أن حصدت العديد من الأرواح لحساب الله.

ـ يمكنك الاعتماد على وفائي الصادق يا سيدي، قال المعلم روجمورد بصوت أجوف، سأنقل لك بصدق كبير كل المعلومات التي سأجمعها من غابة الشرق. لن يكون هناك ما تشكوه مني، لكن عليك فهم أنني لست سوى نجارٍ بسيط عادي وان الفرسان لن يضعونني في سرّ عملهم. كما سبق وأن قلت لك، إيليفاس يقود العمل الذي وُزع بعناية، حسب الأفضليات على ما فهمت، سيعملون دون أي تشاور.

ـ هؤلاء الشامبانيون الملاعين، خبثاء. ومع ذلك يلزمهم على الأقل مرافقون من ذوي الدراية لكي يجمعوا في لحظة بعينها جميع اجزاء ورشتهم.

ـ سوف يطلبون العون دون شك من رجال الكونت هوغ يا سيدي. يوجد منهم العديد في مكان العمل. حفارون وحراس.

ـ هل لديك فكرة عن ما يبنونه؟ يسأل القاتل وهو يمسك جبّة الصدر التي كاد الريح أن يفككها.

ـ مستحيل! لقد شيدوا سوراً كبيراً على الجزيرة، وبهذا الشكل يحمون عملهم. سأتمكن من معرفة طبيعة ذلك عندما سأدرس مخططات المعلم إيلفياس.

ـ القبر.. يهمس القاتل.

ـ عفواً، ماذا قلت يا سيدي؟

ـ كلا، لم أقل شيئاً.

يدور الرجل حول نفسه، ويتهيأ للعودة إلى جواده ثم يتوقف قليلاً ليقول من فوق كتفه:

ـ سأرسلك قريباً بزيارة جديدة يا روجمورد. قريباً! لا تنسى أن الخيط الذي يمسك بحياة ابنك في يدي .سأقطعه دون ندم عندما أرغب بذلك. احفظ في ذهنك هذا التهديد وستكون خادماً مخلصاً للقضية التي أدافع عنها.

ثم امتطى جواده وهمزه ليتقدم بضربة من عقبيه على خاصرتيه.

ما أن اختفى القاتل، حتى ابتعد نيزيير عن أبيه ليقول له:

ـ لقد جعلت نفسك كاذباً باليمين لتحميني!

ـ نعم، أنا جاحد مرتد.. لكن هذا الرجل هو الشيطان بعينه! ولقد تعاملت مع الشيطان، بعته روحي!

ـ ألا تعتقد انك ستكون بأمان أكبر فيما لو ابتعدت عنك لبعض الوقت؟ يمكنني الذهاب للسكن عند أختك في «لوفوا».

ـ كان سيعثر عليك يا ولدي، أنا متأكد من أنه سيجدك. إنه بحاجة لي أنا وأنا وحدي. أنت لست سوى عملة يلعب بها ليذلني ويخضعني. ذلك الرجل يشعر ظاهرياً بلذة شريرة في التسبب بالألم لجاره، سنربح في عدم إغضابه ومعارضته!

يفتح روجمورد الباب المطل على باحة الدار الصغيرة. الثلج الذي ضاعف من تساقطه يغطي من الآن كل الأرض. يقود النجار جواده إلى اصطبله وهو كئيب وقلبه خافق بألم في الصدر.

ـ اذهب وسخن قليلاً من الماء، يطلب من نيزيير، سأدلّك الحصان العجوز الملتهب الجلد بالقش والتحق بك.

يدخل الطفل إلى المنزل.

روجمورد يجمع حزمة من قش سيقان القمح ويبدأ في تدليك الحصان، يخرج البخار من جلده. «قبر، يفكر في نفسه، ماذا أراد القول؟ أي قبر كان سيتطلب كل هذه الأسرار. كل هذا العدد من الرجال في العمل من أجل قبر؟».

*
*   *

ـ قدوس، قدوس، قدوس، الله رب الجنود! يصرخ في الريح.

ـ قدوس، قدوس، قدوس، الله رب الجنود!

كان يصيح ويرتل، وقبعته مسدلة على رأسه ليصفع البرد عن وجهه. معتبراً أن كلاً من هذه اللسعات هي مداعبة من الله.

ـ قدوس، قدوس، قدوس، الله رب الجنود!

إنه وحيد في العالم. وحده مع ربه الغاضب الذي سيخدمه حتى النفس الأخير.

سيحصد الارواح أيضاً وأيضاً. فأسه القاطعة ستبتر اليد اليمنى لآخر فرسان شامبانيا الباقين. وسيجني هذا الحصاد من الأسرار التي أثارها قبر توما الدجال.

سيفكك بعدئذ ويسحق جثة المسيح التي سيذر غبارها في الريح.

وهكذا، سيكون كل ما كُتِب هو الحقيقة.

الحقيقة المقدسة التي لا يمكن مسّها والتي ستنتشر في القرون الآتية.

ـ تذكّر أيها الإنسان أنك من التراب وإلى التراب ستعود.

يمرر الرجل ذو الفأس اصبعه على ندبة الجرح الذي سببه له باسيل لوهارني وآثاره الباقية على خده.

يبتسم وهو يستذكر موت الفارس المضحك. «المصعص في الهواء، الأنف في الثلج، الظهر مشقوق وينفجر دماً!».

6
سلسلة الاتحاد

دعا هوغ دو باينس هيلين بالذهاب إلى بيت المؤن الذي تحوّل إلى مخبر للمشاركة في اجتماع بحضور الفرسان الشامبانيين، وموريـن والأستاذين فيرّير وشيلوميت.

بالنسبة لمورين الغرفة تشبه تماماً سابقتها حيث ضيوف أبيه كانوا يبقون معزولين أياماً كاملة قبل هجوم حراس الدم. من المقطرات والقارورات والأوعية ذاتها بالإضافة الى مقرأ للترتيل،وألواح من الأردواز المغطاة بالاشارات والأحرف والأرقام، كذلك النماذج ذات البنية المعقدة.. وأيضاً الستار الكبير الذي يقسم الغرفة إلى قسمين ويخفي كما في السابق سراً يحيّر الطفل.

باينس يفسح المجال للسيدة هيلين، التي تدخل إلى هذه الغرفة للمرة الأولى.

ـ ادخلي سيدتي، يصيح شيلوميت بلهجته المرحة.

ـ ادخلي ولا تعيري انتباهك للفوضى.

فيرّير يعد مقعداً من جلد العجل الذي يغطيه، ويدعو المرأة الشابة إلى الجلوس.

ـ لقد أحضرت شراباً منشطاً، يضيف فيرّير وهو يقصد أحد الأفران. يجب تقبل ما عودتنا عليه شامبانيا من فصول شتاء قاسية، لكن هل عشنا فصولاً طويلة بهذا الشكل؟ هل ستتمكن الطبيعة يوماً ما من إظهار البراعم؟

ـ أنت محق، تجيب هيلين بأدب وهي تتناول الكوب الساخن الذي قدّم لها.

ـ السيدة هيلين لم تأت لتلقي خطاباً على الارتباكات التي سببها هذا الفصل اللعين، يتذمر باينس بنفاذ صبر.

ـ لقد دعوناها لنثقفها حول موضوع الـ .I.N.R.I

ـ أكيد أن هذا ليس سوى مدخل إلى الموضوع يا باينس! يقول فيرّير وقد بدى عليه الانزعاج.

يتابع باينس مغيراً طوعاً نبرة صوته ليبدو أكثر تحبباً:

- اعذرني يا صديقي. أعرف أنني قد أكون رفيقاً قليل التسامح فـي هذه الأيام، فأيام الحداد قد خشنّت من طباعي.

- أنت معذور، يطمئنه فيرّير.

- ليكن، يتابع باينس. انت تعرفين جزءاً من معنى هذه الأحرف الأربعة، يا هيلين ، I.N.R.I. لقد اكتشفتها فـي صحيفة آرسيس.

- نعم تجيب هيلين. أنتم نزلتم فـي قبر توما، وفـي القدس. يسوع كان قد أقام فيه ثلاثة أيام وثلاثة ليالي. مأخوذاً بالوحي، رسم خمس إشارات على كفن أخيه.

I.N.R.I. ***Igne Natura Renovatur Integra*** هذه، ليست سوى واحدة من معاني صيغة يسوع. «بالنار، تتجدد الطبيعة تماماً. لكن I.N.R.I تترجم أيضاً بـ:الاسم الفائق الوصف هو بداية الأشياء». اسم الله ***Ineffabile Nomen Rerum Initium***

- فـي التقليد، اسم الله لا يلفظ، يضيف شيلوميت، ولا يكتب إلا تحت شكل عدد.

- إن هذا العدد هو مفتاح الخلود، يوضح الكونت. إنه هنا فـي هذه العلامات الخمس.. هي مجموع أو حصيلة كل ما كان، وكل ما هو كائن وكل ما سيكون!

- هذا العدد هو مفتاح التحول، يصرخ باينس وهو يتابع باهتمام هذه الأقوال يقترب مورين من الستار الذي يقسم الغرفة إلى قسمين. بالرغم من عتمة القماش، يميز الطفل هناك من ورائه وميضاً. نقطة ضوئية أصفر تمكنت من اختراق الثوب الخشن عبر بعض الحلقات المتوسعة.

الطفل كان يرغب فـي إزاحة الستار، يكفيه أن يمد ذراعه. وبضربة سريعة كان سيعرف.. أخيراً ما كان يخفيه أبوه وأصدقاؤه فـي الغرفة الثانية.

تلك الحرارة، ضوضاء الغليان الخفيفة خلف ظهره باينس يتكلم:

- الموت.. يسوع قهر الموت بمزج دمه بالمحلول الخيميائي الذي أوحي له به فـي قبر أخيه. دم أزلي! دم متجدد تلقائياً فـي بيت الله! «إيود» العنصر الخالق.. «نايين» المادة الأولى.. «رازيت» التبدل المستمر للخلق.. «إيود» من جديد، المبدأ الخالق الذي يعود له كل شيء.. I.N.R.I

ويوضح شيلوميت:

- كان الفقهاء العبرانيون يستخدمون كلمات أخرى: «جامايين» بمثابة الماء، «نور» بمعنى النار، «رواش» بالنسبة للعقل و«جاباشاه» بالنسبة للتراب. أي الملح، الكبريت، الزئبق والآزوت، أكسير الحياة!

الجميع يظهرون صمتاً طويلاً تصمم السيدة هيلين على قطعه:

ـ أيعني ذلك أن يسوع، الذي تخبؤون جثمانه هو... في حالة انتظار؟.. بانتظار قيامته؟

ـ نعم هذا هو المقصود، يؤكد الكونت هوغ.

ـ ولكن أنت يا باينس؟

ـ نعم؟

ـ أنت من سلالته! لأنني أتذكر الآن جملة أشبه بلغز من مذكرات المرحوم آرسيس: **ليكن مباركاً دم باينس وابنه مورين، عبرهم سيتابع يسوع اجتياز القرون!**

التفت مورين إلى والده. هذا الأخير يقابله بابتسامة ويقول:

ـ في حين، مورين وأنا لسنا سوى بشر موتى عاديين. جدي الكبير جرب على نفسه مبدأ I.N.R.I بعد أن أنجب أولاداً بزمن طويل. وأسس فيما بعد منظمة الأخوة الأوائل، التي أوكل إليها مهمة صيانة السر والسهر على رفاته.

ـ نحن ورثة معرفته الخيميائية، ينوّه الكونت.

حركة.. ليس على مورين سوى القيام بها بسرعة بينما يحيط الذين يكبرونه سناً بالسيدة هيلين، والتي تبدو بدورها مضطربة كثيراً لما سمعته...

يُبعد جزءاً من الستار ويلقي نظرة. بضعة ثوانٍ خلسة وبعيداً عن انتباه والده.. فقط بضع ثوان.

مورين يتصرف بحماس، يرى أفراناً ثقيلة من الفونت ومراجل تصهر فيها المعادن التي تصدر فقاعات حادة مذهبة ويد تسدل الستار بعنف:

ـ حتماً، سواء أكنا هنا في هذا المخبر أو في مخبر أبيك، فأنت تتصرف كفضولي لا يمكن تأديبه، يوبخه فيرّير. كل درس يأتي في وقته. وليس جيداً أن تحرق المراحل!

ـ ما رأيته هناك، يتلجلج الطفل.

ـ لقد رأيت قدوراً وسخانات ومراجل، هذا كل شيء!

ـ وسائل غريب في حالة غليان، يؤكد مورين بثقة. ذلك ما يشبه إلى حد الالتباس، الذهب.

ـ تعال يا مورين، يأمره باينس. ستعرف ذلك في أحد الأيام!يلتحق الطفل بوالده بأسف. يأخذ هذا الأخير يده اليمنى قائلاً:

ـ لنكوّن للحظة سلسلة الاتحاد. إذا كنت ترغبين بذلك يا سيدة هيلين، يمكنك الانضمام إلينا في ذكرى أخينا آرسيس، وإلا سأفهم أن قناعاتك وإيمانك يحثانك على الرفض.

هيلين تمد يديها، مبتسمة:

ـ أبداً، يا صديقي. هل تقبلوني في سلسلتكم؟ أنتم تتكلمون عن أخوة وحب وهذا يناسبني. وسيكون ذلك شرفاً لي أن أمسك يد واحد من أحفاد سيدنا يسوع المسيح..

عندئذ يدعوها باينس إلى الوقوف بينه والكونت، ثم، يتربط الجميع ويشرح:

ـ يسوع وتلامذته كانوا يفعلون هكذا في الماضي. الأخوة خلال القرون، رددوا الاحتفال الذي وضعه وأسسه المعلم الأول. وبهذه الطريقة سيستمر التقليد الذي ننقله لكي لا نفقده أبداً.

يتابع الكونت هوغ:

ـ نحن نتحد مع اللذين ماتوا من اجل قضيتنا لنتابع عملهم.

باينس بصوته القوي: ***Igne Natura Renovatur Integra***

ـ بالنار الطبيعة تتجدد تماماً. بالمثلث، المسدس، أوميغا، الصليب والتاو، بالجسد والروح الخالدة للمسيح، نقسم بالحفاظ وإلى الأبد على السر الكبير للعمل الكبير والضمير (الوعي) سيأتي من زواج النجمة مع المثلث في دائرته. وستولد الحياة من جديد من الوحدة المقسمة المشكلة لـ «التاو». الأحادي سيكون متعدداً وسيستعيد الروح. كل الرجال، مرتلين معاً:

ـ نقسم بـ I.N.R.I.

ـ لنقطع السلسلة، لكن لنبقيها سليمة في روحنا يرفعون ويخفضون أذرعتهم ثلاث مرات متتالية. هيلين وموربن يفعلان الشيء نفسه. ادارت المرأة الشابة رأسها لتخفي الدموع التي سالت على وجهها.

باينس، الذي لاحظ الأمر، يأخذها من الكتفين ويشدها إليه.

ـ ماذا دهاك يا سيدة هيلين؟

ـ هذه العبارة.. «نحن نتحد مع أموات قضيتنا لنتابع أعمالهم». لم أقو على منع نفسي من التفكير بموت آرسيس، بذراعه المبتورة، وفي ما كانت يدك تشد على يدي تصورت للحظة انه أقحم نفسه في هذه السلسلة، وقد جاء ليفهمني أنه سيحميني.. هل من المعقول إدراك تهيأتٍ كهذه، يا باينس؟

ـ بالعكس إنه لشعور سليم. يجهل جميعنا بأي طريقة تتصرف الأرواح بعد الحياة، قد يكون البعض منها، الأكثر حناناً والأكثر إخلاصاً من الأخريات، قد تجد الطريق لتأتي وتزورنا؟

ـ كنت أعتقد أن أرواح الموتى لم يكن لديها الخيار إلا بين أربع طرق: المطهر، الفردوس، الجحيم واليمبوس بالنسبة للأطفال المساكين الذين لم يعمدوا.

ـ هيا سيدة هيلين، هذا ليس سوى كلام الكنيسة.

ماذا تفعلين بذاكرة وأحلام الأحياء؟ هنا أيضاً، يجد أمواتنا ملاذاً دافئاً.

غشاوة تظلم نظر باينس للحظة ثم يتابع:

ـ تيفين وإيميلين أخذتا مكاناً في ذاكرتي. تستريحان فيها أفضل مما في أجمل الكنائس، تتكلمان معي مراراً، مستفيدتان من ظلام الليل، بينما ذهني يكون أقل انشغالاً بالأمور اليومية. بعد كل من زياراتهما، ما أن يأتي الصباح، أشعر بنفسي أكثر صفاءاً وحبي لهما يصبح أكثر رسوخاً.

ـ ألست تشعر بحقد حيال من سرقهما منك؟ سأل هيلين وهي تمسح وجهها بطرف كمها:

ـ كراهيتي تبقى دون تبدل، أؤكد لك، حقد سيجعل مني دون شك جزاراً خطراً عندما سأكون أمام ذلك القاتل! سأذبحه دون أي ذرة من الرحمة سأحوله إلى خرقة مغموسة بالدم! وإذا كان علي أن أبقر بطنه وأستخرج أحشائه، وأقطع أطرافه لأطفئ غليلي، فسأفعل ذلك، يا سيدة هيلين، أقسم أنني سأفعله! سمع مورين ذلك التفت نحو والده، وفوجئ إلى درجة الارتعاد مكتشفاً رجلاً آخر: وجه ممتقع، شائخ فجأة، عينان مفتوحتان كعيني ذئب، فكّان قاسيان وشفتان شاحبتان.

رأى الطفل لتوه شيطاناً. ثم، وفي الحال محى باينس عن وجهه هذا القناع الرهيب.

غير أن مورين ارتعد دون أن يتمكن من الوقوف. لقد ارتجف من حقد يشبه ما وصفه أبوه، إنه شعور مقزز، مع ذلك يهدئ من إرادته بالثأر. انفعال أسود وجليدي يجلب له اللذة التي لا يعرفها حتى الآن.

لو كان بمقدوره فعله، لو كان أكبر سناً مما هو عليه، فإنه سيبذل ما بوسعه لقتل الرجل ذي الفأس...

لم تتوقف أمه عن بث صراخ الرعب وهي تجري، تائهة في ظلمات كوابيسه.

7
كونستانس

قرر الفرسان الثلاثة الشامبانيون الذهاب صباح بعد غد إلى الدير الذي زاره البابا مرتين سراً. نصح باينس جوفروا دو سانت ـ أومير بأن يعود إلى محل إقامته. يمكن للحملة أن تنجح بفضل مجموعة رجال مسلحين من بيت الكونت.

دون تأفف، قبل جوفروا بالعرض وغادر قصر هوغ منذ الظهيرة، مخففاً عن أصدقائه.

ـ قال باينس: أفضل أن اعرف أنه في ملجأ في بيته الريفي من ان أراه في المعركة. لقد كان متأثراً جداً بكل الوفيات التي أحزنتنا، زيادة الخمر، الذي يتناوله بكثرة دون تخفيفه ببعض قطرات الماء، ينقص من ارتكاساته وردات فعله.

بعد مغادرة جوفروا، يطول النهار في هدوء القصر.. أمام المدفأة الجدارية الضخمة. الكونت يقرأ الشعر، فيرّير وشيلوميت يتكلمان عن مزايا بعض النباتات الطبية. هيلين تسترسل لحظات عديدة من السعادة قضتها مع آرسيس، باينس يشرح كيف يمكن تخفيف الألم عبر تحكم بسيط بالتنفس.. وموربن يصغي. إنه معجب بكل شيء. قوافي جميلة تتلى بصوت الكونت.

أسماء علمية للنباتات التي تنبت في مناطق بعيدة **أيسكولوس هيبوكاستاتوم، كاردووس، ماريا نوس، غاليفا أوقسينا ليس، رامنوس فرانغولا**. النار تفرقع، مالئة الجو برائحتها التي تأخذ بالرأس. تكاسل لذيذ استولى على الحضور عندما حضرت كونستانس زوجة الكونت لتلقي السلام بكثير من التحبب لكل واحد من المدعوين. إنها عائدة لتوها من إقامة طويلة في بروفانس حيث سهرت واعتنت بعمتها المحتضرة.

نادراً ما رأى مورين امرأة بهذا اللطف والهدوء. إنها تتكلم بصوت رخيم وبطيء راسمة بيديها الشاحبتين أشكالاً جميلة في الفراغ، مبتسمة بعينيها وشفتيها.

ـ أنت تدعى مورين، تقول له، أليس كذلك؟

- نعم يا سيدتي.

تنظر إليه مطولاً وبحنان.

- تكرر: لقد حدثني زوجي عنك يا مورين وشرح لي لماذا نحن نستضيفكم عندنا، أنت وأصدقاؤك. دون شك لقد قال لك أنه بمقدورك البقاء عندنا قدر ما ترغب، ستتقاسم مع أطفالنا تعليمهم وألعابهم.

- أشكرك يا سيدتي، يجيب الولد. مازلت أجهل ما قرره أبي.

كونستانس تلتفت نحو باينس:

- لقد تقابلنا بضع مرات، أيها الفارس، كما تفاهمنا، وتمكنت من تقدير روحك المحسنة والنبيلة، أنا متأكدة أنك مهتم بابنك بكثير من الذكاء، لكنني أجدد وأكرر عرضي فيما لو تمناه، يمكنه الإقامة في هذا القصر.

- أنت امرأة طيبة القلب يجيبها باينس. سأفكر في اقتراحك، من الواضح أن مورين ببقائه إلى جانبي سيشكو أحياناً من الوحدة. أنا في أغلب الأحيان رجل عبوس، وتصرفاتي القاسية الفجائية لا تتناسب دائماً مع طفل في سنه. أمه وأخته كانتا تجلبان له الرفق والعطف اللذين ينقصانه عندما يكون تحت وصايتي فقط. في كل الأحوال هناك رباط جديد يربط أحدنا بالآخر: إنه الأسى! نعم يا سيدة كونستانس.

الحزن هو رباط غريب يشد أولئك الذين فقدوا الأهل إلى بعضهم.

كونستانس، تهز برأسها، مشيرة أنها تدرك ذلك وتضيف:

- ليكن، سترى يا باينس، سترى مع مرور الزمن. ليكن في علمك فقط أن بابنا سيكون دائماً مفتوحاً لاستقبال مورين، في أي لحظة!

أجاب باينس منحنياً:

- إنها هنا للفتة جميلة وكريمة.

فيما بعد تدعو كونستانس ضيوف زوجها لمرافقتها إلى غرفة الولائم.

يتدبر باينس أمره ليبقى قليلاً في المؤخرة مع الكونت بطريقة يسأله فيها باحتشام:

- متى كلمت زوجتك عن مورين؟ هل كلمتها بحق عن أي دم منحدر؟

- كلا يا باينس. كنت أظن أنه من غير المفيد أن تكلمها عن ذلك، يكفي أن تعرف ذلك السيدة هيلين فقط.

- لقد أقسمت لنا هذه الأخيرة بأن لا تكشف هذا السر إلى أي شخص، وأراهن أنها ستفي بقسمها بعد خيانة الكاهن الذي عرّفها، تلك المغامرة هزت بما يكفي كيانها ولن تجرؤ على تكرارها.

ـ لا يمنع أنني سأشعر بارتياح أكبر عندما نكون قد وضعنا قسماً من «الأول» في قبره ونتخلص من الرجل ذي الفأس القاطعة.

ـ سنقلب دير سانت ـ مينهولد رأساً على عقب إذا توجب الأمر وسنعثر عليه.

هوغ يتنهد وهو يأخذ بذراع صديقه.

ـ لست ساحراً مثلك، مدفوعاً بكل هذا التصميم يا باينس. في هذه الأسابيع الأخيرة، راودني الشك مراراً بأني سأفضل خوض معركة ضد جيش من البرابرة بدلاً من مطاردة هذا العدو، هذا الظل..

ـ لا، ليس أنت يا هوغ! أنت لن تحني ظهرك ولن تخفض رأسك أمام هذا العائق! ما الذي سيبقى من أخويتنا بعد ذلك؟ اثنان من إخوتنا يرقدون تحت التراب، جوفروا يهلك نفسه بتناول الكحول، وأنت تخلط بين قاتل عادي وشبح!.

يدخل الرجلان غرفة المائدة. كونستانس تنادي زوجها بنبرة عتابية:

ـ لكل شيء وقته يا هوغ. هناك وقت للتوفيق، وآخر لتشريف الضيوف ومن خلال قيادتهم إلى مائدة الصداقة.

ـ اعذريني يا زوجتي العزيزة.

الكونت يتصنع الابتسامة، يضرب ثلاث مرات بيديه ويرجو أن يأخذ كل واحد مكانه.

كونستانس لا تفارقه بنظرها. التعبير الذي تقرؤه على وجهه يكدرها داخلياً. لا أحد، وهو يراها، يمكنه مع ذلك تصور أن بلعومها مشدود وقلبها معصور.

«رحلته إلى القدس جعلته يشيخ بمدار عشر سنوات! أين ذهب هوغ الذي أعرفه؟ من سرقه مني؟» كانت ستفضل البكاء.

غير أنها تبتسم للجميع، تبتسم، محادثة يميناً ويساراً، منتبهة، سائلة، متفاعلة، تحني رأسها تنصت بانتباه، تندهش فاتحة عينيها، تتقبل، توافق، تلبي، لاترفض أبداً.

ثم، صدفة يتقاطع نظرها مع نظر مورين، الذي يتأملها بقوة لدرجة أنها تشعر به جسدياً.

الطفل يبدو وكأنه يقول لها أنه فهم، أنه عرف همّها. وأنه يعرف أنها تكبت ذلك، غالقة عليه خلف قناع من الكياسة الذي يحرقها أكثر مما تفعله جمرة فتية.

8
استيقاظ جوفروا

فـي اليوم التالي، فـي الصباح الباكر، غادر باينس والكونت هوغ على رأس جيش من عشرة رجال، القصر ليستقلوا الطريق بالرغم من عاصفة الثلج القوية.

في اللحظة نفسها، استيقظ جوفروا سانت أومير فـي غرفته، إنها غرفة واسعة واقعة فـي طابق من البرج الوحيد التابع لحصنه.

يجد الفارس صعوبة فـي مغادرة السرير الذي برّده الليل، كليتاه تؤلمانه، كبده يذكره أنه فـي العشية، عند عودته من ترويس، أفرغ ثلاثة أو أربعة كؤوس من النبيذ من كرومه الخاصة. نبيذ حادّ له، نكهة خاصة، فيه حموضة أرضه، وقوة الكلس، وعطر الخشب الرطب.

يجلس، كمرحلة أولى قبل أن يتمكن من الوقوف، يبقى للحظة طويلة على حافة سريره، حافراً بوزنه لحاف الريش الضخم.

هنا، النفس القصير نتيجة قيامه بهذا الجهد البسيط، يستعيد اتصاله مع الواقع وببطء شديد، يجول بعينيه فـي الغرفة، معيداً بناءها ذهنياً ليفرض وجودها المادي على ذهنه المشوش. المدخنة ودلوٌ معلّق على كلابة، جمرات مشرفة على الانطفاء مثل حجارة من الماس فـي علبة رمادية. منضدة مستديرة حديدية الزوايا،مزينة بحذاقة نجّار. مقعدان صغيران ذات ثلاث قوائم، لوحة صغيرة معلقة على جدار تحمل طبقاً يحتوي على قطعة لحم عائمة فـي صلصتها وقطعة كبيرة من الخبز. رفوف تتقوس تحت ثقل رزم (لفائف) أوراق القضيم، والكتب وأكداس من الأوراق، ودرقة معلقة بالقرب من النافذة، شريطان عامودیان أحمر وأزرق يمران تحت صورة بجع، رمز المسيح، مغسلة للصحون مصنوعة من الحجر، إبريق مليء بالماء، ثياب معلقة على مشجب. بعض القش والأعشاب اليابسة على الأرض تصنع لوحة...

ينهض. الخشب يصفق تحت أقدامهم. يعرف عندها أن أحدهم سيطرق على بابه قريباً

إنه جيرارد الذي ينام فـي الطابق السفلي ولا ينتظر سوى هذه الإشارة ليصعد ويحضر ما يلزم لزينة سيده الصباحية.

جوفروا يتنهد، متأسفاً كون الربيع لم يأت بعد. لقد سجّل اسمه فـي بعض المنافسات التي كانت ستحرر ذهنه المشوش والمعذب منذ الآن.

عندما تكون الأسلحة فـي اليد، لا تفكر أبداً بهذه الأشياء التي تثقل النفس وتتثبت فيها مثل القراد على جسم الكلاب! أحدهم يقرع الباب بهدوء، خربشات مخالب فأرة.

ـ ادخل يا جيرارد! يصيح جوفروا وهو يشد أسفل قميصه.

الرجل المسن الذي يدخل الغرفة نحيل الجسم ضعيف، أعجر بشرته ملونة، بأوتار قاسية، وعظام مبرومة. أيديه مرقّشة بخطوط صغيرة من الأزهار السمراء، عنقه ناحلٌ، شعر نادر قليل على شكل نسائل تنسدل على الكتفين، عينان مستديرتان فـي حجريهما المظلم.

ـ خطوات صغيرة لا تكاد تسمع فـي أكوام القش والعشب، يشير إلى الصحن والخبز.

ـ لم تأكل شيئاً من عشائك يا سيدي! على الأقل ألن تتناول الطعام هذا الصباح؟ يجب أن لا نستقبل يومنا البارد بمعدة فارغة!

ـ لست جائعاً يا جيرارد، بل أشعر بالعطش، يأسف الخادم لحالة سيده، يهز رأسه الذي يشبه رأس الغراب مقطباً وجهه متذمراً.

ـ أنت لست عاقلاً. هل نظرت إلى نفسك؟ بياض عينيك أكثر صفرة من الصوص، بقع حمراء على الوجنتين وعروق سوداء قبيحة المنظر فـي الصدغين!

ـ كيف حالك أيها الصديق!يتعجب جوفروا ضاحكاً. لن يُسمح لك على الإطلاق أن تتكلم بهذه الطريقة مع أبي.

ـ ذلك لأن أبيك لم يكن يشرب مثلك، حتى أنني أتذكر، عندما فقد أمك، فضّل معالجة حزنه بالصيام والصلوات!

استمر على هذا المنوال طيلة عام! عام يا سيدي! لم يكن ينتظر صلوات الفجر لكي يذهب إلى الكنيسة ويتناول القربان المقدس.

نعم يا له من مثل جيد ذلك الرجل!

ـ أعرف يا جيرارد، كنت عندها طفلاً، لكنني لم أنس شيئاً. بالمقابل، تبدو أنك تنسى أو تتغاضى أننا فـي نفس الوقت فقدنا أختي الصغيرة. كل أهالي شامبانيا دفنوا ثلث عائلا تهم. كانت الجثث تُحرق أحياناً لكي لا ينتشر المرض أبداً.

ـ كان ذلك دون شك الطاعون. أما أختك، فإنني لم أمحها من ذاكرتي، لكنها لم تكن قد

بلغت الثانية من عمرها، وقد ذهبت إلى السماء دون خطيئة، نقية تماماً، مثل عصفور صغير. يا سيدي الراشدون لا يملكون هذا الحظ...عندما يدعوهم الله إليه ستكون بطونهم وقلوبهم مليئة بالخطايا الصغيرة أو الكبيرة. وهذا ما يثقلهم ويمنعهم من الطيران. عديدون أولئك الذين يسقطون مثل الحجارة في فم الجحيم.

ـ هزّ جوفروا كتفاه وقال:

ـ أنت لست سوى أحمق يا جيرارد! لست إلا ساق عجوز يهذي!

ـ ليكن كذلك! على الأقل فأنا لن أموت وأنا سكير!

ـ ستموت وأنت حيوان حكيم، تنقُد دائماً بكلام من هم مثلك!

ـ في الواقع، هذا صحيح. إنني أنقر بالفعل نقاط ضعفك. والله يشهد أن لديك منها الكثير يا سيدي!

جوفروا يفتح مصراعي النافذة الخشبيين اللذين تصدر مفاصلهما صريراً حاداً. قليل من البرودة والطراوة يتسرب عبر زجاج النافذة السميك إلى الغرفة فيطفئ سكرته. ثم يلتفت نحو خادمه:

ـ لا تقل «سيدي» بشتى الطرق في حين أنك حللت مكان أبي عندما شنق نفسه..

ـ لا تتكلم عن ذلك الحدث المريع. سبق أن طلبت منك أن لا تذكر ذلك، هل نسيت؟ سبق أن قلت لك أنني سوف لن أبقى في خدمتكم إلا بشرط وحيد هو أن نمنع أنفسنا من الكلام عن المأساة، كنت أحب والدك كابن لي ولم استسلم ابداً لموته .

ـ اعذرني يا جيرارد. قد تكون هذه اللحظة هي ما يدفعني إلى الكآبة، لكنني أقر أنه بالنسبة لرجل معجون بالمبادئ الدينية، فإن الانتحار لا يتوافق مع التعليم الذي ينشره كهنتنا العلماء. تعتقد إلى أين تذهب روح والدي؟

يسكب الخادم محتوى إبريق الماء في دلو المدخنة وهو يهمهم.

ـ ويوصيه قائلاً:يجب أن تغتسل جيداً، ثم ترتدي ثيابك، وتهبط إلى غرفة الخدمة وتطلب ملء صحن من نقيع الحبوب الساخنة من إيلواز وتأكل لب خبز الشيلم مع قليل من العسل.. ثم، سيكون من الأفضل لك يا سيدي أن تركب جوادك الحرون لتعلمه كيف يطيعك أثناء النزهة المنعشة حول المستنقع، وسيكون التمرين مفيداً لك وله معا.

ـ أشكرك لاهتمامك، لكن ستلزمني طاقة ليست لدي لأطيعك، يشكو جوفروا وهو يلهو بخاتمه.

ـ حسناً، أجبر نفسك، أحلفك بالقديس يوحنا! مشمراً عن مرفقه الأيسر ليضعه في الحوض للتحقق من حرارة الماء، ويضيف الرجل العجوز:

ـ أوصي بحمام بالماء الفاتر، هذا الصباح! ليس حاراً جداً وليس بارداً جداً.. دمك بحاجة إلى التقوية. عاد جوفروا إلى النافذة. ينظر إلى المستنقع المتجمد الذي يمتد عند أسفل البرج، قارب صغير عالق فـي الجليد. أشجار الصفصاف منحنية منذ عشرات السنين بسبب رياح الشمال.

فـي الماضي كان يستخدم القارب للصيد، ومنذ الآن سيتعفن فـي الصيف كما فـي الشتاء، وسيموت ببطء مثل فارس شاب.

*

* *

غادر جند كونت شامباني قرية كورمو تاركين وراءهم بضع منازل ومزرعة كبيرة يغطيها الثلج. للوصول إلى دير القديسة مينيهولد، وقد توجب على الرجال الثمانية سلوك طريق محصورة بين هضبتين مرتفعتين، عابرين غابة من الصنوبر.

ـ يترجل الفرسان. هوغ يذهب ليسحب السلسلة التي تشغل جرس الإنذار، الذي يصدر بعض الأصوات الحادة.

قريباً يفتح باب الدير ، ويظهر خلف شبكه وجه شاحب لكاهن بشرته رمادية، يأمره الزائر على الفور:

ـ ليذهب أحدهم للبحث عن الكاهن رئيس الدير، وليخبره أن كونت ترويس وشامباني يطلبه فـي الحال.

ـ طبعاً، طبعاً.. يتلجلج البواب مرتبكاً. سأذهب فوراً.

يمضي وقت قليل قبل أن ينفتح الباب. كاهن قصير القامة، قلق الوجه يرافق البواب ويحيي الرجال المسلحين باحترام واضعاً يده على صدره.

ـ سيدي، ماذا يلزمني فعله؟

جاء جواب هوغ، جافاً وقاسياً:

ـ ليس لدي ما يكفي من الوقت، هل تأوون زائراً فـي هذا الدير؟

ـ الواقع، بعض الحجاج يتوقفون فعلاً لـ..

ـ لا أكلمك عن الحجاج، بل عن ضيف خاص منفعته الكبرى أن يختبئ. هل من الضروري أن أفتش الدير من الأرض حتى الهيكل؟

يحرك رئيس الدير شفتيه ويقول:

ـ ليس من الضروري يا سيدي! تفضلوا واتبعوني. يبقى حارسان مع الجياد، بينما الآخرون يسيرون خلف الكونت وباينس. يدخلون الدير، يعبر رئيس الدير بصحبتهم الباحة ويقودهم إلى غرفة المؤن.

ـ أجهل كل شيء عن ذلك الرجل، يشرح بصوت مرتبك، عدا أنه يقوم بإماتة جسده العاري فـي البرد وهو يطبق عليه أعمال ندم مؤلمة. لم أر قط مؤمناً يضرب نفسه بهذا الشكل. يبدو لي أن التعذيب لا يمنحك مرتبة القديس، والمطلوب بدل ذلك التصرف بكرم مع قريبك لتصل إلى النقاء والطهارة.

وقف أمام أحد الأبواب وقال:

ـ هذه هي غرفته. لقد حولنا هذا الهراء الصغير إلى غرفة لنستقبل فيها الحجاج الذين يطلبون المبيت والغطاء. لو أردتم ألقوا نظرة.. الرجل كان قد غادر منذ قليل.

ـ لقد غادر منذ كم من الوقت؟

ـ جاء ثلاثة فرسان يبحثون عنه قبل وصولكم بقليل.

يدخل هوغ وباينس إلى غرفة دون أي أثاث. جدرانها مطلية بالكلس دون عناية يوجد فيها كرسي صغير وصندوق وصليب معلق إلى الجدار.

الأرض مغطاة بقش جاف تختلط فيه رائحة الرطوبة كما البول.

يرفع باينس غطاء المنضدة ويقول:

ـ فقط صرة ثياب و خرج..الثياب فقط!

بقي رئيس الدير على عتبة الغرفة وهو غير مرتاح بالتأكيد، ويراقب الرجلين. خجل من وجود الكونت يفتش الفرش بنفسه كما يفعل خادم عادي.

ـ لا شيء! يقول باينس بأسف، قد نكون أخطأنا..

ـ كلا، يقاطعه هوغ، أنظر ماذا وجدت فـي علبة مخبأة فـي سريره.

فـي الخارج، اقترب الحراس من الباب.

ـ سيدي! يقول باينس بصوت عال وهو ينظر إلى القضيم الذي ناوله إياه الكونت.

لقد كتب على ورقة القضيم بالأحمر أسماء آرسيس دوبريين، باسيل لوهارني، جوفروا دوسانت ـ أومير، هوغ دوشامباني وهيلين دوبريين. إلى جانب كل اسم وضع رقم وصليب: 1 لآرسيس، 2 عند اسم باسيل، 3 عند اسم جوفروا..

ـ القائمة الحمراء! يهمس باينس. القائمة التي اعترف بها الكاهن الذي اعترفت عنده هيلين قبل وفاته.

ـ أسماء أخوتنا آرسيس وباسيل شطبت، يدمدم الكونت. الرجل ذو الفأس يسجل حساباته مثل البقال!

ـ لقد قرر الوغد قتلنا حسب تسلسل محدد، يقول باينس، وأخونا جوفروا يأتي فـي

المرتبة الثالثة! يخرج الرجلان من الغرفة. وعند مرورهما أمام رئيس الدير يتوقف الكونت، يمسك به من ياقته وهو يصرخ فـي وجهه:

ـ أنتم تأوون مجرماً!

يحاول الكاهن أن يبرئ نفسه خلف صكيك عصبي لأسنانه:

ـ لا أفهم.. هذا الرجل طلب مني الاهتمام و... فـي نهاية الأمر، أنا...

ـ لا تتكلم كثيراً، أيها الكاهن، لا أحتمل صوتك. أعرف من يرأس ضيفك، لكني سأشويك بالرغم من ذلك فيما لو حصل مكروه لأحد من أصدقائي.

الأب رئيس الدير على وشك البكاء. صوته ليس إلا شكوى وأنين.

ـ قلت لك.. لا أفهم شيئاً فـي كل هذه القضايا!

بعد قليل، يستأنف الفرسان الثمانية سيرهم. بينما باينس يقود جواده الذي يعدو ببطء بين الحفر المليئة بالثلج، كأفخاخ حقيقية بالنسبة لعرقوب الجياد، ويحاول أن يرى وأن يتنبئ الأحداث التي ينسجها المستقبل...

ينقل ذهنه بعيداً إلى الأمام. نحو حصن ذات الأشكال الضخمة، برج يطل على مستنقع متجمد، قارب حبيس فـي الجليد.

نحو جوفروا دوسانت ـ أومير، صديقه.

9
الصعود

الرجل، روبرت لوروي يقفز من قدم إلى آخر، يرغي ويزبد من البرد الذي دخل نخاعه الشوكي، والثلج الذي بلل كتفيه وظهره.

يضرب جانباه بصفعات قوية ليعيد الحياة إلى جسده الذي خدّره الانتظار الطويل. صحيح أنه استظل تحت شجرة صفصاف معمرة بعيداً عن الريح، متدثراً في فرو كثيف، غير أن هذا لم يكن كافياً ليقيه شر البرد.

إنه يرتجف الآن مثل حصان عجوز يشتعل من الحمى، لم يتوقف عن تكرار ما في داخله، إنه سيموت قريباً. هذا مؤكد، أقسم بالله!

ـ أنفي قاسٍ ومتجمد كالخشب تماماً.

وصل إلى حد أن يسأل نفسه إذا كان عليه أن يوكل روحه إلى الله.

لقد كان سيء الأفعال منذ شبابه عندما كان يسمع صهيلاً.

ـ يتلو الكلمات الأولى بصلاة قصيرة بائسة تأتي من شفتيه، صاغياً إلى الريح.

يسمع صهيلاً آخر حملته الرياح عن يمينه.

«حسناً، ها هم أخيراً، اعتقدت لوهلة أنني جمدت دمي عبثاً، حتى البراز الذي أخرجته يشبه قطعة من الجليد!»

يرى من بعيد أربعة فرسان يمتطون جياداً يخرج منها البخار. يتعرف، على فارس المقدمة، شبح السيد الذي يستخدمهم والذي لا يُذكر.

هذا يدفع للاعتقاد أن الشخص لم يكن قد عمّد. كلما أسرعنا الانتهاء من عملنا سيخرج هذا اللص بسرعة من حياتنا. لن آسف عليه، بكل تأكيد.

يقفز الرجل ذو الفأس من على حصانه.

ـ أصغ إليك، يا روبرت

ـ من عادة الفارس البقاء في شقته في أعلى البرج. الحركة قليلة في هذا المنزل الصغير! لديه خادم عجوز فقط وطباخ في خدمته. على مدار الأسبوع كنت أحضر كل يوم، كما أمرتني به يا سيدي. قمت أيضاً بطرح الأسئلة على أهل القرية. جوفروا دو سانت ـ أومير لا ثراء ولازوجة، يعيش كناسك منذ عودته من القدس. لا يغادر حصنه إلا نادراً.

الفرسان الثلاثة الآخرون يترجلون عن جيادهم وهم يقتربون من الرجل.

ـ إنه يشبه عش النسر حقاً! يقول بصوت عال أحد حراس الدم. كيف يمكن الدخول إلى هذا البرج؟

ـ عبر هذه النافذة، في الأعلى، يجيب الرجل ذو الفأس. أعتقد أن القدرة على بلوغه ليست بالأمر الصعب، لقد قمت بحركات بهلوانية أخطر بكثير.

ـ سيدي، يقول روي، هذا البرج عال جداً.

القاتل لا يجيب، يمشي إلى المستنقع المتجمد حيث يتقدم بسهولة وببطء وثقة.

ـ في النهاية يقول، روي، هذا الأمر ليس من مسؤوليتي، معلمنا كان قد هُجِنّ مع قطة في بطن أمه الساحرة، لكنه الآن يهاجم قطة قاسية! هناك خطر في أن يكسر ظهره. سيكون ذلك خسارة بالنسبة لنا، لأنه يقوم بدفع مستحقاتنا حتى الساعة.

ـ هل تريد المراهنة، يا روبرت؟ يقترح عليه واحد من رفاقه.

ـ كلاّ يكفي أن أراهن ضده كي يأتي الشيطان ويدفعه إلى الهاوية ويرميه من الأعلى أسرع من الصقر!

*
*   *

وصل الرجل ذو الفأس إلى الضفة المقابلة عند أسفل البرج. قدّر علوه بدقة طيلة الزمن الذي استغرقه عبوره للمستنقع، مكرراً ذهنياً زمن الصعود الواجب عليه الآن أن يقوم به.

حجارة كبيرة بارزة ستساعده كنقط ارتكاز، وعندما تكون غير موجودة، يقوم بحفر فتحات في الطينة مستعيناً بفأسه أو سكينه.

بثقة كبيرة بنفسه، بدأ يتسلق الجدار.

الحجر بارد جداً، قفازاه من جلد الجدي تلتصق به دون صعوبة كبيرة.

*
*   *

كان جوفروا دو سانت ـ أومير وحيداً في غرفته. لم ينزل لتناول الغذاء مثلما نصحه

جيرارد. لقد فضل تناول كأس من النبيذ بجرعات صغيرة ليطرّي به بلعومه ومعدته.

يعيد التفكير بالبئر الذي أمر إيليفاس بحفره وسط غابة الشرق على أراضي باينس. هذه الهوة التي لم يجرؤ على النزول فيها خوفاً أن تنغلق عليه. ذلك الثقب المظلم.

مع ذلك يلزمه أن يستهلك ما يكفي من الشجاعة كي يرافق جثمان «الأول» عندما سيضعه الإخوة في قبره النهائي.

قريباً دون شك، في الأيام الجميلة، كما يروق لـ إيليفاس القول، أن تنظيم الأعمال مُرضٍ. العمل في الورشة يتقدم سريعاً!

المهندس المعماري ذو طباع حسنة، وتبدو المصائب وكأنها تنزلق على جلده العجوز مثل الماء على صخرة. ليس لأنه لا يحس بالمشاعر، بل على العكس، فليس له مثيل في مواساة وإراحة الصديق في المحنة، بصوته الخشن الأجش. إنه لا يشفق على ذاته، مؤكداً أن ذلك لا يستحق الجهد، لذلك فهو ينسى بسرعة سنّه، والآلام التي ترافقه، والموت الذي بدأ يظهر على وجهه البشع وليالي السهاد.

جوفروا يأسف بأنه لا يملك حتى جزءاً من ألف من فلسفة إيليفاس، الذي لم تستطع الأوقات العصيبة على تدميره:

زوجة توفيت في السابعة والعشرين من عمرها بسبب سعال خبيث جعلها تبصق الدم كل صباح لمدة تزيد عن ستة أشهر. وابنة غيبها الموت في سن الخامسة عشرة بسبب حمى لم يتمكن علم فيرّير وشيلوميت اللذين كان يعاشرهما ـ من كبحها. صبي في سن التاسعة دهسته عربة عانى بعدها أسبوعين ثم فارق بعدهما الحياة، ومعظم عظامه مكسّرة. يقول الجيران في تلك الحقبة أن إيليفاس، لم يتمكن من تحمل رؤية ابنه يقاسي الألم الشديد، قام بمساعدته ليسلم الروح بخنقه مستعيناً بخرقة ثياب مبللة أدخلها في بلعومه.

«التعاسة، كما يقول دائماً، هي في الرمل الأسود القبيح الذي يستعمله الرجل كمادة أولية لإتمام تحوله الشخصي. طبعاً، سوف لن يصبح أبداً ذهباً نقياً. مع ذلك، يشارك في العمل الذي سيؤدي إلى النور! عقلنا هو سرداب نحفظ فيه موتانا. ذاكرتنا مقبرة مزهرة ومشرقة».

أما جوفروا، ذلك الإنسان الفظ الدحداح، الدب الخالي من اللطافة، مع أنه يملك قلباً دافئاً ونفساً سخية، فهو لم يتوصل أبداً إلى التحكم بالأشباح التي تلازمه.

مقعد، مرهق، ومقتول. كما يفعل ذلك كل المحاربين بقناعة صافية. الجنود، الحقيرون والأندال الآخرون الذين ذبحهم بحد سيفه التحقوا كلهم بذكرياته فلا يشوشون أبداً لياليه. ليس هم. بل الآخرون.. الأخوة، الأصدقاء، تيفين، إيميلين.. نعم هؤلاء الضحايا البريئة الذين يثقلون قلبه..

لقد أنهى كأسه.ويريد أن يملأه من جديد. يشعر بقليل من الدوار. مع ذلك ينهض، الساقان ثقيلتان ومرتجفتان.

*

* *

ـ أترى، روبرت، لو راهنت لكنت قد فقدت رهانك!

ـ لم يبقَ لسيدنا سوى بعض الأذرع البائسة كي يصل إلى نافذة بناء سانت ـ أومير، على ما أرجح.

ـ لن يبقى له سوى القيام بحركة بسيطة حتى يضع القدم على حافتها.

ـ هاه.. لايمنع أن المبادرة لن تكون منتهية، مع ذلك سيكون عليه التمسك في إطار الباب، كما تفعل العنكبوت إذا كان لا يريد الانزلاق على طبقة من الثلج المتراكم على الحافة.

ـ يا لها من أعجوبة تستحق التأمل! انظر إليه.. يرفع نفسه بقوة ذراعيه فقط لبلوغ المعينة. وها هو! الوحش سيقفز إلى شقة الشامباني وينتزع يده اليمنى بضربة مخلب!

10
السقوط

جوفروا يرى الشبح الكبير الداكن واقفاً خلف الزجاج ولايفهم ذلك، ذهنه المشوش بفعل الكحول يجعله يتأخر عن إدراك ما يتهدده.

فهو لم يعِ ما يحدث إلا عندما تحطم الزجاج والخشب قطعاً متناثرة تحت تأثير ضربة فأس. حتى أنه شعر ببعض المتعة بفعل ذلك.

- باسم القديس يوحنا، الوجه الظليل! جزار البابا..

دخل الرجل فجأة الغرفة. وبقفزة واحدة وصل واقفاً على بعد ثلاث خطوات من الفارس، سلاحه في طرف ذراعه مستعداً للضرب.

جوفروا يتجنب الضربة بواسطة طاولة صغيرة حطمتها الفأس، يدخل فوراً وسط المعركة. منقضاً على خصمه بكل عضلاته القصيرة والطويلة، مثل مصارع. القاتل يتراجع تحت الصدمة، متحيراً لردة الفعل غير المتوقعة.

- والآن بالمبارزة جسداً ضد جسد يجب قهرك، أيها الطماع المستغل للمصائب! بعيداً عن فأسك.

يمنع الشمباني عدوه من استعمال الفأس ممسكاً قبضته، شاداً عليه في ملزمة يده اليمنى، بينما يحاول نزع قبعته باليسرى.

- أرني وجهك، كي أعرف من الذي يبحث عن قتلي!

وفي هذه المصارعة الثابتة كإثبات للقوة التي يظهرها الرجلان القويان، يتوصل جوفروا إلى كشف وجه عدوه.

نظرة ملاك، بريء، نظرة مليئة بالحزن العميق الحارق الذي تكذبه ابتسامة تطيل شفتيه البشعتين البعيدتين عن أن تكونا شفتي رجل.

مع ذلك جوفروا لايقدر على الشك بذلك إنه يتصارع فعلاً مع فتى.

ـ كم أنت فتي! هذه الندبة.. إنه أخي باسيل لوهارني الذي سببها لك. لو كان بمقدوره قطع رأسك!

ـ ستلتحق به قريباً، يجيبه الصوت الرقيق الأنثوي المتعب، هو وآرسيس دوبريين اللذان يتعفنان فـي الجحيم حيث وجدا مكانهما كمرتدين!

تشاذا، وجهُهما قريباً جداً من بعضهما، على شكل وضعية تقبيل. لم يتوقف الرجل ذو الفأس عن التبسم. هذه المعركة، التي يعتبرها الآن كلعبة،مسلية جداً. الفارس لا يسترخي، يبقي الفأس مرفوعة فوقه، التي لا يمكنها السقوط عليه.

ـ أنت ميت سلفاً يا جوفروا دو سانت ـ أومير! باينس، والكونت، وأرملة برين هم أيضاً، أنتم على قائمتي!

قوة جوفروا كقوة الثور، يتراجع حارس الدم بهدوء تحت قوة الدفع.

ـ هل فكرت أنه يمكننا أن نموت معاً ونحن متشابكان؟ يقول الفارس.

ستار يظلم فجأة نظر القاتل الذي توقف عن الابتسامة. لقد شعر بنتوء حجر فـي خاصرتيه.. النافذة. ما زالا يشدان بعضهما. لا أحد يفلت الآخر. النافذة.. الفراغ..

*

* *

ـ أؤكد لك يا إيلويز.. أسمع صوت تهشم قوي، والكثير من الصـراخ!

ـ الأستاذ كان ما يزال ثملاً ولربما كسر الأواني!

لن أضطر إلى صعود كل الدرجات بسبب هذه الفظاعة! جيرارد يلتفت نحو المرأة البدينة ويؤنبها.

ـ أسرع! أنا العجوز وأنت تمهل الخطى..

إيلويز تلتقط انفاسها، تضع يداً على صدرها الضخم، تحرك عينيها.

ـ ذلك لأنني نحيل الجسم وأنت بدينة وهذا هو السبب.

إنه لخجل كبير أن ترغم شخصاً بوزني على ممارسة الرياضة البدنية فـي هذا الصباح الباكر.ـ هل ستسرع أخيراً؟

ـ حباً بالله، ماذا تعتقدين أنه يمكن أن يحصل لسيدنا فـي برج الحمام، اللهم إلا بعض التهيؤات؟ سمعت أحدهم يقول أن العم غايتان، الذي كلمتك عنه عدة مرات والذي لا يبصق أبداً على كأس نبيذ كان يرى فـي آخر حياته عناكب كبيرة وجرذاناً عملاقة تسير على بطنه، أليس هذا شيء فريد؟

ـ اصعد واسكت! ـ أنت لطيف مثل سطل القاذورات يا جيرارد.

والآن، أدرك لماذا لم تحصل أبداً على زوجة!

*
* *

جوفروا أدرك أنه لن يتمكن من الإمساك طويلاً بيد القاتل. ويندهش من تمكن هذا الأخير بالرغم من فتوته ونحالة جسمه من المقاومة وبهذا القدر.

قوى الفارس تتناقص النبيذ الذي تناوله بكثرة فـي الأيام الأخيرة تمكن النيل من بأسه.

يستفيد حارس الدم من رخاوة الشامباني ليمسك به من رقبته.

ـ ميت مقابل ميت، يقول جوفروا، لنسقط معاً!

إنه يفكر فـي هوغ وباينس، يمكنه إنقاذهما بتضحيته آخذاً معه القاتل إلى الموت.

«يبقى لي ما يكفي من الطاقة للقيام بهذا، أن أدفعه وأرمي بكامل ثقلي عليه، ومن ثم نطير معا».

يبدو أن القاتل فهم ما يريد خصمه محاولته. يضاعف من طاقته ليقاومه عبثاً. جوفروا يعطي نفسه آخر رمق من الشجاعة وهو يصيح حتى كاد أن يمزق رئتيه، ويقذف نفسه فـي الفراغ مع الفتى.

ينتفخ برنس وقبعة حارس الدم أثناء السقوط على شكل جناح أسود يصفق فـي الهواء.

يصطدم الجسدان المتعانقان بسطح المستنقع المنحدر الذي يتكسر تحت ثقلهما على شكل شظايا من الزجاج. يختفيان داخل حزمة من الماء الذي يعود ليسقط مثل رغوة فـي غليان.

*
* *

دخل جيرارد فجأة إلى الغرفة، وتتأفف من خلفه إيلويز.

ـ هناك شجار فـي الداخل، لكن مع من؟ جوفروا! أين أنت يا فارسي؟

ـ لقد قلت لك، قالت وهي تزفر من التعب، المسكين أصيب بنوبة جنون وألقى بنفسه من النافذة!

جيرارد يسرع. لينحني من مصلّبة النافذة. هناك فـي الأسفل حفرة فـي المستنقع (ثقب، جليده متفجر على ماء أسود يتماوج فـي آخر حركة له».

ـ جوفروا يا ولدي!

لقد اختنق صوت العجوز. إنها نفسه التي تصيح في داخله.

الشامباني لم يظهر أبداً. وجيرارد يبكيه منذ الآن.

*
* *

ـ صاح لوروي: لقد كانا فعلاً اثنين أليس كذلك. هل كان هناك جسدان؟ هل رأيتم مثلما رأيت.

ـ يمكنني القسم بذلك. لقد رأيت بوضوح سطوع شفرة فأس سيدنا!

ـ خذ الجياد إلى مسافة أقرب، روبرت احرسهما. وأنتم تعالوا معي!

ـ أنت تنوي التقدم على وجه المستنقع؟ يبدو لي ذلك محفوفاً بالخطر، الآن وقد اصبح وجه المستنقع هشاً.

ـ لنبق مسافة بيننا ونبحث عن سيدنا. الجليد شفاف. وسوف نثقبه بسيوفنا.

ينطلق الرجال الثلاثة.

قريباً:

ـ إنني ألمحهما!

يشير حارس الدم إلى أشكال غير واضحة تحت قدميه.

*
* *

القاتل يهشم الجليد ويكسره بضربات من فأسه محاولاً الخروج من تلك المصيدة، غضب شديد وعنف. البرد يعض جسده، الماء يلصق ثيابه المتجمدة على جلده.

يضرب، مسعوراً ساخطاً، يكسر الطبقة الكثيفة القاسية التي من خلالها يميز مع ذلك شبح رجاله.

أما الفارس فقد فقدَ وعيه، حارس الدم يمسكه بيده. إنه ثقل جسد ميت يشده نحو القاع. مع ذلك فليس عليه أن يفلت يده. يضرب أيضاً! يكسر سقف ذلك السجن السائل، يمسك نفسه، ويضرب أيضاً!

*
* *

الكونت هوغ، وباينس ومرافقيهم يمتطون جيادهم على طريق محاطة بالصفصاف، يمرون عبر برية تنعق فيها رفوف الغربان كلما اقتربوا منها.

ـ ها هو برج سانت ـ أومير! يصيح باينس بانفراج. أخيراً! لقد وصلنا إليه.

ـ ألا يبدو أن هناك أناساً على سطح المستنقع المتجمد؟ يندهش هوغ

ـ بالواقع يبدو مليئاً بالحركة من كل الجهات!

*

* *

توصل الرجل ذو الفأس إلى فتح ثغرة في طبقة الجليد التي استلقى عليها رفاقه من قطاع الطرق ليجروه من ثيابه.

ـ نحن نمسك بك يا سيدي، أترك الفارس، وسنقوم بإخراجك إلى السطح!

ـ لاجدال في ذلك! ارفعونا نحن الاثنين. أريد خاتمه! لقد جئت من أجل ذلك!

اتخذ الرجال احتياطات كبيرة لكي لا يزيدوا من هشاشة سطح المستنقع المنكسر. وقاموا برفع جثمان جوفروا الهامد.

ـ وغد ملعون، كاد أن يغرقني! يشكو القاتل وكل أعضائه ترتعد من شدة البرد.

ـ هناك جنود! يصيح واحد من الأعوان. لنعد إلى جيادنا بسرعة!

ـ لدينا وقتنا الكافي، يطمئنهم القاتل، أنها اللحظة التي أحب أن أتذوقها، لا أتمنى أن تحرموني منها أبدا!

فتح جوفروا دوسانت ـ أومير عينيه، بالرغم من بصره الغائب ليرى الفأس ترتفع في السماء.

ـ نحن أحياء.. لقد فشلت!

الصوت المعسل ذو النبرة الطفولية يجيبه:

ـ نعم يا جوفروا دون سانت ـ أومير. لقد قهرتك وانتصرت عليك.. من أجل الحقيقة الوحيدة والمقدسة للكنيسة.

ثم يسمع الشامباني تقصف ما يشبه الخشب المكسور.

إن البرد الذي شل جسمه وأعصابه يجنبه الشعور بالألم.

ـ لا أشعر بالألم مطلقاً.

ـ دفق من الدم يملأ وجهه. إنه دمه هو.

لقد بتر الرجل ذو الفأس يده اليمنى لتوه.

تتعالى ضحكة جلاده. يده ذات البشرة البيضاء مرفوعة، إلى تحت عينيه. العلامة التي يعرفها. الرقم 3 بالإضافة إلى إشارة صليب.

ـ لنمض الآن، يقول الصوت العسلي.

أصوات وقع الخطى تتناقص. ثم يغطي الفأس صمت القبور الذي يرافقه ظلٌ كبير جليدي.

جوفروا يشعر بخفقان بطيء، بعيد. هل هو قلبه الذي ما زال يخفق قليلاً؟ هل هو الموت الذي يدنو بخطى هادئة، متأكداً أن الجريح قد أضحى ملكاً له؟

«هل دنا أجلي؟»

ذلك ليس إلا دمه الذي يتدفق على شكل نبضات ايقاعية لشرايين ذراعه المقطوع.

جوفروا ينتظر. يعرف أنه قوي البنية ويعطي نفسه مهلة. من المحتمل أنه سيسمع شخصاً ثالثاً يقرع جرس القرية.

«جوفروا» نحن هنا! سنصل أيها الأخ!

إنه صوت باينس. لكن الفارس لا يستطيع رؤيته.

أصبح الظل يغطيه بشكل كامل.

«لقد فرغ جسده من دمه. ليعطني أحدهم حزاماً فأوقف النزيف..».

يعي المحتضر أن أناساً ينهمكون من حوله. لقد كانوا يربطون ذراعه. ولكن ما جدوى ذلك؟

«يجب تجريده من ثيابه وتغطيته بمعاطفنا، ساعدني يا هوغ. وعلينا أن نغسل جبهته!».

جوفروا يسمع نفسه يقول:

- هيا يا باينس، تعرف تماماً أن الأمر قد انتهى بالنسبة لي، لا تحاول خداع نفسك..

- كلا يا جوفروا، نريد أن نبقيك معنا. ابقَ يا أخي ابقَ!

والجريح يجيب في همس وصوت منخفض:

عانقني بدل ذلك، لأنني خائف جداً.. لدي التماس سأطلبه منكم..

- نحن نصغي إليك.

ادفنوني في قبر غابة الشرق في الأرض حيث سيمدد «الأول»... سأشاركه في نومه.

- نقسم لك بذلك. أيها الأخ.

الصوت لم يعد سوى حشرجة.

- وأن تقتلوا ذلك الشبح. . الرجل ذو الفأس.

الظل يغلق له عينيه.

11
أؤمن بنعمة الله بمجد، الله، وعدله

الرجل ذو الفأس يرتعد، لكنه لم يتألم منذ أن غادر أراضي سانت ـ أومير على رأس جنوده.

يخرج الفرسان من الغابة ويتسلقون الهضبة قاطعين أشجار الكرمة الجرداء ذات الكلاليب االقاتمة، يتوقفون قليلاً عند القمة، حيث أمامهم طريقان، إحداهما يقود نحو القرية والآخر يغوص وسط غابة كثيفة.

ـ لنفترق هنا، يأمر القاتل الشاب. عودوا إلى دياركم واستريحوا قليلاً قبل أن أطلبكم لكي نهتم بالكونت وباينس. هذه المرة، الفريسة ستكون صعبة المنال.

ـ يشتهر الفارس باينس بكونه سياف لامع لا يقهر والكونت محاط بدفاع متين.

ـ الواقع، لقد رأيت باينس في القدس. إنه ليس من نوع الحيوان الذي تهاجمه مواجهة. لقد شتتّ عائلته. ولم يبق له سوى ابن. هنا تكمن نقطة ضعفه. الله معكم.

ـ ومع روحكم، يجيب الرجال الأربعة. الذين ينظرون إليه ينطلق وهو يحث جواده على الجري.

ـ هذا ما يدعو إلى الاعتقاد أنه يجد لذة ماكرة للتعرض للأطفال، يلاحظ لوروي. المعلّم يصفع ظهري بسبب خلوه من العطف والرحمة.

ـ لا أرى الفرق بين شاب ميت وآخر مسن، يرد الآخر. مهنتنا هي أن نقتل بأمر. حسناً، لنقتل الأطفال، النساء، والرجال! بما أن القضية مقدسة.

ـ كل ما أخشاه أن نفعل ذلك بمشيئة من الله. ان نفعل الفرق !! اجاب لوروي مع ابتسامة قرف واشمئزاز.

عندما وطأت قدم الرجل ذو الفأس الأرض باحة دير سانت ـ مينهولد، يخرج الأب رئيس الدير إليه وهو يقفز واضعاً يديه على صدره.

ـ سيدي! آه سيدي، ها أنت.. لقد جاء كونت شامبانيا شخصياً يطلبك.

ـ الكونت، هنا؟ من أعلمه بذلك؟

ـ لم أتمكن من فعل شيء آخر سوى إعلامه أنك... أخيراً، أرجوك أن تفهمني، لقد كان يهددني! لقد تركته يزور غرفتك.

اقترب القاتل من الكاهن ورفعه تقريباً عن الأرض ممسكاً إياه من ياقته، وقال له:

ـ يا لك من مهارش مسكين يرتدي ثوب كاهن. هل تكلمت عن البابا؟

ـ كلا! كلا! لكن الكونت قوي وذو سلطان وهو دون شك على علم جيد بذلك. إنه صهر الملك فيليب وأخوه يكون أسقف شالون. أجهل مآخذه عليك، مع ذلك فلقد كان غضبه كبيراً!

ـ هل كان وحيداً؟

خرج بعض الرهبان بدورهم من الكنيسة وحضروا المشادة عن بعد، لا أحد يجرؤ على نجدة رئيس ديرهم، مع أن البعض يخشى من أن يخنق من قبل المجهول.

ـ هل كان لوحده؟ لقد سألتك.

ـ سأجيبك بارتياح فيما لو توقفت عن شد عنقي يا سيدي. كلا، لم يكن وحيداً، فارس آخر كان يرافقه وكذلك رجال مدججون بالسلاح.

ـ الفارس.. هل سمعت اسمه؟

ـ طبعاً، يجيب رئيس الدير ويسعل بصورة متواترة لقد ناده الكونت بـ باينس.

ـ إذن هم الذين كادوا أن يفاجئوني في المستنقع.

ـ عفواً؟

الرجل ذو الفأس يرفع يده عن ياقة الكاهن الذي أصبح وجهه شاحباً ومتوجهاً نحو المرآب حيث توجد غرفته!

ـ لم يعد الدير ملاذاً آمناً. سأسافر بعد قليل من الوقت. سوف لن تراني أبداً، أظن أنك ستكون راضياً عن ذلك.

الرهبان الخارجون من الكنيسة ينتظرون أن يصبح القاتل بعيداً عن مرمى نظرهم ليلتحقوا برئيسهم الذي يجد صعوبة في التنفس، منحنياً على شكل اثنين، متابعاً السعال. قال لاهثاً:

ـ لم أصادف أبداً مخلوقاً بهذا الشكل. هذا الرجل سكن عندنا من قبل، يبتسم لكم مثل

ملاك وينظر إليكم مثل شيطان. لا أجرؤ على تخيل أي نوع من المعاملة يقيمها مع الحبر الأعظم.

ثيابه كانت مبللة ولم يكن يبدو لي أنه يشكو بالرغم من شدة البرد.

- إلى درجة التساؤل ما إذا كان قد تألم لمرة في حياته!

*

*   *

لقد خلع ثيابه بشكل كامل.

ثم استلقى على أكوام القش التي تغطي أرضية غرفته، بطنه نحو الأرض، الذراعان على شكل صليب ووجهه نحو الجدار حيث يتدلى المصلوب. جسده المتماوت بسبب الحمام الجليدي البارد في المستنقع يذكّره بظروفه السيئة كإنسان، أراده الله هشاً، نحيلا، ومع ذلك يشعر برضى كبير.

ذرات القش تجرح وتعض بشرته وتمنحه تلذذاً حاداً، إماتات بسيطة تؤجج لذته.

يمسك بيده اليمنى حبلاً رفيعاً صُنعت فيه العشرات من العقد.

- ثم يبدأ: أؤمن بك، يا إلهي. أؤمن بمجدك المقدس، بنزولك إلى الأرض، وبحقيقتك.

وكملاك انتشائي ذي نظرة فطرية متقلبة، يبتسم بصورة فريدة، مثل طفل.

- وأنا الذراع الذي يدافع عن حقيقتك ضد كل المعادين لاسمك. أرجوك أن تمنحني القوة لأخوض معركتي العادلة حتى نهايتها. اجعل قلبي قاسياً وجسدي أيضاً.

يلوح في الهواء بذراعه الأيمن ويضرب بالحبل على ظهره ويصرخ، بين الألم والنشوة.

- أؤمن بنعمة الله، بمجد الله، بعدل الله.

يمطر الضربات بتهيج. جلده المخطط يتمزق، ينزف، يضحك ويبكي.

- أؤمن بنعمة الله، بمجد الله، بعدل الله.

وفي نهاية دقائق طويلة من العذاب، يقف، يرسم إشارة الصليب بإبهامه على جبينه، وآخر على قلبه يطوي الحبل ويعيده إلى محفظة صغيرة من الجلد، ثم يتوجه نحو سريره قبل أن يستلقي عليه ليرتاح، ينظر تحت الفراش.

- ويقول فيه نفسه: طبعاً. لقد عثر الشامبانيون على قائمتي!

يرتمي على فراشه. يغمض عينيه ويغط في نوم عميق.

12
الخاتم الثالث

كان جثمان جوفروا قد نقل إلى قصر كونت شامبانيا وسجّي في كنيسته، مدد على مذبح كان قد أعد للمناسبة، لوح سميك من الخشب على قوائم مغطات بقماش أبيض.

في الزوايا الأربع للمذبح وضعت شمعدانات كبيرة. الإخوة في المحفل الأول وكذلك السيدة هيلين وزوجة الكونت كونستانس ومورين جاؤوا لينحنوا وليتأملوا الجثمان.

يبدو وجه سانت ـ أومير الممتلئ كأنه نائم. لا توتر ولا أي علامة للألم. وحدها بشرة وجناته انتفخت قليلاً على عظامه. وزوايا شفتيه هبطت قليلاً.

ـ وصلنا متأخرين جداً، يا عزيزتي، يقول هوغ لزوجته التي يضمها بين ذراعيه. القاتل الذي يطاردنا منذ عودتنا من القدس انتهى من عمله. لقد مات الفارس جوفروا بين ذراعي أنا وباينس.

ـ أخشى أن أفقدك أيضاً يا زوجي. كل صلواتي ستبقى دون جدوى أمام قاتل من هذا الطراز.

ـ علينا إيجاد وسيلة لنصب فخ لهذا الذئب!

ـ دمدم باينس من بين أسنانه: إذا لم نتمكن من الوصول والقضاء على هذا الوحش، سيكون من الضروري مهاجمة سيده!

يبتعد الكونت بهدوء عن كونستانس مصطحباً باينس إلى مؤخرة الكنيسة.

ـ عندما تتكلم عن سيده، هل تفكر حقيقة بالبابا؟

ـ نعم. أليس هو شريكه؟ إنه من يمسك برسن هذا الكلب! يبقى البابا باسكال بعيداً لكنه يستفيد من حصة الكلب. سنذهب بحثاً عنه.

ويطلب الكونت بصوت منخفض:

ـ كيف كنت تتصور أن نتصرف في هذه المشكلة؟ البابا لن يصغي إلينا، سينكر تحريضه على هذه الحرب السرية.

ـ هذا المساء سأعرض مخططاً على المحفل. لنأمر بعودة إيليفاس من غابة الشرق ليكون شاهداً على ما نحن عازمون عليه، سوف لن أدفن أخينا جوفروا إلا بعد أن أقتص من هذا البابا القاتل! عندما يجثو على ركبتيه! سترى يا هوغ، أنه سيتوسل إلينا وسينقلب ضد حراس الدم إذا كان ينوي البقاء على قيد الحياة.

يأخذ هوغ صديقه من كتفيه، ويخفض صوته قائلاً:

ـ أتنوي مهاجمته جسدياً؟

ـ كان علينا فعل ذلك منذ زمن طويل، كانت لدينا الوسائل. كان ذلك ضعفاً منا، حين تصرفنا بإنسانية باعتبار أن الكنيسة سوف توفّرنا.

بعد فترة قصيرة، يهمس باينس، عارفاً أن الكونت قادر على فك شفرة الكلمات حسب حركات شفتيه:

ـ أقسم على جثمان جوفروا، وكذلك على ذكر آرسيس، باسيل، تيفين، وإيميلين أنني سأجبر الكنيسة على الاعتراف بأخويتنا! أقسم بالمسيح أن الكنيسة ستصبح خادمة لنا وأننا سنخضعها لإرادتنا. أقسم بـ I.N.R.I.

*

*   *

في ريمس. الوليمة تنتهي على مائدة الإسقف. كانت الأطباق عديدة ، لكنها مقدمة بكميات صغيرة قصد عدم إهانة مهابة البابا. هذا الأخير ودوم مستراني كانا قد تلذذا بكعكات الفول المليئة بالتوابل، الحنكليس المشوي بالنبيذ مع قطع من البصل الضخم الأحمر، الحمل الرضيع المشوي على الجمر والمقدم على طبق من أوراق الملفوف الطري المقلي بشكل جيد والذي ما يزال هشاً، وأفخاذ الدجاج المشوية المرقوقة بالكستناء، الزبيب وشراب النبيذ، العسل المنكه بالقرفة، اللبن الرائب الجامد، والجوز المرّ.

في الصالة الرحبة التي تدفئها مدخنتان، تناول الرجال الثلاثة الطعام بصمت ولم يتبادلوا سوى ما ندر من الكلام المصطنع والمتوافق عليه حول مذاق الأطباق أو بموضوع هذا الشتاء العنيد الذي يبدو أنه لا يريد الانتهاء.

راق للحبر الأعظم أن ينظر من زاوية عينه الإسقف الذي كان يتحرق رغبة للبدء بمحادثة عن علاقة أكثر بوضعهم.

أبداً لم يعينه في ذلك، مبتسماً في نفسه من هذه الدعابة. باسكال لايحب هذا الإسقف الصارم العبوس، المتواضع زوراً.. الفضولي بشكل فاضح..

لكن الإسقف لايقيم حساباً لذلك، يتسلح بالشجاعة ويقول بنبرة مراوغة:

ـ أفهم، أيها الحبر الأعظم، أن لديك أسبابك لتبقيني بعيداً عن الشؤون التي تبقيك في شامبانيا، مع ذلك افترض أنني أسأل نفسي. وطبعاً، أقول لك هذا مع كل الاحترام الذي يجب أن يكنه أبن لأبيه.

ـ يجيب البابا بسخرية: لا أفهم ذلك بغير هذه الصورة. لا تضمر أي حقد يا سيدنا، أنا ضيفك وأقدر خصالك وبالرغم من ذلك، لا يمكنني إعلامك بأي شيء. أقول لك هذا مع كل العطف الذي يجب أن يحس به أب نحو ابنه.

بظهره المدور المنحني، يتظاهر الإسقف أنه لم يكن قد تأثر بضربة المخلب ويتابع:

ـ لا أنتظر أقل من ذلك من أمير الكنيسة التي أكن لها الاحترام الصادق.

ـ ماذا علي أن أكشف لك؟ بعض المسائل تفرض أسراراً وفطنة كبيرين، ولا تجد حلها إلا في السرية المطلقة.

ـ في المقابل ثمة راهب بسيط يزورك باستمرار ويبقى معك أوقات طويلة، بينما المحادثات النادرة التي توافق على إعطائي إياها عادية وليست ذات شأن. هل من الممكن أنك لا تحكم علي أنني جدير بتلقي بعضاً من أفكارك وآرائك وتنويراتك؟ أؤكد لك أن ذهني منفتح كفاية وسيصبح دون شك أغنى إذا ما عرفت انك تتكرم بجلبها له.

ـ أنت تضفي عليّ صفات كثيرة، يقول البابا. هي بمثابة ثوب فضفاض!

دوم مستراني يحضر المشادة وهو ينزع قشرة بعض ثمار الجوز التي يخرج لبها.

ـ أتكلم عن الكاهن دونيس العطار والاختصاصي بالعلم العبراني، يتابع الإسقف الرجل الذي معرفته معترف بها طبعاً، لكن الذي يقال عنه أنه من أتباع الباطنيين الخطرين على الروح والنفس.

يرفع البابا يداً تعبة:

ـ يرددون أشياء كثيرة بخصوص عقول لامعة! يمكنني أن أؤكد لك أنني قابل للاعتراف بروح طائعة ستكون محاطة بالقوى الشريرة. كن مطمئناً يا سيدنا: الكاهن دونيس ليس ضحية القوى المخربة الضارة، هذا الرجل الشهم لديه العقل المنحرف تماماً، وإذا كان يبدو ذلك طبيعياً للاحظ قليل الانتباه، فذلك بسبب المعارف الكبيرة التي اعتاد عليها.

يتهيأ الإسقف للمعركة عندما سبقه مستراني:

ـ قداسة البابا، أليست هذه ساعة قيلولتك؟

يقول البابا ناهضاً مبتسماً:

ـ أنت محق، يا دوم مستراني. معذرة يا سيدنا، سأنسحب إلى غرفتي. أحرص على شكركم مرة أخرى على نوعية الإستقبال الذي حبيتموني به.وأيضاً من أجل تكتمكم!

ـ سأكون بتصرفكم يا أبتي، يدمدم الإسقف.

ما أن خرج دوم مستراني من الصالة، حتى التفت البابا نحو رفيقه للاعتراف:

ـ لقد أوقفت هذا النقاش بكثير من المهارة يا صديقي.

ـ أنا؟ هيا، كنت أقلق فقط على صحة الحبر الأعظم!

ثم يعود قداسته إلى غرفته، وبينما يدخلها كان يرتعد برداً، كما رأى أن النافذة كانت مفتوحة.

ـ لكن الطقس بارد جداً هنا! آه، لقد تسببت الرياح في فتح النافذة.

وهو ذاهب ليغلقها، يلاحظ بقلق وقع أقدام آثار ثلجية على الأرض.

ـ وقع خطوات!

الرجل ذو الفأس جالس على مقعد صغير بحرية مطلقة، كيسه الجلدي موضوع على ركبتيه.

ـ احتراماتي يا قداسة البابا.

ـ يا لها من عادة مغضبة تسلكها في الدخول إلى قصري كأنك ظل!

يرمي القاتل الكيس على قدمي البابا.

ـ ظل! طبعاً لأنني غير موجود!

ـ هل أنت تذلني لترضي نفسك؟ أنت ترمي لي هذا الشيء مثل عظم تلقي به إلى كلب جائع!

ـ اقتل من أجلك يا أبتي. أعتقد أن بمقدورك الانحناء لالتقاط ما هو لك.

باسكال يمسك بالكيس قائلاً:

ـ ثق لو أنه كان مقدوري الاستغناء عن خدماتك أنه لو لم تكن الكنيسة في خطر، لكنت أصعدتك فوق المحرقة.

ـ أعرف. لقد اخترت أن تكرهني عوضاً عن أن تمقت نفسك، أنا جزء منك.

ـ بمن يتعلق الأمر هذه المرة؟

ـ جوفروا دوسانت ـ أومير. لقد قاتل الفارس ببسالة كاد أن يأخذني معه إلى الموت، لقد تصرف كرجل شجاع وخصم عنيد!

بحركات بطيئة، يأخذ الحبر الأعظم يد الشامباني ويضعها على الطاولة قرب المدفأة الجدارية.

ـ عقدنا، أيها الأب.

ـ نعم علي أن أخرج الخاتم، وأنسخ رسم الإشارة المقدسة، بهدف إبقاء الأصلية لدى حراس الدم.. تقاسم الحقيقة والمعرفة معكم! كل هذا رمزي فقط، ألا تجد ذلك؟

ـ أنا لا أزيد على علمك علماً إذا قلت لك أن كلمة رمز تأتي من اليونانية Symbolom، يبتسم القاتل.

ـ Symbolum في اللاتينية، يضيف البابا وهو يخرج الحجر الثمين الأحمر من قطعة كفن توما.

ـ لاتينية أم يونانية! يمزح القاتل في كلا الحالتين شيء كان يتقاسمه ضيفان في القديم في قطعتين، كانا يحفظان كل واحد ما يعود له، لينقلوه إلى ذريتهما، ذلك ما يسمح للعائلات بالتعارف فيما بينها والالتقاء. هكذا، الكنيسة وحراس الدم سيبقيان متزاوجين لأبد الآبدين كلاهما متقيد باحترام تعهده.

بينما كان ينسخ بشكل دقيق الشارة الموجودة على قطعة الكفن، يضيف باسكال:

ـ يحصل أن بعض الزيجات تنفصم.

ـ سيكون ذلك مميتاً للطرفين، أبتي علينا أن لا نتمنى ذلك!

ينهض الرجل ذو الفأس عن مقعده ليأتي ويقف خلف البابا لينظر من فوق كتفه الرسم الذي هو قيد نسخه.

ـ هذا الرسم مركب من أربعة أحرف I.N.R.I، يقول باسكال، أليس مدهشاً أن يسوع قد استعار الأحرف الهجائية الرومانية لكي يموه ويخفي سره؟

ـ لا يهمني حالياً المعنى المقصود بهذه الإشارات. يعود إليك اكتشاف المعنى، في حين أن مهمتي تقضي بأن أسرقها.

ـ لا تحسبني رجلاً ساذجاً، أشك أيضاً أنك أنت مثلي متلهف لحل واكتشاف سر يسوع.

ـ أو إزالته نهائياً!

يعيد البابا الخاتم وقطعة الكفن إلى الشاب، ويعلن له هذا الأخير:

ـ يلزمني ملاذ آخر، الكونت هوغ وباينس اكتشفا الدير، ولأسباب أمنية لا يمكنني مشاركة المكان مع أحد من رجالي.

ـ طبعاً! سنجد حلاً لهذه العقبة، لكن كيف تمكن الفرسان من الوصول إليك؟

ـ أجهل ذلك، يملك الكونت دعماً كبيراً والأمر محتمل.. عليّ خشية هذا الرجل. سأكتب رسالة موجهة إلى رئيس الدير في هونفيلير على مسافة ساعتين على الجواد من ريمس وستكون هناك في مأمن.

ـ آمل ذلك. كنت أعتقد أنك ستطمئنني بأن لا أكتشف أبداً حتى اليوم، لقد قللنا من أهمية خصومنا.

ـ نحن نبالغ بالغطرسة والتفاخر يا بني. خاصة عندما نحسب أنفسنا كأناس لا يقهرون.

نبرة الحبر الأعظم كانت لاذعة. يرد عليها القاتل على الفور:

ـ ليس الزهو والتبجح هو ما يحركني. أترك هذا إلى السياسيين وأساقفتك.

القضية التي أدافع عنها هي قضية الله، هل نسيتها يا أبتي؟

ـ كلا، بكل تأكيد.. الله! بجلاء لأجل الله مثل الحروب الصليبية التي نقوم بها في فلسطين، التي ليست إلا نفاقاً ورياء وتصنعاً، التي يهرع إليها ملوك صغار مولعون بالمغامرة ومتعطشون إلى الذهب.

يعود القاتل إلى النافذة، التي يتهيأ لاجتيازها، يوقف حركته، يوجه له البابا أمراً:

ـ كن حذراً مع ذلك، لقد أججت الحقد في قلب ما تبقى من الفرسان، باينس والكونت سوف يسعيان جاهدين لجعلك تدفع غالياً ثمن موت ثلاثة من أخوتهم.

ـ لا يمكنهم أن يشكوا أن لدي رجل فيما بينهم وهو أحد النجارين.

يضع القدم على حافة النافذة وقبل أن يختفي يقول هذه الكلمات الأخيرة:

ـ إذن سنتقابل قريباً يا أبتي.

ـ بالفعل، أخشى ذلك، في الحقيقة.

يصل باسكال إلى زجاج النافذة بخطوتين. لم يكن لديه سوى الوقت اللازم ليلمح على يمينه طرف معطف الرجل ذي الفأس الذي يرفرف على طرف إفريز يسنده مسندان مقطباً وجهه بطريقة ساخرة.

ـ لنمجد الله ونسبحه!

13
الذهب

أزاح شيلوميت الستار الأسود

ـ اقتربي يا سيدة هيلين.، وأنت أيضاً يا مورين، بما أنك كنت تتلهف رغبة لمعرفة ما نخبئه فـي هذه الغرفة. ينظر الصبي، الذي سبق أن ألقى نظرة سريعة على المعمل الصغير. وهذه المرة ينظر بانتباه كبير ويدهش لوجود الغرفة أكثر ضيقاً مما تصورها.

ـ لم أخطئ. يقول الصبي، ما آراه أحس كأنه فعلاً من الذهب، أليس كذلك؟ مثل ما يغلي هناك.

ـ بالفعل يا مورين، يجيب باينس: إنه الذهب.

ـ انظر يقول شيلوميت آخذاً بواسطة حوجلة صغيرة حفنة من الرمل الذي يذره أمام المرأة الشابة والطفل. كما أنه يمكننا أن نصنع الزجاج من هذا الرمل السيليكي العادي الذي نذيبه مع البوتاس والصودا، سنكون قادرين على الحصول على الذهب بطريقة مشابهة.. نسكب كمية محددة من الرمل بعد تحوله إلى عجينة فـي هذا الفرن، ثم نخضعه لمعالجات مختلفة فـي هذه السلسلة من الآنية المتصلة فيما بينها بواسطة أنابيب من الرصاص، سيخضع هذا الملاط الفريد لمعالجات مختلفة وترسبات فـي أحواض، ثم نعرّضه مرة ثانية لدرجة حرارة عالية. هذه العملية يطلق عليها اسم «التصعيد». قبل تصفيته عبر هذه المناخل المخروطية الثلاثة، سنتلقى العنصر الخامس فـي هذا الفرن الثاني، حيث يصبح حساء أصفر الذي سنرفعه إلى درجة الغليان مدة ثلاثة أيام وثلاثة ليال.

ـ عندئذ تتم عملية الملغمة بواسطة الزئبق والكبريت ونثبتها على شكل ذهب، يقول فيرّير.

ـ إنه نوع من الشعوذة أو السحر! تقول هيلين متعجبة.

ـ كلا يا هيلين يرد عليها الكونت مبتسماً. كان المسيح قد تثقف بهذه المعرفة من العلماء المصريين الذين أسروه فـي الجمعية السرية للبنائين والعلماء فـي دير المدينة.

كرس يسوع كامل طاقته وذكائه لأبحاثه، يضيف باينس. المصريون من ناحيتهم كانوا قد اقتربوا من التحول لكن دون أن يصلوا إليه. تعرفون أن المسيح أوحيت له الصيغة وهو فـي قبر توما. كرس فيما بعد حياته كاملة لكي يطبق هذه المعادلة. إنه الكيميائي الوحيد الذي أنجز أضخم عمل.

ـ I.N.R.I تطبق على المادة المعدنية كما على المادة العضوية، ينوه شيلوميت.

ويتابع باينس:

تفهمان الآن لماذا تلاحقنا الكنيسة، نحن ورثة أخوية يسوع، نحن نملك السلطة العليا على الموت والطبيعة!

ـ نعتبر أن الزمن لم يحن بعد لتوزيع هذه المعرفة على البشر، يقول هوغ بصوت عال. من الممكن من ناحية أخرى أن لا نفشي هذه المعرفة أبداً فـي المستقبل.

صوت رزين وقوي وخشن، يفاجئهم جميعاً:

ـ العقل يكشف أسرار عجائب الطبيعة.

يلتفتون. إيليفاس يبتسم لهم وعيناه تلمعان خلف العدسات. ما زال يوجد بعض الثلج على كتفي معطفه، بسبب المسافة التي قطعها انطلاقاً من غابة الشرق. يلقي السلام على السيدة هيلين، ثم مورين واضعاً يده على شعر هذا الأخير.

ـ تبدو متعجباً أيها الصبي!

ـ الواقع، كيف يمكن أن يكون لي غير هذا أيها المعلم إيليفاس؟

ـ ماذا؟ كل هذا لأننا نصنع هنا قليلاً من الذهب؟

كل ما تنتجه الطبيعة يمكن تقليده من قبل البشر (الإنسان) فيما لو كان هذا الأخير جيد الملاحظة لأسرارها.

ـ أنت تهزأ بي! يشكو مورين. الطبيعة سخية بالظواهر التي ستبقى إلى الأبد ألغازاً عميقة.

ـ أؤمن بالله وذلك يربكني، تقول هيلين.

ـ لكننا كلنا أيضاً نؤمن بالله، يتابع إيليفاس دون أن يترك ابتسامته. هذا العلم هو من جوهر إلهي. يستمد أصوله من غابر الأزمنة، من الله نفسه! الله كان موجوداً قبل البشر! قبل أن يخترع هؤلاء بزمن بعيد جداً الديانات المعدة لوضعه فـي قفص!

ـ لقد حدثتنا عن حكماء أخوية دير المدينة، يقول باينس. وقد تعلم يسوع على ضوء

تقليدهم، فشرب منه كما تشرب من النبع الأصلي للمعرفة. هذه الجمعية من البنائين والإكليروس، تشكلت طبعاً أيام السلالة الثامنة عشرة، وكانت على مقربة من الأقصر إلى الشمال من إدفو. فـي هذا المجتمع كان الرجال آنذاك يدعون «خدم فـي ساحة الانسجام» أو «خدم المنصب الرفيع»، يتوصلون إلى قاعدة خاصة كانت تضع عملهم على علاقة مباشرة مع ما هو إلهي. بالنسبة لخادم المنصب الرفيع فإن الفن والتوازن والتناغم كانت جميعها من أصل إلهي. الإنسان، العامل الماهر كان يتلقى من الآلهة الوحي الذي يجسده عبر عمله. كان يمنع نفسه من ادعاء أبوة أو ملكية عمله، وكان يجهد فـي إعادة التركيب مستعيناً بتعليم متيقظ وسط جماعة أخوية ومنظمة، جماعة متدرجة، لها أسيادها والمبتدئين فيها. العامل الماهر، بواسطة تدرّبه، كان عليه التقدم وصعود الدرجات المؤدية إلى المعرفة. هنا يكمن السّر الحقيقي للتدرّب، ظاهرة مقدسة ومادية فـي آن واحد، وهي توحد العقل مع الحركة، فهي تكرس العمل، نافخة فـي الإنسان الشعور الواجب عليه القيام به. التدرّب المصري كان يفتح ذهن الإنسان على فكرة أن المخطط موجود، وأنه كان دائماً موجوداً. وأنه من واجب العامل الماهر أن يفك رموز حوافه، وبالأحرى لدى قراءته المخطط الكوني الذي يبدو لنا أحياناً، أننا نقترب من التناغم، القوة، الحكمة، الجمال. كان المعماري المصري يعرف أنه لن يبلغ أبداً التوازن النهائي ولن يبلغ الكمال فـي فنه. حدود الفن لا يمكن بلوغها من قبل فرد واحد. ولهذا السبب، وبما أن الحياة البشرية قصيرة جداً. كان المصريون قد أسسوا هذا النوع من الجمعيات التوجيهية من البنائين. فالكبار كانوا ينقلون معرفتهم إلى الأصغر سناً من المشاركين مخلدين التقليد، معلمين إياهم القاعدة أو نظام الأخوية المنسوخة على صورة الدورة الشمسية.

ـ تقاطعه هيلين:أعتقد أني فهمت. أنت تصف لي أخويتكم بينما تتكلم عن أخوية أولئك المصريين. وإذا كنت لا أفهم كل شيء فـي خطابك يا صديقي، فإني مع ذلك أفهم أن المحفل الأول الذي كان زوجي المرحوم آرسيس يشكل جزءاً منه إلى جانبكم، هو أخ لتلك الجمعية من البنائين.

ـ أنت امرأة ذكية يا هيلين، يطمئنها باينس، وأنت تدركين بوضوح ما أشرحه لك. نعم، نعم، المحفل الأول الذي أسسه يسوع كي لا يموت التقليد كان فعلاً قد ولد مما تعلمه من دير المدينة.

ـ مع ذلك، تضيف هيلين، اعتقدت أن المسيح لم يكن قد ترك معرفته لأخوته فـي عنصر واحد ووحيد. ألم يقسمها إلى قطع؟ ألم يكن عليكم الذهاب إلى القدس لكي تجمعوا بعضاً من هذه القطع انطلاقاً من مخطوط جوزيف الأريماتي؟

ـ فـي الواقع، يتابع باينس، كان يسوع قد قسّم معرفته وترك منها بقايا باللاتينية، اليونانية والعبرية. بهذا الخصوص ليس من المستغرب تحديد طريقة عمل أخوية دير المدينة،

المؤلفة من أعضاء يتراوح عددهم حسب الأبنية والأعمال والمنشآت التي يجب تشييدها. فخدم المنصب الرفيع كانوا «رجال الطاقم». وكانوا مقسومين إلى جهتين: اليمين واليسار كما هو الحال على سفينة مصرية. الحائز على اللقب كان يتطلب أن يُقبل في الجماعة ويُستقبل في ورشة. وهناك مراقبان يطرحان عليه العديد من الأسئلة المدنسة منها والمقدسة. إذا ما نجح في الامتحان، سيكون هناك اختبار أخير ينتظر القادم الجديد. فقد كان يتم تقديم قارب له على شكل قطع منفصلة، عليه أن يجمع القطع بترتيب صحيح. هذا التمرين يفسر مرة أخرى أن المخطط كان موجوداً قبل ذلك، حتى لو حُطِّم أو مُزِّق، وهذا المخطط الإلهي سيبقى دائماً جاهزاً لإنارة عقل وذهن ويد الإنسان. القوة الخالقة والتقنية المتقنة يجب أن تسمح للمتدرّب المصري استعادة المعنى الكوني للتناغم الإلهي. عبر العمل يكتسب الإنسان المعرفة، وعبر التدرّب يبلغ المقدس. التدرّب يكتب لنا في مخطط العمل، مع الآخرين ومن أجل الآخرين، نفتح عيوننا على طريق جديدة. دين الأخوة الحقيقي الذي يعرض علينا لغة كونية مكونة من رموز.

يتوقف باينس لبرهة. ينظر إلى أصدقائه واحداً بعد الآخر ثم يتوقف عند مورين الذي فاجأته كلماته بالحماس الذي نطقها بها. لم يسبق للابن أن سمع والده يتكلم بهذا الكم، وبصوت حازم بهذا القدر، حار وذي نبرات مستمرة رقيقة.

يدرك الطفل أن أبيه هو رجل مزدوج، وأنه ينتمي إلى كل من عائلته وأخويته، ذلك المحفل الأول! وأنه هنا في هذه الجمعية السرية، الرجل الفصيح الذي يصغي إليه أصدقاؤه بصمت، باحترام كبير! حتى كونت شامبانيا يقدم له الاحترام والتقدير هنا أيضاً.

يتابع باينس:

ـ نحن ورثة التقليد، أبناء النفحة الأولى، نحن نشكل جزءاً من كل مجتزئ، منتشر عبر المكان والزمان. نحن نتأمل بدهشة وإعجاب النجوم التي تغطي سماء هيكل الطبيعة، والذي يدعونا لرفع ذهننا دون توقف ونحلم في نفس الوقت بالحنين للماضي متحمسين لهذا السر: من حيث نأتي، وإلى حيث سنعود، إلى هذه الحقيقة المطلقة التي لا يمكن إدراكها، كان على العلم أن يحاول الإختراق دافعاً حدود المعرفة عند كل اكتشاف. لأن هناك منطقة في الكون ـ من كوننا ـ لايمكن للعلم أن يصل إليها والتي تقع في المجال النفسي ، حيث كان يسميه البعض الروح. والكون هو رمز بكامله متضمن ذاته إنه مخطط لغزي يُقدَّم على أنه حقل تجارب واكتشاف. وسيكون بحثنا إذاك مثقلاً بأسئلة لا تحصى ، والتي لا تستدعي الأجوبة بالضرورة، لأن الكثير منها يقع خارج نطاق فهمنا. مع ذلك، نحن متسائلون قلقون أحياناً، وباحثون محبطون، نسجل اسمنا أيضاً في التقليد عبر عنادنا في المطاردة والبحث عن الحقيقة. الأسئلة التي نطرحها اليوم سيعاد طرحها من قبل آخرين، هم المفتونين بمعرفة جديدة، بعلم أكثر دقة وقد يجدون تباشيرمخطط

إجمالي للجواب. اليد الملطخة بالوحل التي وضعت فـي الماضي علامة على جدار مغارة، رمز أول تقديري لوعي ذكي، لم تفارق أبداً ذاكرة البشرية، ذلك الكائن البشري المبتدئ فـي وعيه وقَّع هناك انتماءه إلى جماعة. لقد طُبع بطريقة لا تمحى تلك الصورة ليد ممدودة لأمثاله عبر القرون. مثل قبضة من الأيدي فـي سلسلة اتحاد تصل الأحياء بالأموات، التي تجمع أولئك الذين بنوا وشيدوا بالآخرين الذين سيتابعون العمل.. لأن التعليم هنا جلي بشكل خاص يقدمه لنا التدرّب: وجودنا عابر زائل، غير أن عملنا يبقى أزلي دائم. نحن ننقذ الكنوز المحفوظة من قبل إخوتنا الكبار. نحن ندرك الآن فـي تدريبنا أن العلم آنيّ وبشري فـي حين أن المعرفة هي من اختصاص إلهي.

المعرفة وحيدة فريدة تشمل كل العلوم.

كل شيء موجود فـي تلك الجزئية البدئية، تلك البويضة الأولى حيث يتجانب المتناهي فـي الصغر والمتناهي بالكبر، الحياة والموت، كل شيء وضده، الله والعدم، كل شيء هو فـي هذه الكلمة، اللغز الذي لا يمكن وصفه الذي يسجن العقل ويفرض على الإنسان بأن يمد باستمرار يده نحو الله، باحثاً عن مرشد، عن سند، عن بداية لجواب مؤاسٍ بأنه ليس سوى كائن آيلٍ الى الفناء،من الذي سيمنعه من أن يغرق فـي جنون حتمية غيرِ مقبولة. الموت والحياة مثلما هو الرمل بالنسبة للذهب!

عندئذ كل الرجال قاموا بحركة الاتحاد فـي صورة إيقاعية أعجبت هيلين ومورين: يرفعون يدهم اليمنى راحة مفتوحة، على مستوى قلبهم، وينحنون ثم، بصوت منخفض وببطء ينطقون بهذه الكلمات:

ـ بجسد ودم المسيح، بالرمل والذهب، ليبقَ التقليد من أجل مجد المعرفة!

يقفون، يرى باينس أن السيدة هيلين شاحبة ومرتعدة، يقترب منها، ويمسك بقبضتها ويطلب منها:

ـ أخشى أن تكوني قد فهمت بعضاً من كلامي كخطاب عدائي أو نقد لاذع، أليس كذلك؟

ـ حقيقة، لقد أوقفت روحي أكثر من مرة يا باينس، هل تحسب حساباً فيما لو أن واحداً من ممثلي الإكليروس كان يسمع جزءاً من الألف جزء مما قلته، فإنه سيسلمك مقيد اليدين والقدمين إلى المحكمة، التي ستحكم عليك بالمحرقة.

يتدخل مورين بالقول، وقد أحمرت خدوده بسبب بقائه لفترة طويلة قرب الفرن:

ـ الكنيسة تفعل جيداً بمحاكمة وحرق الرجل ذو الفأس وأعوانه، ستكون تلك عدالة أسلم وأكثر حكمة يا سيدة هيلين!

إيليفاس يضع يده النحيلة على شعر الفتى ويفرك الجمجمة قائلاً:

ـ أنت بذرة طيبة يا بني! لكن السيدة هيلين ترد حسب معتقداتها وعاداتها وتقاليدها.

من غير الحكمة من جهتنا أن نؤنبها على ذلك. بالمقابل أنا متأكد أنها ستحترم فلسفتنا كما نحترم فلسفتها.

حتى لو أن ضميره اهتز قليلاً! بدون شك فقد فهمت أننا نحن المؤتمنون على الدين الحقيقي دين الحب الذي نقله لنا المسيح، سنناضل ضد الكنيسة التي خانت يسوع.

ـ عقّبت هيلين قائلة:أنت رجل رائع يا معلم إيليفاس. من جهة أخرى أنتم جميعاً هنا، أصدقاء رفيعو المستوى وأنا مدينة لكم بالكثير. كنتم تحبون زوجي آرسيس كأخ، بالرغم من أنكم تعطون هذه التسمية العديد من المعاني. كل هذه الطيبة، كل هذا الحب يدفئ قلبي ويساعدني على تحمل الترمل. أنا ممتنة لكم بأنكم تثقون بي وتخبروني بأسراركم، أعتبر هذا بمثابة شهادة على احترامكم لي. كذلك، مع أن ما علمته اليوم، سيمنعني من النوم ليال طوال، أقسم لكم بأني لن أكلم أحداً عما سمعته.

لدى سماعه هذه الكلمات، يضمها باينس إلى صدره ويقبلها على الجبين هامساً لها:

ـ من الآن سأناديك أختاً، عزيزتي وأعرف أنني سأعطي هذه الكلمة دائماً معنى الصداقة!

تبتسم له بينما نظرها تغشيه الدموع.

*

*   *

لاحقاً، أثناء الليل، بعدما توجه مورين وهيلين للنوم، اجتمع الرجال في الصالة الأولى من المختبر. يُطلب من باينس الذي يعرض عليهم نيته بمقابلة البابا في ريمس، بأن يشرح لهم الفخ الذي قرر نصبه له.

ـ البابا سيفقد صوابه ويضيع بسبب الذهب! بسبب ذهبنا!

14
القصاص

الثلج الذي لم يتوقف عن الهطول طوال الليل قد تحول عند الفجر إلى مطر ثقيل حلّ على ريمس.

بعد صلاة الثالثة بعد الظهر، ما زال المطر ينهمر. لجأ البابا باسكال ودوم مستراني إلى مكتبة القصر الإسقفي. لم يتوصل الحبر الأعظم إلى إخفاء امتعاضه وسوء مزاجه، كما لم يتوقف عن التأفف والتشكي من طقس منطقة شامباني الرديء البارد والمفجع.

كان يعتقد أن تفحص كتاب فروض القداس سيسليه، لكن الحال لم تكن كذلك. يقلب الصفحات دون تفكير زافراً في كل مرة تضرب الريح المحملة بالمطر زجاج النوافذ.

حاول جو مستراني مرات عديدة فتح محادثة. لكن عبثاً أيضاً. فلقد تحصن في صمت كامل، على حواف الحذر والذهول.

ينفتح الباب فجأة على الإسقف.

ـ قداسة البابا! سيادته كونت شامباني شخصياً.. لقد دخل بقوة وطلب على الفور مقابلة معك!

ـ الكونت هنا؟ يندهش باسكال. دون أن يقدم مسبقاً التماساً بذلك؟

ـ لقد كنت أول من تفاجأ بذلك. من المحتمل أنه غادر قصره في ترويس في ساعة مبكرة ممتطياً جواده دون توقف، ومصحوباً بفارس واحد فقط.

ـ أليس هناك من مرافقين؟

ـ كلا، أيها الحبر الأعظم، اطلاقاً!

ـ ادخل إلى هذه الخلوة، بينما استقبل هذا الزائر الفريد. دوم مستراني أغلق الباب على

8
استيقاظ جوفروا

فـي اليوم التالي، فـي الصباح الباكر، غادر باينس والكونت هوغ على رأس جيش من عشرة رجال، القصر ليستقلوا الطريق بالرغم من عاصفة الثلج القوية.

في اللحظة نفسها، استيقظ جوفروا سانت أومير فـي غرفته، إنها غرفة واسعة واقعة فـي طابق من البرج الوحيد التابع لحصنه.

يجد الفارس صعوبة فـي مغادرة السرير الذي برّده الليل، كليتاه تؤلمانه، كبده يذكره أنه فـي العشية، عند عودته من ترويس، أفرغ ثلاثة أو أربعة كؤوس من النبيذ من كرومه الخاصة. نبيذ حادّ له، نكهة خاصة، فيه حموضة أرضه، وقوة الكلس، وعطر الخشب الرطب.

يجلس، كمرحلة أولى قبل أن يتمكن من الوقوف، يبقى للحظة طويلة على حافة سريره، حافراً بوزنه لحاف الريش الضخم.

هنا، النفس القصير نتيجة قيامه بهذا الجهد البسيط، يستعيد اتصاله مع الواقع وببطء شديد، يجول بعينيه فـي الغرفة، معيداً بناءها ذهنياً ليفرض وجودها المادي على ذهنه المشوش. المدخنة ودلوٌ معلّق على كلابة، جمرات مشرفة على الانطفاء مثل حجارة من الماس في علبة رمادية. منضدة مستديرة حديدية الزوايا،مزينة بحذاقة نجّار. مقعدان صغيران ذات ثلاث قوائم، لوحة صغيرة معلقة على جدار تحمل طبقاً يحتوي على قطعة لحم عائمة في صلصتها وقطعة كبيرة من الخبز. رفوف تتقوس تحت ثقل رزم (لفائف) أوراق القضيم، والكتب وأكداس من الأوراق، ودرقة معلقة بالقرب من النافذة، شريطان عاموديان أحمر وأزرق يمران تحت صورة بجع، رمز المسيح، مغسلة للصحون مصنوعة من الحجر، إبريق مليء بالماء، ثياب معلقة على مشجب. بعض القش والأعشاب اليابسة على الأرض تصنع لوحة...

ينهض. الخشب يصفق تحت أقدامهم. يعرف عندها أن أحدهم سيطرق على بابه قريباً

إنه جيرارد الذي ينام في الطابق السفلي ولا ينتظر سوى هذه الإشارة ليصعد ويحضر ما يلزم لزينة سيده الصباحية.

جوفروا يتنهد، متأسفاً كون الربيع لم يأت بعد. لقد سجّل اسمه في بعض المنافسات التي كانت ستحرر ذهنه المشوش والمعذب منذ الآن.

عندما تكون الأسلحة في اليد، لا تفكر أبداً بهذه الأشياء التي تثقل النفس وتتثبت فيها مثل القراد على جسم الكلاب! أحدهم يقرع الباب بهدوء، خربشات مخالب فأرة.

ـ ادخل يا جيرارد! يصيح جوفروا وهو يشد أسفل قميصه.

الرجل المسن الذي يدخل الغرفة نحيل الجسم ضعيف، أعجر بشرته ملونة، بأوتار قاسية، وعظام مبرومة. أيديه مرقّشة بخطوط صغيرة من الأزهار السمراء، عنقه ناحلٌ، شعر نادر قليل على شكل نسائل تنسدل على الكتفين، عينان مستديرتان في حجريهما المظلم.

ـ خطوات صغيرة لا تكاد تسمع في أكوام القش والعشب، يشير إلى الصحن والخبز.

ـ لم تأكل شيئاً من عشائك يا سيدي! على الأقل ألن تتناول الطعام هذا الصباح؟ يجب أن لا نستقبل يومنا البارد بمعدة فارغة!

ـ لست جائعاً يا جيرارد، بل أشعر بالعطش، يأسف الخادم لحالة سيده، يهز رأسه الذي يشبه رأس الغراب مقطباً وجهه متذمراً.

ـ أنت لست عاقلاً. هل نظرت إلى نفسك؟ بياض عينيك أكثر صفرة من الصوص، بقع حمراء على الوجنتين وعروق سوداء قبيحة المنظر في الصدغين!

ـ كيف حالك أيها الصديق!يتعجب جوفروا ضاحكاً. لن يُسمح لك على الإطلاق أن تتكلم بهذه الطريقة مع أبي.

ـ ذلك لأن أبيك لم يكن يشرب مثلك، حتى أنني أتذكر، عندما فقد أمك، فضّل معالجة حزنه بالصيام والصلوات!

استمر على هذا المنوال طيلة عام! عام يا سيدي! لم يكن ينتظر صلوات الفجر لكي يذهب إلى الكنيسة ويتناول القربان المقدس.

نعم يا له من مثل جيد ذلك الرجل!

ـ أعرف يا جيرارد، كنت عندها طفلاً، لكنني لم أنس شيئاً. بالمقابل، تبدو أنك تنسى أو تتغاضى أننا في نفس الوقت فقدنا أختي الصغيرة. كل أهالي شامبانيا دفنوا ثلث عائلا تهم. كانت الجثث تُحرق أحياناً لكي لا ينتشر المرض أبداً.

ـ كان ذلك دون شك الطاعون. أما أختك، فإنني لم أمحها من ذاكرتي، لكنها لم تكن قد

بلغت الثانية من عمرها، وقد ذهبت إلى السماء دون خطيئة، نقية تماماً، مثل عصفور صغير. يا سيدي الراشدون لا يملكون هذا الحظ... عندما يدعوهم الله إليه ستكون بطونهم وقلوبهم مليئة بالخطايا الصغيرة أو الكبيرة. وهذا ما يثقلهم ويمنعهم من الطيرانّ. عديدون أولئك الذين يسقطون مثل الحجارة فـي فم الجحيم.

ـ هزّ جوفروا كتفاه وقال:

ـ أنت لست سوى أحمق يا جيرارد! لست إلا ساق عجوز يهذي!

ـ ليكن كذلك! على الأقل فأنا لن أموت وأنا سكير!

ـ ستموت وأنت حيوان حكيم، تنقُد دائماً بكلام من هم مثلك!

ـ فـي الواقع، هذا صحيح. إنني أنقر بالفعل نقاط ضعفك. والله يشهد أن لديك منها الكثير يا سيدي!

جوفروا يفتح مصراعي النافذة الخشبيين اللذين تصدر مفاصلهما صريراً حاداً. قليل من البرودة والطراوة يتسرب عبر زجاج النافذة السميك إلى الغرفة فيطفئ سكرته. ثم يلتفت نحو خادمه:

ـ لا تقل «سيدي» بشتى الطرق فـي حين أنك حللت مكان أبي عندما شنق نفسه..

ـ لا تتكلم عن ذلك الحدث المريع. سبق أن طلبت منك أن لا تذكر ذلك، هل نسيت؟ سبق أن قلت لك أنني سوف لن أبقى فـي خدمتكم إلا بشرط وحيد هو أن نمنع أنفسنا من الكلام عن المأساة، كنت أحب والدك كابن لي ولم استسلم ابداً لموته .

ـ اعذرني يا جيرارد. قد تكون هذه اللحظة هي ما يدفعني إلى الكآبة، لكنني أقر أنه بالنسبة لرجل معجون بالمبادئ الدينية، فإن الانتحار لا يتوافق مع التعليم الذي ينشره كهنتنا العلماء. تعتقد إلى أين تذهب روح والدي؟

يسكب الخادم محتوى إبريق الماء فـي دلو المدخنة وهو يهمهم.

ـ ويوصيه قائلاً:يجب أن تغتسل جيداً، ثم ترتدي ثيابك، وتهبط إلى غرفة الخدمة وتطلب ملء صحن من نقيع الحبوب الساخنة من إيلواز وتأكل لب خبز الشيلم مع قليل من العسل.. ثم، سيكون من الأفضل لك يا سيدي أن تركب جوادك الحرون لتعلمه كيف يطيعك أثناء النزهة المنعشة حول المستنقع، وسيكون التمرين مفيداً لك وله معاً.

ـ أشكرك لاهتمامك، لكن ستلزمني طاقة ليست لدي لأطيعك، يشكو جوفروا وهو يلهو بخاتمه.

ـ حسناً، أجبر نفسك، أحلفك بالقديس يوحنا! مشمراً عن مرفقه الأيسر ليضعه فـي الحوض للتحقق من حرارة الماء، ويضيف الرجل العجوز:

ـ أوصي بحمام بالماء الفاتر، هذا الصباح! ليس حاراً جداً وليس بارداً جداً.. دمك بحاجة إلى التقوية. عاد جوفروا إلى النافذة. ينظر إلى المستنقع المتجمد الذي يمتد عند أسفل البرج، قارب صغير عالق في الجليد. أشجار الصفصاف منحنية منذ عشرات السنين بسبب رياح الشمال.

في الماضي كان يستخدم القارب للصيد، ومنذ الآن سيتعفن في الصيف كما في الشتاء، وسيموت ببطء مثل فارس شاب.

*

* *

غادر جند كونت شامباني قرية كورمو تاركين وراءهم بضع منازل ومزرعة كبيرة يغطيها الثلج. للوصول إلى دير القديسة مينيهولد، وقد توجب على الرجال الثمانية سلوك طريق محصورة بين هضبتين مرتفعتين، عابرين غابة من الصنوبر.

ـ يترجل الفرسان. هوغ يذهب ليسحب السلسلة التي تشغل جرس الإنذار، الذي يصدر بعض الأصوات الحادة.

قريباً يفتح باب الدير ، ويظهر خلف شبكه وجه شاحب لكاهن بشرته رمادية، يأمره الزائر على الفور:

ـ ليذهب أحدهم للبحث عن الكاهن رئيس الدير، وليخبره أن كونتترويس وشامباني يطلبه في الحال.

ـ طبعاً، طبعاً.. يتلجلج البواب مرتبكاً. سأذهب فوراً.

يمضي وقت قليل قبل أن ينفتح الباب. كاهن قصير القامة، قلق الوجه يرافق البواب ويحيي الرجال المسلحين باحترام واضعاً يده على صدره.

ـ سيدي، ماذا يلزمني فعله؟

جاء جواب هوغ، جافاً وقاسياً:

ـ ليس لدي ما يكفي من الوقت، هل تأوون زائراً في هذا الدير؟

ـ الواقع، بعض الحجاج يتوقفون فعلاً لـ..

ـ لا أكلمك عن الحجاج، بل عن ضيف خاص منفعته الكبرى أن يختبئ. هل من الضروري أن أفتش الدير من الأرض حتى الهيكل؟

يحرك رئيس الدير شفتيه ويقول:

ـ ليس من الضروري يا سيدي! تفضلوا واتبعوني. يبقى حارسان مع الجياد، بينما الآخرون يسيرون خلف الكونت وباينس، يدخلون الدير، يعبر رئيس الدير بصحبتهم الباحة ويقودهم إلى غرفة المؤن.

ـ أجهل كل شيء عن ذلك الرجل، يشرح بصوت مرتبك، عدا أنه يقوم بإماتة جسده العاري في البرد وهو يطبق عليه أعمال ندم مؤلمة. لم أر قط مؤمناً يضرب نفسه بهذا الشكل. يبدو لي أن التعذيب لا يمنحك مرتبة القديس، والمطلوب بدل ذلك التصرف بكرم مع قريبك لتصل إلى النقاء والطهارة.

وقف أمام أحد الأبواب وقال:

ـ هذه هي غرفته. لقد حولنا هذا الهراء الصغير إلى غرفة لنستقبل فيها الحجاج الذين يطلبون المبيت والغطاء. لو أردتم ألقوا نظرة.. الرجل كان قد غادر منذ قليل.

ـ لقد غادر منذ كم من الوقت؟

ـ جاء ثلاثة فرسان يبحثون عنه قبل وصولكم بقليل.

يدخل هوغ وباينس إلى غرفة دون أي أثاث. جدرانها مطلية بالكلس دون عناية يوجد فيها كرسي صغير وصندوق وصليب معلق إلى الجدار.

الأرض مغطاة بقش جاف تختلط فيه رائحة الرطوبة كما البول.

يرفع باينس غطاء المنضدة ويقول:

ـ فقط صرة ثياب و خرج..الثياب فقط!

بقي رئيس الدير على عتبة الغرفة وهو غير مرتاح بالتأكيد، ويراقب الرجلين. خجل من وجود الكونت يفتش الفرش بنفسه كما يفعل خادم عادي.

ـ لا شيء! يقول باينس بأسف، قد نكون أخطأنا..

ـ كلا، يقاطعه هوغ، أنظر ماذا وجدت في علبة مخبأة في سريره.

في الخارج، اقترب الحراس من الباب.

ـ سيدي! يقول باينس بصوت عال وهو ينظر إلى القضيم الذي ناوله إياه الكونت.

لقد كتب على ورقة القضيم بالأحمر أسماء آرسيس دوبريين، باسيل لوهارني، جوفروا دوسانت ـ أومير، هوغ دوشامباني وهيلين دوبريين. إلى جانب كل اسم وضع رقم وصليب: 1 لآرسيس، 2 عند اسم باسيل، 3 عند اسم جوفروا..

ـ القائمة الحمراء! يهمس باينس. القائمة التي اعترف بها الكاهن الذي اعترفت عنده هيلين قبل وفاته.

ـ أسماء أخوتنا آرسيس وباسيل شطبت، يدمدم الكونت. الرجل ذو الفأس يسجل حساباته مثل البقال!

ـ لقد قرر الوغد قتلنا حسب تسلسل محدد، يقول باينس، وأخونا جوفروا يأتي في

المرتبة الثالثة! يخرج الرجلان من الغرفة. وعند مرورهما أمام رئيس الدير يتوقف الكونت، يمسك به من ياقته وهو يصرخ في وجهه:

ـ أنتم تأوون مجرماً!

يحاول الكاهن أن يبرئ نفسه خلف صكيك عصبي لأسنانه:

ـ لا أفهم.. هذا الرجل طلب مني الاهتمام و... في نهاية الأمر، أنا...

ـ لا تتكلم كثيراً، أيها الكاهن، لا أحتمل صوتك. أعرف من يرأس ضيفك، لكني سأشويك بالرغم من ذلك فيما لو حصل مكروه لأحد من أصدقائي.

الأب رئيس الدير على وشك البكاء. صوته ليس إلا شكوى وأنين.

ـ قلت لك.. لا أفهم شيئاً في كل هذه القضايا!

بعد قليل، يستأنف الفرسان الثمانية سيرهم. بينما باينس يقود جواده الذي يعدو ببطء بين الحفر المليئة بالثلج، كأفخاخ حقيقية بالنسبة لعرقوب الجياد، ويحاول أن يرى وأن يتنبئ الأحداث التي ينسجها المستقبل...

ينقل ذهنه بعيداً إلى الأمام. نحو حصن ذات الأشكال الضخمة، برج يطل على مستنقع متجمد، قارب حبيس في الجليد.

نحو جوفروا دوسانت ـ أومير، صديقه.

9
الصعود

الرجل، روبرت لوروي يقفز من قدم إلى آخر، يرغي ويزبد من البرد الذي دخل نخاعه الشوكي، والثلج الذي بلل كتفيه وظهره.

يضرب جانباه بصفعات قوية ليعيد الحياة إلى جسده الذي خدّره الانتظار الطويل. صحيح أنه استظل تحت شجرة صفصاف ممرة بعيداً عن الريح، متدثراً فـي فرو كثيف، غير أن هذا لم يكن كافياً ليقيه شر البرد.

إنه يرتجف الآن مثل حصان عجوز يشتعل من الحمى، لم يتوقف عن تكرار ما فـي داخله، إنه سيموت قريباً. هذا مؤكد، أقسم بالله!

- أنفي قاسٍ ومتجمد كالخشب تماماً.

وصل إلى حد أن يسأل نفسه إذا كان عليه أن يوكل روحه إلى الله.

لقد كان سيء الأفعال منذ شبابه عندما كان يسمع صهيلاً.

- يتلو الكلمات الأولى بصلاة قصيرة بائسة تأتي من شفتيه، صاغياً إلى الريح.

يسمع صهيلاً آخر حملته الرياح عن يمينه.

«حسناً، ها هم أخيراً، اعتقدت لوهلة أنني جمدت دمي عبثاً، حتى البراز الذي أخرجته يشبه قطعة من الجليد!»

يرى من بعيد أربعة فرسان يمتطون جياداً يخرج منها البخار. يتعرف، على فارس المقدمة، شبح السيد الذي يستخدمهم والذي لا يُذكر.

هذا يدفع للاعتقاد أن الشخص لم يكن قد عمّد. كلما أسرعنا الانتهاء من عملنا سيخرج هذا اللص بسرعة من حياتنا. لن آسف عليه، بكل تأكيد.

يقفز الرجل ذو الفأس من على حصانه.

ـ أصغ إليك، يا روبرت

ـ من عادة الفارس البقاء في شقته في أعلى البرج. الحركة قليلة في هذا المنزل الصغير! لديه خادم عجوز فقط وطباخ في خدمته. على مدار الأسبوع كنت أحضر كل يوم، كما أمرتني به يا سيدي. قمت أيضاً بطرح الأسئلة على أهل القرية. جوفروا دو سانت ـ أومير لا ثراء ولازوجة، يعيش كناسك منذ عودته من القدس. لا يغادر حصنه إلا نادراً.

الفرسان الثلاثة الآخرون يترجلون عن جيادهم وهم يقتربون من الرجل.

ـ إنه يشبه عش النسر حقاً! يقول بصوت عال أحد حراس الدم. كيف يمكن الدخول إلى هذا البرج؟

ـ عبر هذه النافذة، في الأعلى، يجيب الرجل ذو الفأس. أعتقد أن القدرة على بلوغه ليست بالأمر الصعب، لقد قمت بحركات بهلوانية أخطر بكثير.

ـ سيدي، يقول روي، هذا البرج عال جداً.

القاتل لا يجيب، يمشي إلى المستنقع المتجمد حيث يتقدم بسهولة وببطء وثقة.

ـ في النهاية يقول، روي، هذا الأمر ليس من مسؤوليتي، معلمنا كان قد هُجنَ مع قطة في بطن أمه الساحرة، لكنه الآن يهاجم قطة قاسية! هناك خطر في أن يكسر ظهره. سيكون ذلك خسارة بالنسبة لنا، لأنه يقوم بدفع مستحقاتنا حتى الساعة.

ـ هل تريد المراهنة، يا روبرت؟ يقترح عليه واحد من رفاقه.

ـ كلاً يكفي أن أراهن ضده كي يأتي الشيطان ويدفعه إلى الهاوية ويرميه من الأعلى أسرع من الصقر!

*

*   *

وصل الرجل ذو الفأس إلى الضفة المقابلة عند أسفل البرج. قدّر علوه بدقة طيلة الزمن الذي استغرقه عبوره للمستنقع، مكرراً ذهنياً زمن الصعود الواجب عليه الآن أن يقوم به.

حجارة كبيرة بارزة ستساعده كنقط ارتكاز، وعندما تكون غير موجودة، يقوم بحفر فتحات في الطينة مستعيناً بفأسه أو سكينه.

بثقة كبيرة بنفسه، بدأ يتسلق الجدار.

الحجر بارد جداً، قفازاه من جلد الجدي تلتصق به دون صعوبة كبيرة.

*

*   *

كان جوفروا دو سانت ـ أومير وحيداً في غرفته. لم ينزل لتناول الغداء مثلما نصحه

جيرارد. لقد فضل تناول كأس من النبيذ بجرعات صغيرة ليطرّي به بلعومه ومعدته.

يعيد التفكير بالبئر الذي أمر إيليفاس بحفره وسط غابة الشرق على أراضي باينس. هذه الهوة التي لم يجرؤ على النزول فيها خوفاً أن تنغلق عليه. ذلك الثقب المظلم.

مع ذلك يلزمه أن يستهلك ما يكفي من الشجاعة كي يرافق جثمان «الأول» عندما سيضعه الإخوة فـي قبره النهائي.

قريباً دون شك، فـي الأيام الجميلة، كما يروق لـ إيليفاس القول، أن تنظيم الأعمال مُرضٍ. العمل فـي الورشة يتقدم سريعاً!

المهندس المعماري ذو طباع حسنة، وتبدو المصائب وكأنها تنزلق على جلده العجوز مثل الماء على صخرة. ليس لأنه لا يحس بالمشاعر، بل على العكس، فليس له مثيل فـي مواساة وإراحة الصديق فـي المحنة، بصوته الخشن الأجش. إنه لا يشفق على ذاته، مؤكداً أن ذلك لا يستحق الجهد، لذلك فهو ينسى بسرعة سنّه، والآلام التي ترافقه، والموت الذي بدأ يظهر على وجهه البشع وليالي السهاد.

جوفروا يأسف بأنه لا يملك حتى جزءاً من ألف من فلسفة إيليفاس، الذي لم تستطع الأوقات العصيبة على تدميره:

زوجة توفيت فـي السابعة والعشرين من عمرها بسب سعال خبيث جعلها تبصق الدم كل صباح لمدة تزيد عن ستة أشهر. وابنة غيبها الموت فـي سن الخامسة عشرة بسبب حمى لم يتمكن علم فيرّير وشيلوميت اللذين كان يعاشرهما ـ من كبحها. صبي فـي سن التاسعة دهسته عربة عانى بعدها أسبوعين ثم فارق بعدهما الحياة، ومعظم عظامه مكسّرة. يقول الجيران فـي تلك الحقبة أن إيليفاس، لم يتمكن من تحمل رؤية ابنه يقاسي الألم الشديد، قام بمساعدته ليسلم الروح بخنقه مستعيناً بخرقة ثياب مبللة أدخلها فـي بلعومه.

«التعاسة، كما يقول دائماً، هي فـي الرمل الأسود القبيح الذي يستعمله الرجل كمادة أولية لإتمام تحوله الشخصي. طبعاً، سوف لن يصبح أبداً ذهباً نقياً. مع ذلك، يشارك فـي العمل الذي سيؤدي إلى النور! عقلنا هو سرداب نحفظ فيه موتانا. ذاكرتنا مقبرة مزهرة ومشرقة».

أما جوفروا، ذلك الإنسان الفظ الدحداح، الدب الخالي من اللطافة، مع أنه يملك قلباً دافئاً ونفساً سخية، فهو لم يتوصل أبداً إلى التحكم بالأشباح التي تلازمه.

مقعد، مرهق، ومقتول. كما يفعل ذلك كل المحاربين بقناعة صافية. الجنود، الحقيرون والأندال الآخرون الذين ذبحهم بحد سيفه التحقوا كلهم بذكرياته فلا يشوشون أبداً لياليه. ليس هم. بل الآخرون.. الأخوة، الأصدقاء، تيفين، إيميلين.. نعم هؤلاء الضحايا البريئة الذين يثقلون قلبه..

لقد أنهى كأسه.ويريد أن يملأه من جديد. يشعر بقليل من الدوار. مع ذلك ينهض، الساقان ثقيلتان ومرتجفتان.

*

* *

ـ أترى، روبرت، لو راهنت لكنت قد فقدت رهانك!

ـ لم يبقَ لسيدنا سوى بعض الأذرع البائسة كي يصل إلى نافذة بناء سانت ـ أومير، على ما أرجح.

ـ لن يبقى له سوى القيام بحركة بسيطة حتى يضع القدم على حافتها.

ـ هاه.. لايمنع أن المبادرة لن تكون منتهية، مع ذلك سيكون عليه التمسك في إطار الباب، كما تفعل العنكبوت إذا كان لا يريد الانزلاق على طبقة من الثلج المتراكم على الحافة.

ـ يا لها من أعجوبة تستحق التأمل! انظر إليه.. يرفع نفسه بقوة ذراعيه فقط لبلوغ المعينة. وها هو! الوحش سيقفز إلى شقة الشامباني وينتزع يده اليمنى بضربة مخلب!

10
السقوط

جوفروا يرى الشبح الكبير الداكن واقفاً خلف الزجاج ولايفهم ذلك، ذهنه المشوش بفعل الكحول يجعله يتأخر عن إدراك ما يتهدده.

فهو لم يعِ ما يحدث إلا عندما تحطم الزجاج والخشب قطعاً متناثرة تحت تأثير ضربة فأس. حتى أنه شعر ببعض المتعة بفعل ذلك.

- باسم القديس يوحنا، الوجه الظليل! جزار البابا..

دخل الرجل فجأة الغرفة. وبقفزة واحدة وصل واقفاً على بعد ثلاث خطوات من الفارس، سلاحه في طرف ذراعه مستعداً للضرب.

جوفروا يتجنب الضربة بواسطة طاولة صغيرة حطمتها الفأس، يدخل فوراً وسط المعركة. منقضاً على خصمه بكل عضلاته القصيرة والطويلة، مثل مصارع. القاتل يتراجع تحت الصدمة، متحيراً لردة الفعل غير المتوقعة.

- والآن بالمبارزة جسداً ضد جسد يجب قهرك، أيها الطماع المستغل للمصائب! بعيداً عن فأسك.

يمنع الشمباني عدوه من استعمال الفأس ممسكاً قبضته، شاداً عليه في ملزمة يده اليمنى، بينما يحاول نزع قبعته باليسرى.

- أرني وجهك، كي أعرف من الذي يبحث عن قتلي!

وفي هذه المصارعة الثابتة كإثبات للقوة التي يظهرها الرجلان القويان، يتوصل جوفروا إلى كشف وجه عدوه.

نظرة ملاك، بريء، نظرة مليئة بالحزن العميق الحارق الذي تكذبه ابتسامة تطيل شفتيه البشعتين البعيدتين عن أن تكونا شفتي رجل.

مع ذلك جوفروا لايقدر على الشك بذلك إنه يتصارع فعلاً مع فتى.

ـ كم أنت فتي! هذه الندبة.. إنه أخي باسيل لوهارني الذي سببها لك. لو كان بمقدوره قطع رأسك!

ـ ستلتحق به قريباً، يجيبه الصوت الرقيق الأنثوي المتعب، هو وآرسيس دوبريين اللذان يتعفنان في الجحيم حيث وجدا مكانهما كمرتدين!

تشاذًا، وجهُهما قريباً جداً من بعضهما، على شكل وضعية تقبيل. لم يتوقف الرجل ذو الفأس عن التبسم. هذه المعركة، التي يعتبرها الآن كلعبة،مسلية جداً. الفارس لا يسترخي، يبقي الفأس مرفوعة فوقه، التي لا يمكنها السقوط عليه.

ـ أنت ميت سلفاً يا جوفروا دو سانت ـ أومير! باينس، والكونت، وأرملة بريين هم أيضاً، أنتم على قائمتي!

قوة جوفروا كقوة الثور، يتراجع حارس الدم بهدوء تحت قوة الدفع.

ـ هل فكرت أنه يمكننا أن نموت معاً ونحن متشابكان؟ يقول الفارس.

ستار يظلم فجأة نظر القاتل الذي توقف عن الابتسامة. لقد شعر بنتوء حجر في خاصرتيه.. النافذة. ما زالا يشدان بعضهما. لا أحد يفلت الآخر. النافذة.. الفراغ..

*

* *

ـ أؤكد لك يا إيلويز.. أسمع صوت تهشم قوي، والكثير من الصراخ!

ـ الأستاذ كان ما يزال ثملاً ولربما كسر الأواني!

لن أضطر إلى صعود كل الدرجات بسبب هذه الفظاعة! جيرارد يلتفت نحو المرأة البدينة ويؤنبها.

ـ أسرع! أنا العجوز وأنت تمهل الخطى..

إيلويز تلتقط انفاسها، تضع يداً على صدرها الضخم، تحرك عينيها.

ـ ذلك لأنني نحيل الجسم وأنت بدينة وهذا هو السبب.

إنه لخجل كبير أن ترغم شخصاً بوزني على ممارسة الرياضة البدنية في هذا الصباح الباكر ـ هل ستسرع أخيراً؟

ـ حباً بالله، ماذا تعتقدين أنه يمكن أن يحصل لسيدنا في برج الحمام، اللهم إلا بعض التهيؤات؟ سمعت أحدهم يقول أن العم غايتان، الذي كلمتك عنه عدة مرات والذي لا يبصق أبداً على كأس نبيذ كان يرى في آخر حياته عناكب كبيرة وجرذاناً عملاقة تسير على بطنه، أليس هذا شيء فريد؟

ـ اصعد واسكت! ـ أنت لطيف مثل سطل القاذورات يا جيرارد.

والآن، أدرك لماذا لم تحصل أبداً على زوجة!

*
* *

جوفروا أدرك أنه لن يتمكن من الإمساك طويلاً بيد القاتل. ويندهش من تمكن هذا الأخير بالرغم من فتوته ونحالة جسمه من المقاومة وبهذا القدر.

قوى الفارس تتناقص النبيذ الذي تناوله بكثرة في الأيام الأخيرة تمكن النيل من بأسه.

يستفيد حارس الدم من رخاوة الشامباني ليمسك به من رقبته.

ـ ميت مقابل ميت، يقول جوفروا، لنسقط معاً!

إنه يفكر في هوغ وباينس، يمكنه إنقاذهما بتضحيته آخذاً معه القاتل إلى الموت.

«يبقى لي ما يكفي من الطاقة للقيام بهذا، أن أدفعه وأرمي بكامل ثقلي عليه، ومن ثم نطير معا».

يبدو أن القاتل فهم ما يريد خصمه محاولته. يضاعف من طاقته ليقاومه عبثاً. جوفروا يعطي نفسه آخر رمق من الشجاعة وهو يصيح حتّى كاد أن يمزق رئتيه، ويقذف نفسه في الفراغ مع الفتى.

ينتفخ برنس وقبعة حارس الدم أثناء السقوط على شكل جناح أسود يصفق في الهواء.

يصطدم الجسدان المتعانقان بسطح المستنقع المنحدر الذي يتكسر تحت ثقلهما على شكل شظايا من الزجاج. يختفيان داخل حزمة من الماء الذي يعود ليسقط مثل رغوة في غليان.

*
* *

دخل جيرارد فجأة إلى الغرفة، وتتأفف من خلفه إيلويز.

ـ هناك شجار في الداخل، لكن مع من؟ جوفروا! أين أنت يا فارسي؟

ـ لقد قلت لك، قالت وهي تزفر من التعب، المسكين أصيب بنوبة جنون وألقى بنفسه من النافذة!

جيرارد يسرع. لينحني من مصلّبة النافذة. هناك في الأسفل حفرة في المستنقع (ثقب، جليده متفجر على ماء أسود يتماوج في آخر حركة له».

ـ جوفروا يا ولدي!

لقد اختنق صوت العجوز. إنها نفسه التي تصيح في داخله.

الشامباني لم يظهر أبداً. وجيرارد يبكيه منذ الآن.

*

* *

ـ صاح لوروي: لقد كانا فعلاً اثنين أليس كذلك. هل كان هناك جسدان؟ هل رأيتم مثلما رأيت.

ـ يمكنني القسم بذلك. لقد رأيت بوضوح سطوع شفرة فأس سيدنا!

ـ خذ الجياد إلى مسافة أقرب، روبرت احرسهما. وأنتم تعالوا معي!

ـ أنت تنوي التقدم على وجه المستنقع؟ يبدو لي ذلك محفوفاً بالخطر، الآن وقد اصبح وجه المستنقع هشاً.

ـ لنبق مسافة بيننا ونبحث عن سيدنا. الجليد شفاف. وسوف نثقبه بسيوفنا.

ينطلق الرجال الثلاثة.

قريباً:

ـ إنني ألمحهما!

يشير حارس الدم إلى أشكال غير واضحة تحت قدميه.

*

* *

القاتل يهشم الجليد ويكسره بضربات من فأسه محاولاً الخروج من تلك المصيدة، غضب شديد وعنف. البرد يعض جسده، الماء يلصق ثيابه المتجمدة على جلده.

يضرب، مسعوراً ساخطاً، يكسر الطبقة الكثيفة القاسية التي من خلالها يميز مع ذلك شبح رجاله.

أما الفارس فقد فقدَ وعيه، حارس الدم يمسكه بيده. إنه ثقل جسد ميت يشده نحو القاع. مع ذلك فليس عليه أن يفلت يده. يضرب أيضاً! يكسر سقف ذلك السجن السائل، يمسك نفسه، ويضرب أيضاً!.

*

* *

الكونت هوغ، وباينس ومرافقيهم يمتطون جيادهم على طريق محاطة بالصفصاف، يمرون عبر برية تنعق فيها رفوف الغربان كلما اقتربوا منها.

ـ ها هو برج سانت ـ أوميرا يصيح باينس بانفراج. أخيراً! لقد وصلنا إليه.

ـ ألا يبدو أن هناك أناساً على سطح المستنقع المتجمد؟ يندهش هوغ

ـ بالواقع يبدو مليئاً بالحركة من كل الجهات!

*

*   *

توصل الرجل ذو الفأس إلى فتح ثغرة في طبقة الجليد التي استلقى عليها رفاقه من قطاع الطرق ليجروه من ثيابه.

ـ نحن نمسك بك يا سيدي، أترك الفارس، وسنقوم بإخراجك إلى السطح!

ـ لاجدال في ذلك! ارفعونا نحن الاثنين. أريد خاتمه! لقد جئت من أجل ذلك!

اتخذ الرجال احتياطات كبيرة لكي لا يزيدوا من هشاشة سطح المستنقع المنكسر، وقاموا برفع جثمان جوفروا الهامد.

ـ وغد ملعون، كاد أن يغرقني! يشكو القاتل وكل أعضائه ترتعد من شدة البرد.

ـ هناك جنود! يصيح واحد من الأعوان. لنعد إلى جيادنا بسرعة!

ـ لدينا وقتنا الكافي، يطمئنهم القاتل، أنها اللحظة التي أحب أن أتذوقها، لا أتمنى أن تحرموني منها أبداً!

فتح جوفروا دوسانت ـ أومير عينيه، بالرغم من بصره الغائب ليرى الفأس ترتفع في السماء.

ـ نحن أحياء.. لقد فشلت!

الصوت المعسل ذو النبرة الطفولية يجيبه:

ـ نعم يا جوفروا دون سانت ـ أومير. لقد قهرتك وانتصرت عليك.. من أجل الحقيقة الوحيدة والمقدسة للكنيسة.

ثم يسمع الشامباني تقصف ما يشبه الخشب المكسور.

إن البرد الذي شل جسمه وأعصابه يجنبه الشعور بالألم.

ـ لا أشعر بالألم مطلقاً.

ـ دفق من الدم يملأ وجهه. إنه دمه هو.

لقد بتر الرجل ذو الفأس يده اليمنى لتوه.

تتعالى ضحكة جلاده. يده ذات البشرة البيضاء مرفوعة، إلى تحت عينيه. العلامة التي يعرفها. الرقم 3 بالإضافة إلى إشارة صليب.

ـ لنمض الآن، يقول الصوت العسلي.

أصوات وقع الخطى تتناقص. ثم يغطي الفأس صمت القبور الذي يرافقه ظلّ كبير جليدي.

جوفروا يشعر بخفقان بطيء، بعيد. هل هو قلبه الذي ما زال يخفق قليلاً؟ هل هو الموت الذي يدنو بخطى هادئة، متأكداً أن الجريح قد أضحى ملكاً له؟

«هل دنا أجلي؟»

ذلك ليس إلا دمه الذي يتدفق على شكل نبضات ايقاعية لشرايين ذراعه المقطوع.

جوفروا ينتظر. يعرف أنه قوي البنية ويعطي نفسه مهلة. من المحتمل أنه سيسمع شخصاً ثالثاً يقرع جرس القرية.

«جوفروا» نحن هنا! سنصل أيها الأخ!

إنه صوت باينس. لكن الفارس لا يستطيع رؤيته.

أصبح الظل يغطيه بشكل كامل.

«لقد فرغ جسده من دمه. ليعطني أحدهم حزاماً فأوقف النزيف..».

يعي المحتضر أن أناساً ينهمكون من حوله. لقد كانوا يربطون ذراعه. ولكن ما جدوى ذلك؟

«يجب تجريده من ثيابه وتغطيته بمعاطفنا، ساعدني يا هوغ. وعلينا أن نغسل جبهته!».

جوفروا يسمع نفسه يقول:

ـ هيا يا باينس، تعرف تماماً أن الأمر قد انتهى بالنسبة لي، لا تحاول خداع نفسك..

ـ كلا يا جوفروا، نريد أن نبقيك معنا. ابقَ يا أخي ابقَ!

والجريح يجيب في همس وصوت منخفض:

عانقني بدل ذلك، لأنني خائف جداً.. لدي التماس سأطلبه منكم..

ـ نحن نصغي إليك.

ادفنوني في قبر غابة الشرق في الأرض حيث سيمدد «الأول»... سأشاركه في نومه.

ـ نقسم لك بذلك. أيها الأخ.

الصوت لم يعد سوى حشرجة.

ـ وأن تقتلوا ذلك الشبح. . الرجل ذو الفأس.

الظل يغلق له عينيه.

11
أؤمن بنعمة الله بمجد، الله، وعدله

الرجل ذو الفأس يرتعد، لكنه لم يتألم منذ أن غادر أراضي سانت ـ أومير على رأس جنوده.

يخرج الفرسان من الغابة ويتسلقون الهضبة قاطعين أشجار الكرمة الجرداء ذات الكلاليب االقائمة، يتوقفون قليلاً عند القمة، حيث أمامهم طريقان، إحداهما يقود نحو القرية والآخر يغوص وسط غابة كثيفة.

ـ لنفترق هنا، يأمر القاتل الشاب. عودوا إلى دياركم واستريحوا قليلاً قبل أن أطلبكم لكي نهتم بالكونت وباينس. هذه المرة، الفريسة ستكون صعبة المنال.

ـ يشتهر الفارس باينس بكونه سياف لامع لا يقهر والكونت محاط بدفاع متين.

ـ الواقع، لقد رأيت باينس في القدس. إنه ليس من نوع الحيوان الذي تهاجمه مواجهة. لقد شتت عائلته، ولم يبق له سوى ابن. هنا تكمن نقطة ضعفه. الله معكم.

ـ ومع روحكم، يجيب الرجال الأربعة. الذين ينظرون إليه ينطلق وهو يحث جواده على الجري.

ـ هذا ما يدعو إلى الاعتقاد أنه يجد لذة ماكرة للتعرض للأطفال، يلاحظ لوروي. المعلّم يصفع ظهري بسبب خلوه من العطف والرحمة.

ـ لا أرى الفرق بين شاب ميت وآخر مسن، يرد الآخر. مهنتنا هي أن نقتل بأمر. حسناً، لنقتل الأطفال، النساء، والرجال! بما أن القضية مقدسة.

ـ كل ما أخشاه أن نفعل ذلك بمشيئة من الله. ان نفعل الفرق !اجاب لوروي مع ابتسامة قرف واشمئزاز.

عندما وطأت قدم الرجل ذو الفأس الأرض باحة دير سانت ـ مينهولد، يخرج الأب رئيس الدير إليه وهو يقفز واضعاً يديه على صدره.

ـ سيدي! آه سيدي، ها أنت.. لقد جاء كونت شامبانيا شخصياً يطلبك.

ـ الكونت، هنا؟ من أعلمه بذلك؟

ـ لم أتمكن من فعل شيء آخر سوى إعلامه أنك... أخيراً، أرجوك أن تفهمني، لقد كان يهددني! لقد تركته يزور غرفتك.

اقترب القاتل من الكاهن ورفعه تقريباً عن الأرض ممسكاً إياه من ياقته، وقال له:

ـ يا لك من مهارش مسكين يرتدي ثوب كاهن. هل تكلمت عن البابا؟

ـ كلا! كلا! لكن الكونت قوي وذو سلطان وهو دون شك على علم جيد بذلك. إنه صهر الملك فيليب وأخوه يكون أسقف شالون. أجهل مآخذه عليك، مع ذلك فلقد كان غضبه كبيراً!

ـ هل كان وحيداً؟

خرج بعض الرهبان بدورهم من الكنيسة وحضروا المشادة عن بعد، لا أحد يجرؤ على نجدة رئيس ديرهم، مع أن البعض يخشى من أن يخنق من قبل المجهول.

ـ هل كان لوحده؟ لقد سألتك.

ـ سأجيبك بارتياح فيما لو توقفت عن شد عنقي يا سيدي. كلا، لم يكن وحيداً، فارس آخر كان يرافقه وكذلك رجال مدججون بالسلاح.

ـ الفارس.. هل سمعت اسمه؟

ـ طبعاً، يجيب رئيس الدير ويسعل بصورة متواترة لقد ناده الكونت بـ باينس.

ـ إذن هم الذين كادوا أن يفاجئوني فـي المستنقع.

ـ عفواً؟

الرجل ذو الفأس يرفع يده عن ياقة الكاهن الذي أصبح وجهه شاحباً ومتوجهاً نحو المرآب حيث توجد غرفته!

ـ لم يعد الدير ملاذاً آمناً. سأسافر بعد قليل من الوقت. سوف لن تراني أبداً، أظن أنك ستكون راضياً عن ذلك.

الرهبان الخارجون من الكنيسة ينتظرون أن يصبح القاتل بعيداً عن مرمى نظرهم ليلتحقوا برئيسهم الذي يجد صعوبة فـي التنفس، منحنياً على شكل اثنين، متابعاً السعال. قال لاهثاً:

ـ لم أصادف أبداً مخلوقاً بهذا الشكل. هذا الرجل سكن عندنا من قبل، يبتسم لكم مثل

ملاك وينظر إليكم مثل شيطان. لا أجرؤ على تخيل أي نوع من المعاملة يقيمها مع الحبر الأعظم.

ثيابه كانت مبللة ولم يكن يبدو لي أنه يشكو بالرغم من شدة البرد.

ـ إلى درجة التساؤل ما إذا كان قد تألم لمرة في حياته!

*
* *

لقد خلع ثيابه بشكل كامل.

ثم استلقى على أكوام القش التي تغطي أرضية غرفته، بطنه نحو الأرض، الذراعان على شكل صليب ووجهه نحو الجدار حيث يتدلى المصلوب. جسده المتماوت بسبب الحمام الجليدي البارد في المستنقع يذكّره بظروفه السيئة كإنسان. أراده الله هشاً، نحيلا، ومع ذلك يشعر برضى كبير.

ذرات القش تجرح وتعض بشرته وتمنحه تلذذاً حاداً. إماتات بسيطة تؤجج لذته.

يمسك بيده اليمنى حبلاً رفيعاً صُنعت فيه العشرات من العقد.

ـ ثم يبدأ: أؤمن بك، يا إلهي. أؤمن بمجدك المقدس، بنزولك إلى الأرض، وبحقيقتك.

وكملاك انتشائي ذي نظرة فطرية متقلبة، يبتسم بصورة فريدة، مثل طفل.

ـ وأنا الذراع الذي يدافع عن حقيقتك ضد كل المعادين لاسمك. أرجوك أن تمنحني القوة لأخوض معركتي العادلة حتى نهايتها. اجعل قلبي قاسياً وجسدي أيضاً.

يلوح في الهواء بذراعه الأيمن ويضرب بالحبل على ظهره ويصرخ، بين الألم والنشوة.

ـ أؤمن بنعمة الله، بمجد الله، بعدل الله.

يمطر الضربات بتهيج. جلده المخطط يتمزق، ينزف، يضحك ويبكي.

ـ أؤمن بنعمة الله، بمجد الله، بعدل الله.

وفي نهاية دقائق طويلة من العذاب، يقف، يرسم إشارة الصليب بإبهامه على جبينه، وآخر على قلبه يطوي الحبل ويعيده إلى محفظة صغيرة من الجلد، ثم يتوجه نحو سريره قبل أن يستلقي عليه ليرتاح، ينظر تحت الفراش.

ـ ويقول فيه نفسه: طبعاً. لقد عثر الشامبانيون على قائمتي!

يرتمي على فراشه. يغمض عينيه ويغط في نوم عميق.

12
الخاتم الثالث

كان جثمان جوفروا قد نقل إلى قصر كونت شامبانيا وسجّي في كنيسته، مدد على مذبح كان قد أعد للمناسبة، لوح سميك من الخشب على قوائم مغطات بقماش أبيض.

في الزوايا الأربع للمذبح وضعت شمعدانات كبيرة. الإخوة في المحفل الأول وكذلك السيدة هيلين وزوجة الكونت كونستانس ومورين جاؤوا لينحنوا وليتأملوا الجثمان.

يبدو وجه سانت ـ أومير الممتلئ كأنه نائم. لا توتر ولا أي علامة للألم. وحدها بشرة وجناته انتفخت قليلاً على عظامه. وزوايا شفتيه هبطت قليلاً.

ـ وصلنا متأخرين جداً، يا عزيزتي، يقول هوغ لزوجته التي يضمها بين ذراعيه. القاتل الذي يطاردنا منذ عودتنا من القدس انتهى من عمله. لقد مات الفارس جوفروا بين ذراعي أنا وباينس.

ـ أخشى أن أفقدك أيضاً يا زوجي. كل صلواتي ستبقى دون جدوى أمام قاتل من هذا الطراز.

ـ علينا إيجاد وسيلة لنصب فخ لهذا الذئب!

ـ دمدم باينس من بين أسنانه: إذا لم نتمكن من الوصول والقضاء على هذا الوحش، سيكون من الضروري مهاجمة سيده!

يبتعد الكونت بهدوء عن كونستانس مصطحباً باينس إلى مؤخرة الكنيسة.

ـ عندما تتكلم عن سيده، هل تفكر حقيقة بالبابا؟

ـ نعم. أليس هو شريكه؟ إنه من يمسك برسن هذا الكلب! يبقى البابا باسكال بعيداً لكنه يستفيد من حصة الكلب. سنذهب بحثاً عنه.

ويطلب الكونت بصوت منخفض:

ـ كيف كنت تتصور أن نتصرف فـي هذه المشكلة؟ البابا لن يصغي إلينا، سينكر تحريضه على هذه الحرب السرية.

ـ هذا المساء سأعرض مخططاً على المحفل. لنأمر بعودة إيليفاس من غابة الشرق ليكون شاهداً على ما نحن عازمون عليه، سوف لن أدفن أخينا جوفروا إلا بعد أن أقتص من هذا البابا القاتل! عندما يجثو على ركبتيه! سترى يا هوغ، أنه سيتوسل إلينا وسينقلب ضد حراس الدم إذا كان ينوي البقاء على قيد الحياة.

يأخذ هوغ صديقه من كتفيه، ويخفض صوته قائلاً:

ـ أتنوي مهاجمته جسدياً؟

ـ كان علينا فعل ذلك منذ زمن طويل، كانت لدينا الوسائل. كان ذلك ضعفاً منا. حين تصرفنا بإنسانية باعتبار أن الكنيسة سوف توقّرنا.

بعد فترة قصيرة، يهمس باينس، عارفاً أن الكونت قادر على فك شفرة الكلمات حسب حركات شفتيه:

ـ أقسم على جثمان جوفروا، وكذلك على ذكر آرسيس، باسيل، تيفين، وإيميلين أنني سأجبر الكنيسة على الاعتراف بأخويتنا! أقسم بالمسيح أن الكنيسة ستصبح خادمة لنا وأننا سنخضعها لإرادتنا. أقسم بـ I.N.R.I.

*

*   *

فـي ريمس. الوليمة تنتهي على مائدة الإسقف. كانت الأطباق عديدة ، لكنها مقدمة بكميات صغيرة قصد عدم إهانة مهابة البابا. هذا الأخير ودوم مستراني كانا قد تلذذا بكعكات الفول المليئة بالتوابل، الحنكليس المشوي بالنبيذ مع قطع من البصل الضخم الأحمر، الحمل الرضيع المشوي على الجمر والمقدم على طبق من أوراق الملفوف الطري المقلي بشكل جيد والذي ما يزال هشاً، وأفخاذ الدجاج المشوية المرقوقة بالكستناء، الزبيب وشراب النبيذ، العسل المنكه بالقرفة، اللبن الرائب الجامد، والجوز المرّ.

فـي الصالة الرحبة التي تدفئها مدخنتان، تناول الرجال الثلاثة الطعام بصمت ولم يتبادلوا سوى ما ندر من الكلام المصطنع والمتوافق عليه حول مذاق الأطباق أو بموضوع هذا الشتاء العنيد الذي يبدو أنه لا يريد الانتهاء.

راق للحبر الأعظم أن ينظر من زاوية عينه الإسقف الذي كان يتحرق رغبة للبدء بمحادثة عن علاقة أكثر بوضعهم.

أبداً لم يعينه فـي ذلك، مبتسماً فـي نفسه من هذه الدعابة. باسكال لايحب هذا الإسقف الصارم العبوس، المتواضع زوراً.. الفضولي بشكل فاضح..

لكن الإسقف لايقيم حساباً لذلك، يتسلح بالشجاعة ويقول بنبرة مراوغة:

ـ أفهم، أيها الحبر الأعظم، أن لديك أسبابك لتبقيني بعيداً عن الشؤون التي تبقيك في شامبانيا، مع ذلك افترض أنني أسأل نفسي. وطبعاً، أقول لك هذا مع كل الاحترام الذي يجب أن يكنه أبن لأبيه.

ـ يجيب البابا بسخرية: لا أفهم ذلك بغير هذه الصورة. لا تضمر أي حقد يا سيدنا، أنا ضيفك وأقدر خصالك وبالرغم من ذلك، لا يمكنني إعلامك بأي شيء. أقول لك هذا مع كل العطف الذي يجب أن يحس به أب نحو ابنه.

بظهره المدور المنحني، يتظاهر الإسقف أنه لم يكن قد تأثر بضربة المخلب ويتابع:

ـ لا أنتظر أقل من ذلك من أمير الكنيسة التي أكن لها الاحترام الصادق.

ـ ماذا علي أن أكشف لك؟ بعض المسائل تفرض أسراراً وفطنة كبيرين، ولا تجد حلها إلا في السرية المطلقة.

ـ في المقابل ثمة راهب بسيط يزورك باستمرار ويبقى معك أوقات طويلة، بينما المحادثات النادرة التي توافق على إعطائي إياها عادية وليست ذات شأن. هل من الممكن أنك لا تحكم علي أنني جدير بتلقي بعضاً من أفكارك وآرائك وتنويراتك؟ أؤكد لك أن ذهني منفتح كفاية وسيصبح دون شك أغنى إذا ما عرفت انك تتكرم بجلبها له.

ـ أنت تضفي عليّ صفات كثيرة، يقول البابا. هي بمثابة ثوب فضفاض!

دوم مستراني يحضر المشادة وهو ينزع قشرة بعض ثمار الجوز التي يخرج لبها.

ـ أتكلم عن الكاهن دونيس العطار والاختصاصي بالعلم العبراني، يتابع الإسقف الرجل الذي معرفته معترف بها طبعاً، لكن الذي يقال عنه أنه من أتباع الباطنيين الخطرين على الروح والنفس.

يرفع البابا يداً تعبة:

ـ يرددون أشياء كثيرة بخصوص عقول لامعة! يمكنني أن أؤكد لك أنني قابل للاعتراف بروح طائعة ستكون محاطة بالقوى الشريرة. كن مطمئناً يا سيدنا: الكاهن دونيس ليس ضحية القوى المخربة الضارة، هذا الرجل الشهم لديه العقل المنحرف تماماً، وإذا كان يبدو ذلك طبيعياً لملاحظ قليل الانتباه، فذلك بسبب المعارف الكبيرة التي اعتاد عليها.

يتهيأ الإسقف للمعركة عندما سبقه مستراني:

ـ قداسة البابا، أليست هذه ساعة قيلولتك؟

يقول البابا ناهضاً مبتسماً:

ـ أنت محق، يا دوم مستراني. معذرة يا سيدنا، سأنسحب إلى غرفتي. أحرص على شكركم مرة أخرى على نوعية الإستقبال الذي حبيتموني به.وأيضاً من أجل تكتمكم!

ـ سأكون بتصرفكم يا أبتي، يدمدم الإسقف.

ما أن خرج دوم مستراني من الصالة، حتى التفت البابا نحو رفيقه للاعتراف:

ـ لقد أوقفت هذا النقاش بكثير من المهارة يا صديقي.

ـ أنا؟ هيا، كنت أقلق فقط على صحة الحبر الأعظم!

ثم يعود قداسته إلى غرفته، وبينما يدخلها كان يرتعد برداً، كما رأى أن النافذة كانت مفتوحة.

ـ لكن الطقس بارد جداً هنا! آه، لقد تسببت الرياح في فتح النافذة.

وهو ذاهب ليغلقها، يلاحظ بقلق وقع أقدام آثار ثلجية على الأرض.

ـ وقع خطوات!

الرجل ذو الفأس جالس على مقعد صغير بحرية مطلقة، كيسه الجلدي موضوع على ركبتيه.

ـ احتراماتي يا قداسة البابا.

ـ يا لها من عادة مغضبة تسلكها في الدخول إلى قصري كأنك ظل!

يرمي القاتل الكيس على قدمي البابا.

ـ ظل! طبعاً لأنني غير موجود!

ـ هل أنت تذلني لترضي نفسك؟ أنت ترمي لي هذا الشيء مثل عظم تلقي به إلى كلب جائع!

ـ اقتل من أجلك يا أبتي. أعتقد أن بمقدورك الانحناء لالتقاط ما هو لك.

باسكال يمسك بالكيس قائلاً:

ـ ثق لو أنه كان مقدوري الاستغناء عن خدماتك أنه لو لم تكن الكنيسة في خطر، لكنت أصعدتك فوق المحرقة.

ـ أعرف. لقد اخترت أن تكرهني عوضاً عن أن تمقت نفسك، أنا جزء منك.

ـ بمن يتعلق الأمر هذه المرة؟

ـ جوفروا دوسانت ـ أومير. لقد قاتل الفارس ببسالة كاد أن يأخذني معه إلى الموت، لقد تصرف كرجل شجاع وخصم عنيد!

بحركات بطيئة، يأخذ الحبر الأعظم يد الشامباني ويضعها على الطاولة قرب المدفأة الجدارية.

ـ عقدنا، أيها الأب.

ـ نعم علي أن أخرج الخاتم، وأنسخ رسم الإشارة المقدسة، بهدف إبقاء الأصلية لدى حراس الدم.. تقاسم الحقيقة والمعرفة معكم! كل هذا رمزي فقط، ألا تجد ذلك؟

ـ أنا لا أزيد على علمك علماً إذا قلت لك أن كلمة رمز تأتي من اليونانية Symbolom، يبتسم القاتل.

ـ Symbolum فـي اللاتينية، يضيف البابا وهو يخرج الحجر الثمين الأحمر من قطعة كفن توما.

ـ لاتينية أم يونانية! يمزح القاتل فـي كلا الحالتين شيء كان يتقاسمه ضيفان فـي القديم فـي قطعتين، كانا يحفظان كل واحد ما يعود له، لينقلوه إلى ذريتهما. ذلك ما يسمح للعائلات بالتعارف فيما بينها والالتقاء. هكذا، الكنيسة وحراس الدم سيبقيان متزاوجين لأبد الآبدين كلاهما متقيد باحترام تعهده.

بينما كان ينسخ بشكل دقيق الشارة الموجودة على قطعة الكفن، يضيف باسكال:

ـ يحصل أن بعض الزيجات تنفصم.

ـ سيكون ذلك مميتاً للطرفين، أبتي علينا أن لا نتمنى ذلك!

ينهض الرجل ذو الفأس عن مقعده ليأتي ويقف خلف البابا لينظر من فوق كتفه الرسم الذي هو قيد نسخه.

ـ هذا الرسم مركب من أربعة أحرف I.N.R.I، يقول باسكال، أليس مدهشاً أن يسوع قد استعار الأحرف الهجائية الرومانية لكي يموه ويخفي سره؟

ـ لا يهمني حالياً المعنى المقصود بهذه الإشارات. يعود إليك اكتشاف المعنى، فـي حين أن مهمتي تقضي بأن أسرقها.

ـ لا تحسبني رجلاً ساذجاً، أشك أيضاً أنك أنت مثلي متلهف لحل واكتشاف سر يسوع.

ـ أو إزالته نهائياً!

يعيد البابا الخاتم وقطعة الكفن إلى الشاب، ويعلن له هذا الأخير:

ـ يلزمني ملاذ آخر، الكونت هوغ وباينس اكتشفا الدير، ولأسباب أمنية لا يمكنني مشاركة المكان مع أحد من رجالي.

ـ طبعاً! سنجد حلاً لهذه العقبة، لكن كيف تمكن الفرسان من الوصول إليك؟

ـ أجهل ذلك، يملك الكونت دعماً كبيراً والأمر محتمل.. عليّ خشية هذا الرجل. سأكتب رسالة موجهة إلى رئيس الدير فـي هونفيلير على مسافة ساعتين على الجواد من ريمس وستكون هناك فـي مأمن.

ـ آمل ذلك. كنت أعتقد أنك ستطمئنني بأن لا أُكتشف أبداً حتى اليوم، لقد قللنا من أهمية خصومنا.

ـ نحن نبالغ بالفطرسة والتفاخر يا بني. خاصة عندما نحسب أنفسنا كأناس لا يقهرون.

نبرة الحبر الأعظم كانت لاذعة. يرد عليها القاتل على الفور:

ـ ليس الزهو والتبجح هو ما يحركني. أترك هذا إلى السياسيين وأساقفتك.

القضية التي أدافع عنها هي قضية الله، هل نسيتها يا أبتي؟

ـ كلا، بكل تأكيد.. الله! بجلاء لأجل الله مثل الحروب الصليبية التي نقوم بها في فلسطين، التي ليست إلا نفاقاً ورياء وتصنعاً، التي يهرع إليها ملوك صغار مولعون بالمغامرة ومتعطشون إلى الذهب.

يعود القاتل إلى النافذة، التي يتهيأ لاجتيازها، يوقف حركته. يوجه له البابا أمراً:

ـ كن حذراً مع ذلك، لقد أججت الحقد في قلب ما تبقى من الفرسان، باينس والكونت سوف يسعيان جاهدين لجعلك تدفع غالياً ثمن موت ثلاثة من أخوتهم.

ـ لا يمكنهم أن يشكوا أن لدي رجل فيما بينهم وهو أحد النجارين.

يضع القدم على حافة النافذة وقبل أن يختفي يقول هذه الكلمات الأخيرة:

ـ إذن سنتقابل قريباً يا أبتي.

ـ بالفعل، أخشى ذلك، في الحقيقة.

يصل باسكال إلى زجاج النافذة بخطوتين. لم يكن لديه سوى الوقت اللازم ليلمح على يمينه طرف معطف الرجل ذي الفأس الذي يرفرف على طرف إفريز يسنده مسندان مقطباً وجهه بطريقة ساخرة.

ـ لنمجد الله ونسبحه!

13
الذهب

أزاح شيلوميت الستار الأسود

ـ اقتربي يا سيدة هيلين،، وأنت أيضاً يا مورين، بما أنك كنت تتلهف رغبة لمعرفة ما نخبئه فـي هذه الغرفة. ينظر الصبي، الذي سبق أن ألقى نظرة سريعة على المعمل الصغير. وهذه المرة ينظر بانتباه كبير ويدهش لوجود الغرفة أكثر ضيقاً مما تصورها.

ـ لم أخطئ. يقول الصبي، ما آراه أحس كأنه فعلاً من الذهب، أليس كذلك؟ مثل ما يغلي هناك.

ـ بالفعل يا مورين، يجيب باينس: إنه الذهب.

ـ انظر يقول شيلوميت آخذاً بواسطة حوجلة صغيرة حفنة من الرمل الذي يذره أمام المرأة الشابة والطفل. كما أنه يمكننا أن نصنع الزجاج من هذا الرمل السيليكي العادي الذي نذيبه مع البوتاس والصودا، سنكون قادرين على الحصول على الذهب بطريقة مشابهة.. نسكب كمية محددة من الرمل بعد تحوله إلى عجينة في هذا الفرن، ثم نخضعه لمالجات مختلفة فـي هذه السلسلة من الآنية المتصلة فيما بينها بواسطة أنابيب من الرصاص، سيخضع هذا الملاط الفريد لمعالجات مختلفة وترسبات فـي أحواض، ثم نعرّضه مرة ثانية لدرجة حرارة عالية. هذه العملية يطلق عليها اسم «التصعيد». قبل تصفيته عبر هذه المناخل المخروطية الثلاثة، سنتلقى العنصر الخامس فـي هذا الفرن الثاني، حيث يصبح حساء أصفر الذي سنرفعه إلى درجة الغليان مدة ثلاثة أيام وثلاثة ليال.

ـ عندئذ تتم عملية الملغمة بواسطة الزئبق والكبريت ونثبتها على شكل ذهب، يقول فيرّير.

ـ إنه نوع من الشعوذة أو السحر! تقول هيلين متعجبة.

ـ كلا يا هيلين يرد عليها الكونت مبتسماً. كان المسيح قد تثقف بهذه المعرفة من العلماء المصريين الذين أسروه في الجمعية السرية للبنائين والعلماء في دير المدينة.

كرس يسوع كامل طاقته وذكائه لأبحاثه، يضيف باينس. المصريون من ناحيتهم كانوا قد اقتربوا من التحول لكن دون أن يصلوا إليه. تعرفون أن المسيح أوحيت له الصيغة وهو في قبر توما. كرس فيما بعد حياته كاملة لكي يطبق هذه المعادلة. إنه الكيميائي الوحيد الذي أنجز أضخم عمل.

ـ I.N.R.I تطبق على المادة المعدنية كما على المادة العضوية، ينوه شيلوميت.

ويتابع باينس:

تفهمان الآن لماذا تلاحقنا الكنيسة، نحن ورثة أخوية يسوع، نحن نملك السلطة العليا على الموت والطبيعة!

ـ نعتبر أن الزمن لم يحن بعد لتوزيع هذه المعرفة على البشر، يقول هوغ بصوت عال. من الممكن من ناحية أخرى أن لا نفشي هذه المعرفة أبداً في المستقبل.

صوت رزين وقوي وخشن، يفاجئهم جميعاً:

ـ العقل يكشف أسرار عجائب الطبيعة.

يلتفتون. إيليفاس يبتسم لهم وعيناه تلمعان خلف العدسات. ما زال يوجد بعض الثلج على كتفي معطفه، بسبب المسافة التي قطعها انطلاقاً من غابة الشرق، يلقي السلام على السيدة هيلين، ثم مورين واضعاً يده على شعر هذا الأخير.

ـ تبدو متعجباً أيها الصبي!

ـ الواقع، كيف يمكن أن يكون لي غير هذا أيها المعلم إيليفاس؟

ـ ماذا؟ كل هذا لأننا نصنع هنا قليلاً من الذهب؟

كل ما تنتجه الطبيعة يمكن تقليده من قبل البشر (الإنسان) فيما لو كان هذا الأخير جيد الملاحظة لأسرارها.

ـ أنت تهزأ بي! يشكو مورين. الطبيعة سخية بالظواهر التي ستبقى إلى الأبد ألغازاً عميقة.

ـ أؤمن بالله وذلك يربكني، تقول هيلين.

ـ لكننا كلنا أيضاً نؤمن بالله، يتابع إيليفاس دون أن يترك ابتسامته. هذا العلم هو من جوهر إلهي. يستمد أصوله من غابر الأزمنة، من الله نفسه! الله كان موجوداً قبل البشر! قبل أن يخترع هؤلاء بزمن بعيد جداً الديانات المعدة لوضعه في قفص!

ـ لقد حدثتنا عن حكماء أخوية دير المدينة، يقول باينس. وقد تعلم يسوع على ضوء

تقليدهم، فشرب منه كما تشرب من النبع الأصلي للمعرفة. هذه الجمعية من البنائين والإكليروس، تشكلت طبعاً أيام السلالة الثامنة عشرة، وكانت على مقربة من الأقصر إلى الشمال من إدفو. في هذا المجتمع كان الرجال آنذاك يدعون «خدم في ساحة الانسجام» أو «خدم المنصب الرفيع»، يتوصلون إلى قاعدة خاصة كانت تضع عملهم على علاقة مباشرة مع ما هو إلهي. بالنسبة لخادم المنصب الرفيع فإن الفن والتوازن والتناغم كانت جميعها من أصل إلهي. الإنسان، العامل الماهر كان يتلقى من الآلهة الوحي الذي يجسده عبر عمله. كان يمنع نفسه من ادعاء أبوة أو ملكية عمله، وكان يجهد في إعادة التركيب مستعيناً بتعليم متيقظ وسط جماعة أخوية ومنظمة، جماعة متدرجة، لها أسيادها والمبتدئين فيها. العامل الماهر، بواسطة تدرّبه، كان عليه التقدم وصعود الدرجات المؤدية إلى المعرفة. هنا يكمن السّر الحقيقي للتدرّب، ظاهرة مقدسة ومادية في آن واحد، وهي توحد العقل مع الحركة، فهي تكرس العمل، نافخة في الإنسان الشعور الواجب عليه القيام به. التدرّب المصري كان يفتح ذهن الإنسان على فكرة أن المخطط موجود، وأنه كان دائماً موجوداً. وأنه من واجب العامل الماهر أن يفك رموز حوافه، وبالأحرى لدى قراءته المخطط الكوني الذي يبدو لنا أحياناً، أننا نقترب من التناغم، القوة، الحكمة، الجمال. كان المعماري المصري يعرف أنه لن يبلغ أبداً التوازن النهائي ولن يبلغ الكمال في فنه. حدود الفن لا يمكن بلوغها من قبل فرد واحد. ولهذا السبب، وبما أن الحياة البشرية قصيرة جداً. كان المصريون قد أسسوا هذا النوع من الجمعيات التوجيهية من البنائين. فالكبار كانوا ينقلون معرفتهم إلى الأصغر سناً من المشاركين مخلدين التقليد، معلمين إياهم القاعدة أو نظام الأخوية المنسوخة على صورة الدورة الشمسية.

ـ تقاطعه هيلين:أعتقد أني فهمت. أنت تصف لي أخويتكم بينما تتكلم عن أخوية أولئك المصريين. وإذا كنت لا أفهم كل شيء في خطابك يا صديقي، فإني مع ذلك أفهم أن المحفل الأول الذي كان زوجي المرحوم آرسيس يشكل جزءاً منه إلى جانبكم، هو أخ لتلك الجمعية من البنائين.

ـ أنت امرأة ذكية يا هيلين، يطمئنها باينس، وأنت تدركين بوضوح ما أشرحه لك. نعم، نعم، المحفل الأول الذي أسسه يسوع كي لا يموت التقليد كان فعلاً قد ولد مما تعلمه من دير المدينة.

ـ مع ذلك، تضيف هيلين، اعتقدت أن المسيح لم يكن قد ترك معرفته لأخوته في عنصر واحد ووحيد. ألم يقسمها إلى قطع؟ ألم يكن عليكم الذهاب إلى القدس لكي تجمعوا بعضاً من هذه القطع انطلاقاً من مخطوط جوزيف الأريماتي؟

ـ في الواقع، يتابع باينس، كان يسوع قد قسّم معرفته وترك منها بقايا باللاتينية، اليونانية والعبرية. بهذا الخصوص ليس من المستغرب تحديد طريقة عمل أخوية دير المدينة،

المؤلفة من أعضاء يتراوح عددهم حسب الأبنية والأعمال والمنشآت التي يجب تشييدها. فخدم المنصب الرفيع كانوا «رجال الطاقم». وكانوا مقسومين إلى جهتين: اليمين واليسار كما هو الحال على سفينة مصرية. الحائز على اللقب كان يتطلب أن يُقبل فـي الجماعة ويُستقبل فـي ورشة. وهناك مراقبان يطرحان عليه العديد من الأسئلة المدنسة منها والمقدسة. إذا ما نجح فـي الامتحان، سيكون هناك اختبار أخير ينتظر القادم الجديد. فقد كان يتم تقديم قارب له على شكل قطع منفصلة، عليه أن يجمع القطع بترتيب صحيح. هذا التمرين يفسر مرة أخرى أن المخطط كان موجوداً قبل ذلك، حتى لو حُطِّم أو مُزّق، وهذا المخطط الإلهي سيبقى دائماً جاهزاً لإنارة عقل وذهن ويد الإنسان. القوة الخالقة والتقنية المتقنة يجب أن تسمح للمتدرّب المصري استعادة المعنى الكوني للتناغم الإلهي. عبر العمل يكتسب الإنسان المعرفة، وعبر التدرّب يبلغ المقدس. التدرّب يكتب لنا فـي مخطط العمل، مع الآخرين ومن أجل الآخرين، نفتح عيوننا على طريق جديدة. دين الأخوة الحقيقي الذي يعرض علينا لغة كونية مكونة من رموز.

يتوقف باينس لبرهة. ينظر إلى أصدقائه واحداً بعد الآخر ثم يتوقف عند مورين الذي فاجأته كلماته بالحماس الذي نطقها بها. لم يسبق للابن أن سمع والده يتكلم بهذا الكم، وبصوت حازم بهذا القدر، حار وذي نبرات مستمرة رقيقة.

يدرك الطفل أن أبيه هو رجل مزدوج، وأنه ينتمي إلى كل من عائلته وأخويته، ذلك المحفل الأول! وأنه هنا فـي هذه الجمعية السرية، الرجل الفصيح الذي يصغي إليه أصدقاؤه بصمت، باحترام كبير! حتى كونت شامبانيا يقدم له الاحترام والتقدير هنا أيضاً.

يتابع باينس:

ـ نحن ورثة التقليد، أبناء النفحة الأولى، نحن نشكل جزءاً من كل مجتزئ، منتشر عبر المكان والزمان. نحن نتأمل بدهشة وإعجاب النجوم التي تغطي سماء هيكل الطبيعة، والذي يدعونا لرفع ذهننا دون توقف ونحلم فـي نفس الوقت بالحنين للماضي متحمسين لهذا السر: من حيث نأتي، وإلى حيث سنعود، إلى هذه الحقيقة المطلقة التي لا يمكن إدراكها، كان على العلم أن يحاول الإختراق دافعاً حدود المعرفة عند كل اكتشاف. لأن هناك منطقة فـي الكون ـ من كوننا ـ لايمكن للعلم أن يصل إليها والتي تقع فـي المجال النفسي ، حيث كان يسميه البعض الروح. والكون هو رمز بكامله متضمن ذاته إنه مخطط لغزي يُقدَّم على أنه حقل تجارب واكتشاف. وسيكون بحثنا إذاك مثقلاً بأسئلة لا تحصى ، والتي لا تستدعي الأجوبة بالضرورة، لأن الكثير منها يقع خارج نطاق فهمنا. مع ذلك، نحن متسائلون قلقون أحياناً، وباحثون محبطون، نسجل اسمنا أيضاً فـي التقليد عبر عنادنا فـي المطاردة والبحث عن الحقيقة. الأسئلة التي نطرحها اليوم سيعاد طرحها من قبل آخرين، هم المفتونين بمعرفة جديدة، بعلم أكثر دقة وقد يجدون تباشيرمخطط

إجمالي للجواب. اليد الملطخة بالوحل التي وضعت فـي الماضي علامة على جدار مغارة، رمز أول تقديري لوعي ذكي، لم تفارق أبداً ذاكرة البشرية، ذلك الكائن البشري المبتدئ فـي وعيه وقّع هناك انتماءه إلى جماعة. لقد طُبع بطريقة لا تمحى تلك الصورة ليد ممدودة لأمثاله عبر القرون. مثل قبضة من الأيدي فـي سلسلة اتحاد تصل الأحياء بالأموات، التي تجمع أولئك الذين بنوا وشيدوا بالآخرين الذين سيتابعون العمل.. لأن التعليم هنا جلي بشكل خاص يقدمه لنا التدرّب: وجودنا عابر زائل، غير أن عملنا يبقى أزلي دائم. نحن ننقذ الكنوز المحفوظة من قبل إخوتنا الكبار. نحن ندرك الآن فـي تدريبنا أن العلم آنيّ وبشري فـي حين أن المعرفة هي من اختصاص إلهي.

المعرفة وحيدة فريدة تشمل كل العلوم.

كل شيء موجود فـي تلك الجزئية البدئية، تلك البويضة الأولى حيث يتجانب المتناهي فـي الصغر والمتناهي بالكبر. الحياة والموت. كل شيء وضده، الله والعدم. كل شيء هو فـي هذه الكلمة، اللغز الذي لا يمكن وصفه الذي يسجن العقل ويفرض على الإنسان بأن يمد باستمرار يده نحو الله، باحثاً عن مرشد، عن سند، عن بداية لجواب مؤاسٍ بأنه ليس سوى كائن آيلٍ الى الفناء،من الذي سيمنعه من أن يغرق فـي جنون حتمية غير مقبولة. الموت والحياة مثلما هو الرمل بالنسبة للذهب!

عندئذ كل الرجال قاموا بحركة الاتحاد فـي صورة إيقاعية أعجبت هيلين وموريِن: يرفعون يدهم اليمنى راحة مفتوحة، على مستوى قلبهم، وينحنون ثم، بصوت منخفض وببطء ينطقون بهذه الكلمات:

ـ بجسد ودم المسيح، بالرمل والذهب، ليبقَ التقليد من أجل مجد المعرفة!

يقفون، يرى باينس أن السيدة هيلين شاحبة ومرتعدة، يقترب منها، ويمسك بقبضتها ويطلب منها:

ـ أخشى أن تكوني قد فهمت بعضاً من كلامي كخطاب عدائي أو نقد لاذع، أليس كذلك؟

ـ حقيقة، لقد أوقفت روحي أكثر من مرة يا باينس، هل تحسب حساباً فيما لو أن واحداً من ممثلي الإكليروس كان يسمع جزءاً من الألف جزء مما قلته، فإنه سيسلمك مقيد اليدين والقدمين إلى المحكمة، التي ستحكم عليك بالمحرقة.

يتدخل مورين بالقول، وقد أحمرت خدوده بسبب بقائه لفترة طويلة قرب الفرن:

ـ الكنيسة تفعل جيداً بمحاكمة وحرق الرجل ذو الفأس وأعوانه، ستكون تلك عدالة أسلم وأكثر حكمة يا سيدة هيلين!

إيليفاس يضع يده النحيلة على شعر الفتى ويفرك الجمجمة قائلاً:

ـ أنت بذرة طيبة يا بني! لكن السيدة هيلين ترد حسب معتقداتها وعاداتها وتقاليدها.

من غير الحكمة من جهتنا أن نؤنبها على ذلك. بالمقابل أنا متأكد أنها ستحترم فلسفتنا كما نحترم فلسفتها.

حتى لو أن ضميره اهتز قليلاً! بدون شك فقد فهمت أننا نحن المؤتمنون على الدين الحقيقي دين الحب الذي نقله لنا المسيح. سنناضل ضد الكنيسة التي خانت يسوع.

ـ عقّبت هيلين قائلة:أنت رجل رائع يا معلم إيليفاس. من جهة أخرى أنتم جميعاً هنا، أصدقاء رفيعو المستوى وأنا مدينة لكم بالكثير. كنتم تحبون زوجي آرسيس كأخ، بالرغم من أنكم تعطون هذه التسمية العديد من المعاني. كل هذه الطيبة، كل هذا الحب يدفئ قلبي ويساعدني على تحمل الترمل. أنا ممتنة لكم بأنكم تثقون بي وتخبروني بأسراركم. أعتبر هذا بمثابة شهادة على احترامكم لي. كذلك، مع أن ما علمته اليوم، سيمنعني من النوم ليال طوال، أقسم لكم بأني لن أكلم أحداً عما سمعته.

لدى سماعه هذه الكلمات، يضمها باينس إلى صدره ويقبلها على الجبين هامساً لها:

ـ من الآن سأناديك أختاً، عزيزتي وأعرف أنني سأعطي هذه الكلمة دائماً معنى الصداقة!

تبتسم له بينما نظرها تغشيه الدموع.

*

*   *

لاحقاً، أثناء الليل، بعدما توجه مورين وهيلين للنوم، اجتمع الرجال في الصالة الأولى من المختبر. يُطلب من باينس الذي يعرض عليهم نيته بمقابلة البابا في ريمس، بأن يشرح لهم الفخ الذي قرر نصبه له.

ـ البابا سيفقد صوابه ويضيع بسبب الذهب! بسبب ذهبنا!

14
القصاص

الثلج الذي لم يتوقف عن الهطول طوال الليل قد تحول عند الفجر إلى مطر ثقيل حلّ على ريمس.

بعد صلاة الثالثة بعد الظهر، ما زال المطر ينهمر. لجأ البابا باسكال ودوم مستراني إلى مكتبة القصر الإسقفي. لم يتوصل الحبر الأعظم إلى إخفاء امتعاضه وسوء مزاجه، كما لم يتوقف عن التأفف والتشكي من طقس منطقة شامباني الرديء البارد والمفجع.

كان يعتقد أن تفحص كتاب فروض القداس سيسليه، لكن الحال لم تكن كذلك. يقلب الصفحات دون تفكير زافراً في كل مرة تضرب الريح المحملة بالمطر زجاج النوافذ.

حاول جو مستراني مرات عديدة فتح محادثة. لكن عبثاً أيضاً. فلقد تحصن في صمت كامل، على حواف الحذر والذهول.

ينفتح الباب فجأة على الإسقف.

ـ قداسة البابا! سيادته كونت شامباني شخصياً.. لقد دخل بقوة وطلب على الفور مقابلة معك!

ـ الكونت هنا؟ يندهش باسكال. دون أن يقدم مسبقاً التماساً بذلك؟

ـ لقد كنت أول من تفاجأ بذلك. من المحتمل أنه غادر قصره في ترويس في ساعة مبكرة ممتطياً جواده دون توقف، ومصحوباً بفارس واحد فقط.

ـ أليس هناك من مرافقين؟

ـ كلا، أيها الحبر الأعظم، اطلاقاً!

ـ ادخل إلى هذه الخلوة، بينما استقبل هذا الزائر الفريد. دوم مستراني أغلق الباب على

5
عودة الكونت

القافلة العائدة بالكونت هوغ استغرقت كل ما تبقى من النهار للوصول إلى ترويس، سائرة ببطء، متجنبة أصغر الحفر.

وما أن توقفت العربة فـي باحة القصر حتى خرجت كونستانس وهيلين.

هرعت زوجة الكونت نحو باينس الذي ترجل عن جواده، متجهم الوجه، والخدان غائرتان من التعب.

ـ يا باينس، إنني لا أرى هوغ، فهل بقي فـي شالون؟ وماذا تنقلون فـي هذه العربة؟

ـ تشجعي سيدة كونستانس..

السيدة ترفع يديها على شفتيها لكي تكتم صراخها. لقد فهمت. هيلين تقترب منها، تعانقها من خصرها، ساندة إياها.

ـ يا إلهي، لقد تعرض هوغ لمصير فرسانه، أليس كذلك؟

ـ إنه حي يرزق وسيعيش.. غير أن القاتل الذي يستخدمه البابا قطع يده اليمنى.

ـ أريد رؤيته.

ينزل الرجال المسلحون الكونت على نقالة. كونستانس التي تمسك بها ذراعا هيلين تقترب غير واعية من الجريح.

ـ قام أحد الأطباء بتقديم العناية اللازمة والجيدة، يشرح باينس بينما كانت النقالة تحمله نحو القصر. لقد نام تحت تأثير منوم ومرخ قوي. أقترح أن تضموه فـي الطابق الأرضي، حيث المعلم فيرّير وشيلوميت يمكنهم فحصه.

ـ أليس من المناسب أكثر أن يحمل إلى غرفته؟ تقترح هيلين.

ـ سيكون علينا صعود الدرج، كلا، سنحضّر غرفة فـي الطابق الأرضي.

تم على الفور إعلام الخدم بما جرى، وأعطيت الأوامر لهم، عندئذ أصبح كل منزل الكونت مضطرباً.

ـ لحسن الحظ أن أطفالنا ما زالوا عند أعمامهم، تقول كونستانس.

ـ هذا جميل فعلاً، يؤكد باينس، عندما سيعودون سيجدون أباهم واقفاً يمشي، سترين، هوغ سيتعافى بسرعة. قلته لك، لقد أحيط بعناية فائقة في شالون. أوقف النزف في الوقت المناسب قبل فوات الآوان.

ـ لم تكلمني عن الإسقف، تقول كونستانس.

المعلم فيرّير وشيلوميت، اللذان دخلا لتوهما إلى الغرفة حيث سرير الكونت، سمعوا فيرّير يتابع:

ـ نعم يا باينس.. ماذا حصل للأسقف فيليب؟ ماذا جرى؟

ـ لقد وقعنا فـي كمين نصبه حراس الدم. سأشرح لكم فيما بعد.

ـ لكن الإسقف؟ تلح كونستانس.

باينس يتنهد. كان بوده مراعاة النساء وتجنيبهم إثارة موضوع المجزرة.

ـ فيليب اغتيل تحت نظر أخيه.. الرسالة التي أوصلها له هذا الصباح أملاها القاتل ذو الفأس الذي أبقاه سجيناً فـي شقته الخاصة.

هيلين التي تمسك دائماً كونستانس وهي تضمها إليها، تمنع هذه الأخيرة من السقوط. لقد فقدت المرأة الشابة وعيها وأغمي عليها بين ذراعيها.

فليحمل إلى غرفته! يأمر باينس خادمين. وأنت يا هيلين، ابقي بقربها.

ـ أوصى شيلوميت: جففوا جبينه بقطعة من البياض المبلل بالماء البارد، وافتحوا قميصه لتحرير صدره ومساعدته على التنفس.

أمر باينس الخدم الباقين فـي الغرفة بالانسحاب.

ـ وأنا؟ يسأل مورين الذي يمرر رأسه عبر الباب المفتوح جزئياً.

ـ أدخل، يقول له باينس. أنت تشكل جزءاً من محفلنا، يمكنك إذاً البقاء. أغلق الباب جيداً من ورائك.

يشرع شيلوميت بفك ضماد الكونت بينما باينس يلخص له بإيجاز العمل الذي قام به المعلم غويميت، محدثاً إياه عن العجينة الصفراء.

ـ ما السبب الذي جعل القاتل لا يجهز على هوغ؟ يندهش فيرّير.

ـ لم يسنح له الوقت. لقد دخلت الغرفة فجأة بينما أسرع القاتل ببتر يد أخينا. كانت هناك بعض الجمرات في المدخنة وفي الحال أدخلت ذراع هوغ فيها.

ـ حسناً فعلت بحرق معصمه، يهنئه شيلوميت، وأنفه قريب من الجرح، هذا هو الذي أنقذ حياته. لقد تخثر الدم في الشريان الكبري. أرى أن العناية التي قدمت له هي دون شك من عمل طبيب ممتاز.

ـ ما كانت نتيجة فحص العظام؟ يسأل فيرّير قلقاً.

ـ لاحظ شيلوميت:لا توجد شظايا، بعد زمن طويل من المشاهدة. هذا الشخص السادي يعرف كيف يشحذ فأسه!

ـ لقد وعدت كونستانس أنه سيعيش، يقول باينس. طمئني يا شيلوميت.

هذا الأخير يرد عليه مدمدماً:

ـ الطبيب يعالج والطبيعة تشفي.

ثم يعيد شيلوميت الضماد إلى مكانه ويبدو عليه الرضى عن العمل الذي أنجز على ذراع صديقهم.

في نومه، هوغ، هادئ الوجه مع انه شاحب جداً، يتنفس بهدوء، صدره يرتفع بانتظام.

مورين والرجال الثلاثة ينظرون إليه للحظة طويلة بصمت، ثم يقول فيرّير:

ـ لقد برهن حراس الدم عن جسارة لا توصف بالتسلل إلى منزل الإسقف. لقد كانت مخاطرة كبيرة.

ـ طبعاً، يوافق باينس، هذا يظهر ضراوتهم، سوف لن يتركونا أبداً. لم يبق سوى خاتمي ليستردوه، وسيبذلون كل ما بوسعهم للحصول عليه. حتى أنني أعتقد أنهم لن يكتفوا بعملهم الأخير، يريدون اغتيال وقتل كل أولئك الذين يشاركون بالسر. الرجل ذو الفأس لن يتخلى عن عمله كجزار إلا عندما سيكون قد قضى علينا جميعاً.

ـ هل يشك بأن مورين وأنت من سلالة يسوع؟

ـ أجهل ذلك، يعترف باينس، لكن محفلنا يجب أن لا ينطفئ. القبر سيكون دائماً بحاجة إلى من يسهر عليه.. الحراس الذين سيحمون إلى الأزل جسد المسيح حتى يوم القيامة، إذا قدّر هذا!

6
المقصورة

ليلة مظلمة صافية حيث لا تسطع فـي السماء سوى بعض النجوم. بعض النوافذ بقيت مضاءة فـي القصر الإسقفي فـي ريمس. أنوارها تتسرب عبر ثقوب رقيقة فـي المصاريع الخشبية السميكة.

اجتاز الشبح دون صعوبة الجدار الشمالي للسور وهبط فـي فسحة باحة خلفية مبلطة. ليرتاح فيها للحظة، منصتاً باحثاً عن أقل ضجة، ثم، يندفع مطمئناً باتجاه البهو الذي يعرف أن عليه اجتيازه ليصل إلى البناء حيث يقيم البابا.

هذا الأخير ينام، جالساً فـي سريره، عند الظهيرة مستنداً إلى وسادتين، عباءة مبطنة بالفرو موضوعة على كتفيه العاريين، منذ الآن مرضه يمنعه من ارتداء الملابس، التي تخرش جلده المنتفخ، فقد نصحه الكاهن دونيس بجعل هذه الفقاعات تتهوى أثناء الليل.

ـ الغرفة مليئة برائحة قارصة، مزيج من العرق والعقاقير.

لهبة شمعة تتراقص فـي العتمة وشعلة صغيرة تنهش من حطبة رطبة تطلق دخاناً وهي تصفر.

ضجة عند النافذة. تنفتح إحدى درفاتها. البابا يستيقظ مثقل الأجفان والشفتان رطبتان بفعل اللعاب.

ـ يا له من دواء مشؤوم، إنه يشوش فكري ويجعلني أنام مثل عجوز!

كان عليه التعود على الظلمة لكي ينتبه إلى أن النافذة تنفتح وأن شكلاً ما يظهر على حافتها.

ـ خفق قلبه بشدة، خفقة خطفها الخوف.

الرجل ذو الفأس يخرج من الظلمة مثل صمغ أسود.

ـ هذا يدعو للاعتقاد أن الليل قد حولك إلى قط لكي تتسلق هذه الجدران! يقول البابا بصوت عال بغضب وهو يسحب فروته على ذراعه الأيمن وصدره ليغطي ويموه جراحه. هل قررت أن تميتني قلقاً بظهورك المفاجئ هذا؟

ـ هل تفضل أن يلتقي بي نائب الكاهن أو النائب الإسقفي ويسألني: ماذا أحمل في جعبتي؟ يسخر الصوت العذب الأنثوي. علي الإجابة «ليس شيئاً آخر سوى، في الواقع اليد اليمنى للكونت هوغ!».

يرتخي كتفا البابا.

ـ آه، الكونت! لقد قتلته أيضاً، طبعاً!

يدنو القاتل من السرير:

ـ لست متأكداً بأنني تركته ميتاً. لقد فوجئت بمجيء الفارس باينس بينما كنت أتيت على قطع يده بعد أن قتلت الإسقف.

الحبر الأعظم ينهار، ينزلق على الوسائد، يفتش عن سند وهو يرتجف.

ـ ماذا قلت؟ لقد تكلمت عن الإسقف! هل تريد القول أنك..؟ عن أي أسقف تتكلم، أيها البائس؟ ما الذي جرّأك على فعله؟

ـ لقد نصبت فخاً للكونت هوغ، يتابع القاتل بنبرة بريئة، أخوه فيليب كان الطعم، هل تستوعب؟

ـ أنت مختل عقلياً ومتعصب! وأراد القدر أن أكون محكوماً على مشاركتك جنونك حتى نهاية مجازرك!

يضع القاتل جعبته على الشراشف.

ـ أسمّي هذا تحالف مصلحة. الكنيسة وحراس الدم يحصدان كل من ناحية حصته. شراكة مرضية حتى الآن، ألا تعتقد ذلك؟ خذ! إليك الإشارة الرابعة من الإشارات المقدسة. أخرج قطعة الكفن من الخاتم وإذا كان ضميرك لا يعذبك، قم بنسخه مثلما فعلت في المرات الماضية.

البابا يستعيد بعضاً من إرادته يتجلس باحثاً عن مقعد مريح.

ـ اجلب لي ظرفاً وأدوات الكتابة، الريشة والمحبرة الموجودة على تلك الطاولة، يأمر زائره.

ثم مقاوماً اشمئزازه وقرفه، يفتح المحفظة الجلدية، يخرج منها يد الكونت شاحبة، الأصابع قاسية متصلبة على شكل مخالب.

ـ لقد ضربنا في عائلة الملك الخاصة! يقول قداسة البابا، وبقتلنا الإسقف، ضربنا في عائلة الكنيسة!

يقول القاتل مستبقاً وهو يضع أدوات الكتابة على ركبتي ضيفه::

ـ الملك لن يتحرك، لأن الشامبانيين سيبقونه بعيداً عن شؤونهم. أما الكنيسة، فأنت سيدها.

غير قادر على السيطرة على رجفان أصابعه، يخرج باسكال الحجر الثمين من خاتم هوغ لينتزع منه قطعة كفن توما التي يزيل تجعداتها ويقرب عينيه بقصد قراءتها.

ـ ناولني ذلك الشمعدان وابقه على مقربة مني!

ـ سأفعل كل ما ترغب به، أبتي.

ـ الرابعة من بين الإشارات المقدسة يتلعثم البابا. إنه مثلث في داخله مثلث آخر أصغر منه، مع ذلك الرمز الغريب في وسطهما. ألا يكون حرف U مقلوباً؟ يرفع غطاء محفظة أدوات الكتابة ويخرج منها قضيماً رسم عليه سابقاً الإشارات الثلاث الأولى. صاح قائلاً:

ـ قرب الضوء أكثر.

ـ نعم يا أبتي.

بدأ العمل. يداه تتعثران، الريشة تمزق ورق القضيم لمرتين وتصدر صريراً تحت ضغط أصابعه غير المتقن.

ـ هل تشكو من ألم ما يا قداسة البابا؟ يندهش القاتل: يداك ترتعدان، كما يبدو ذراعك ثقيلاً مخدراً.

ـ لا شيء. انزعاج بسيط سببه البرد، جدران هذا القصر ترشح بالرطوبة، هذا ليس إلا قليل من ألم المفاصل، أؤكد لك.

يشير الرجل إلى القوارير والآنية العديدة على الطاولة.

ـ أطباؤك، هم أناس متبصرون حريصون جداً، بالحكم على كمية العقاقير والدهون التي وصفوها لك من اجل ألم المفاصل البسيط.

ـ لا تهتم كثيراً لصحتي، بدل ذلك قل لي إذا ما أجريت من تحقيقات حول الأعمال التي بدأها باينس في ملكيته في غابة الشرق.

ـ أمارس مساومة مع نجاره، المعلم روجمورد، هذا الأخير يضعني باستمرار عند تقدم الأعمال في الورشة. ليس هناك من شك: الشامبانيون يحفرون قبراً عميقاً وسط المستنقعات.

ـ قبر المسيح: سوف يخرجون جثمانه من المكان الذي يبقونه سرياً وسينقلونه إلى هذا الضريح الجديد.

أنهى البابا نسخ الرابعة من الشارات المقدسة. أعاد قطعة الكفن إلى مكانها في الخاتم

الذي يعيده إلى القاتل. أعاد هذا الأخير الشمعدان إلى مكانه، واستعاد جعبته وأهمل يد الكونت المتقلصة على ذاتها الموجودة على الشرشف. توجه من جديد نحو النافذة التي بقيت نصف مفتوحة وأبعد مصراعيها. قبل القفز من الحرف، التفت من جديد متأكداً أنه سمع جهشة بكاء، إلا أنه ميز بالكاد الحبر الأعظم في الظلمة.

ـ اعتن بنفسك يا أبتي، يوصي بذلك ويختفي.

برودة الليل دخلت الغرفة، وعلى البابا النهوض ليعيد إغلاقها يتقدم بخطى متعبة وهو ينوء تحت وزن يكسر له عموده الفقري.

يذهب فيما بعد إلى المدخنة ويشغل المنفاخ ليعيد اللهب إلى الحطب. وبعد أن اتقدت جيداً، ألقى فيها يد هوغ دي شامبانيا هذه المرة، بالرغم من الرائحة المقززة الكريهة للجسد المشوي فقد كان ينظر إليها تحترق وهو يبكي مثل أكثر الناس تعاسة.

لم تصعد أي صلاة إلى شفتيه. برد الموت عصر قلبه، جعله يرتجف، تصطك أسنانه. برد أسود، عميق ولامتناهي.

*

* *

ينتظر حراس الدم الثلاثة وسط مقبرة عند المخرج الشرقي من ريمس. لقد سكن الليل. لا توجد أي نسمة هواء. صمت تام، لا تسمع أي ضجة.

وكذلك الجياد الواقفة في مكان غير بعيد، لا تصدر أي نخير.

وفجأة:

ـ ها هو!

ـ لم أسمع جواده.

ـ وحتى أنني لم أر ظله يقترب، مع أنني كنت أحدق بمدخل المقبرة!

ـ هذا الذي يدعو إلى الاعتقاد أن سيدنا ليس شيئاً آخر سوى شبح، يتابع الأول.

ـ أو بالأحرى شخص حذر جداً!

يتقدم الرجل ذو الفأس ببطء بين القبور، واصلاً إلى مستوى الحراس الثلاثة، يترجل قائلاً:

ـ أقدر جداً هذا المكان. إنه الموضوع المثالي لنفتح اجتماعنا.. الليل، النجوم، البرد، هدوء الموت! يربط مقاليد دابته على القائمة الأفقية (المعترضة) لأخذ الصلبان. أنت يا سيدي، لم تقل لنا ما ننتظره.

ـ أحد أكثر عملائي إخلاصاً.

أحد رجال الدين الذي يرافق البابا منذ خروجه من روما والذي يتبعه كظله. رجل قليل الذكاء شفاف، لاشأن له، وما من أحد يلاحظه!

ـ الخائن المثالي!

ـ يلاحظ القاتل وهو يشير إلى رجل قادم نحوهم:والدقيق المواعيد!.

رجل الدين ينحني بإجلال أمام الرجل ذو الفأس، علامة للاحترام جعلته مضحكاً نظراً للإلحاح الذي يبقيه منحنياً.

ـ يقول أخيراً: الله معكم، لقد علمت فـي القصر الإسقفي أشياء هامة جداً جعلتني أسرع لإخباركم عنها.

ـ ومعكم أيضاً، يجيب القاتل. أولاً لنفتح اجتماعنا.

فـي الحال، الكل يشكلون دائرة ويرفعون أمامهم الذراع الأيمن ممدودة أفقياً. أصابعهم تتلامس تقريباً مشكلة ما يشبه النجمة ذات الفروع الخمسة.

يقول الرجل ذو الفأس:

ـ من أجل بيت الله ومملكته نحارب ونقدم حياتنا. يضيف رجل الدين والحراس.

ـ الاجتماع محدد فـي المكان والزمان حسب القواعد والعادات. نحن نصغي إليك، أيها الرفيق.

يبدأ رجل الدين:

ـ البابا مصاب بداء غريب عجيب مسبباً إنتاناً لدمه يحرق نصف جسمه الأيمن كاملاً.

بصوت رتيب ودون حياة، يسلمهم كل المعلومات التي جمعها فـي محيط الحبر الأعظم، لقد شارك مراراً فـي تقديم العناية، منصتاً بفضولية إلى كل الهمسات المتبادلة بين باسكال ودوم مستراني. وهكذا فقد كان شاهداً على الغضب والغيظ الذين لا يتوانى الإسقف عن إظهارهم حيال كهنته أو مساعديه.

يكلمهم عن ذلك الكاهن العجيب والعالم دونيس الذي يحاول فك رموز الرسومات التي يوكلها له قداسة البابا، وعن زيارة الكونت هوغ دوشامباني والفارس باينس إلى القصر..

ـ بالطبع، يعترف أن المعلومات التي يقدمها لهم هذه الليلة قد تكون غير مترابطة فيما بينها وتبدو مفككة، لكن هل يمكن انتقاء بعضها بذكاء؟

ـ هذا جيد جداً، يطمئنه الرجل ذو الفأس. لقد قلت أن البابا كان مريضاً، وهذا يهمني كثيراً.

ـ الكاهن دونيس، ذو الشهرة الواسعة في مجال الطب، يجهل طبيعة الإصابة مع ذلك اعتقدت أنها كانت ناتجة عن تسمم للجلد.

ـ ابذل جهداً أيها الصديق. فكر وقل لي ما إذا كان الداء الذي أصاب البابا حدث قبل أو بعد مجيء كونت دو شامباني إلى القصر.

بطريقة غير لائقة، يحك رجل الدين ذقنه، المستدقة الطرف والخالية من اللحية، وبعد تأمل طويل يوضح:

ـ الواقع، يا سيدي يمكنني التأكيد الآن وأنا أفكر بذلك أن البابا استدعى الأطباء بعد مقابلة الكونت، في اليوم نفسه! ماذا اقول؟ في الساعة نفسها التي أعقبت المقابلة!

ـ أشكرك. الجمعية فخورة بالاعتماد على عنصر له صفاتك، من بين جميع الأخوة. رغم الليل، كان من الممكن رؤية رجل الدين القصير القامة ذي الوجه الذي يشبه وجه الدلق قد احمر من جذور شعره حتى تفاحة آدم التي تهبط وتصعد في رقبته كبيضة دجاجة لا تريد المرور.

ـ لنحدد الحلقة من جديد، يقول القاتل:

يقف الرجال الخمسة في مكانهم ويمدون أذرعتهم اليمنى.

بصوته العذب يبدأ الرجل ذو الفأس في استظهار مقطع من إحياء ذكر الموتى، على النحو الذي تفرضه مراسم المجمع

ـ إخوتي، هو ذا لغز سأكشفه لكم: سوف نُبعث جميعاً، لكننا لن نتبدل جميعاً، في لحظة ما، في طرفة عين، لدى سماع صوت البوق الأخير، لأن الأبواق ستدق، الموتى سوف يبعثون في حالة عفيفة غير قابلة للفساد وعندها سنستبدل، لأنه يجب على هذا الجسد القابل للفساد أن يُكسر بعدم القابلية للفساد، وهذا الجسد القابل للموت أن تُضفى عليه صفة الأزلية. وعندما سيتم هذا، وعندها يكتمل كلام الإنجيل: كان الموت قد دُفن في النصر. أيها الموت، أين انتصارك الآن؟ ايها الموت،اين باعثك؟ باعث الموت هي الخطيئة. هي قوة الخطيئة، إنها الشريعة، لكن شكراً لله الذي منحنا النصر عن طريق يسوع المسيح سيدنا.

إن ذكرى العادل ستكون أزلية، سوف لن تخضع لأقاويل الناس المسيئة.

بهذه الكلمات الأخيرة ضرب الرجال الأرض ثلاث مرات بكعب رجلهم اليسار وخفضوا أذرعهم.

7
الإكسير

سبق أن دقت الأجراس منذ وقت طويل، بناء على طلب المعلمين فرّير وشيلوميت. توجه باينس إلى مختبره الذي هجره خلال الأسابيع الأخيرة، مفضلاً الإشراف على ورشة غابة الشرق بصحبة إيليفاس.

وجد البؤرة مختلفةً تماماً. لم يعد التحرك داخلها يتم بصعوبة بين المعوجّات العديدة والإنبيقات والأواني التي يحولون فيها العديد من المركبات، عبر أنابيب طويلة من الزجاج المجدول،التي تتوجه فيما بعد على شكل خيوط رفيعة في درجة الغليان باتجاه أوعية رصاصية.

الجدران مليئة بالألواح الحجرية المغطاة بالرموز والصيغ وتتراكب الى ما لانهاية.

ـ بخدود محمرة ،وجبهة يلمعها العرق. شيلوميت، يرتدي مريولاً سميكاً وقفازاًجلدياً الجلد، يقفز من إناء إلى آخر، وينحني على المرجل المحمر، يتفحص أنابيب اختبار الترسيب بينما فيرّير، أكثر هدوءاً، يتابع حسابات معقدة على اللوح.

.ـ آه، هذا أنت، يقول عندما رأى باينس داخلاً. تعال أيها الأخ، علينا أن نريك شيئاً ما، لقد تقدمنا كثيراً في عملنا.

ـ تريد الكلام عن الإكسير؟ يسأل باينس بلهفة

شيلوميت توقف عن القيام بالملاحظات الدقيقة التي كانت تستأثر به .وبدأ يشرح بصوت متوتر: نظن أننا نجحنا في جمع مبادئ الملامات المقدسة ليسوع وفي استخراج العنصر الخامس من المحلول الأولي.

ـ إن كنت قد تابعتك جيداً، وأنت عصبي بالقدر ذاته، فأنت تقصد أنك أجريت بنجاح تثبيت الجواهر الثلاث الأولية والتقطير القلوي للقطعة الأكبر.

يشير شيلوميت إلى وعاء مستدير يتقطر فيه سائل كثيف،اجتاز مسافة طويلة مرّ خلالها بالعديد من الأنابيب والإمبيقات.

ـ لقد ترك التقليد لنا عدد المواد الأولية الطبيعية وكذلك عياراتها الدقيقة المحددة، غير أننا نجهل بأي ترتيب وحسب أي طريقة علينا اتباعها...

ـ هل أنارتكم الإشارات المقدسة وأضاءت لكم على بعض الأمور! أضاف فيرّير الذي انضم إليهما:

ـ بالفعل، إذا كان صنع الذهب انطلاقاً من الرمل والمعادن العادية ممكناً بسرعة، فإن حلّ المعادلة الكيميائية للأخ «الأول» قد يتطلب منا عملاً مضنياً متواصلاً. لقد توجب علينا البدء من جديد دون توقف التصاعد الأولي ودون التوقف أبداً عن الشك.

ـ و.. يقول باينس، متلهفاً:

ـ حسناً، في غضون بضعة أسابيع، سنكون قد وصلنا طبعاً إلى هدفنا ، وهذا ما تراه هنا، هذا المشروب يمتلك ميزات تجديدية على درجة عالية من القّوة، نحن مقتنعون من ذلك بحزم.

ينحني باينس فوق الإناء المستدير حيث في كل ثانية تنزل قطرة ثقيلة سوداء من نهاية أنبوب رفيع.

ـ دواء ضد المرض والموت! يقول بصوت منخفض. كان قدماؤنا يسمون هذا الزيت دم المسيح..

ـ بالحقيقة أنني أطلق عليه اسم (الكأس المقدس) أو دم المسيح المقدس في الكأس: كيمياء معقدة رفيعة في درجة حرارة مناسبة من أجل تكليس دقيق وغليان بطيء متأن، لزج وخلط دقيقين وعمليات تصعيد تامة.

ـ ألم يكن بمقدورنا أن نعطي قليلاً من إكسير الحياة هذا إلى أخينا هوغ؟ يسأل باينس

ـ كلا! ابداً! يرد فيرّير بعنف ما دامت العملية لم تبلغ نهايتها فإن هذا السائل سيشكل سماً حقيقاً، أكثر خطورة بكثير مما سممنا به البابا. أنت تعلم علم اليقين أن يسوع بنفسه قال في وصيته الشفهية المنقولة من المحفل، أن التقطير يجب أن يدوم ثلاثة وثلاثين يوماً.

ـ تذكر الآية الخاصة بالإكسير، يضيف شيلوميت. **سيأتي الوعي من تزاوج النجمة مع المثلث في دائرته. وستولد الحياة من جديد من الوحدة المقسمة إلى كسور مكونة الحرف تاو الوحيد، سيتضاعف ويتكاثر ويصبح روحاً. ثلاثة وثلاثون ليلة ستكون ضرورية لكي يصبح الدم حياة.**

يقول فيرّير:

ـ أنت تفاجئني يا باينس!

ـ لماذا؟ أيها الأخ؟

ـ كان علينا تركيب الإكسير بطريقة تحدد بها العناصر الداخلة، معاييرها، وتفاعلاتها، قصد تحديد طريقة الإعداد.

ـ طبعاً.

ـ هذا بهدف نقل الوصفة إلى من يخلفونا.

ـ فعلاً.

ـ هكذا سيكون أحفادنا قادرين على تطبيق دواء إعادة الحياة إلى الأخ «الأول»، فيما لو كانت تلك رغبة المحفل.

ـ أتابعك دائماً. ولا أرى أنني فاجأتك بأي شيء يا فيرّير.

ـ عندما تكلمت عن إمكانية استعمال دم المسيح على واحد منا! ـ بالتأكيد! نحن لانملك قدراً لأن نكون أزليين يا باينس! أبداً! دون شك نحن سنستخدم العلم الذي سيأتي من أعمالنا الحالية لمعالجة الأمراض المتعذرة الشفاء حالياً لكن ليس علينا أن نطبق الطريقة في كماليتها! أنت صديقي، وأنت على الأخص، تعرف ذلك.

حضر شيلوميت ليضع ذراعاً حول عنق باينس ويطلب منه بصوت منخفض:

ـ هل لديك مشروع كنا نجهله، أيها الأخ؟ هل أخفيت عنا جزءاً من نواياك بالنسبة للمستقبل القريب؟

باينس يبتسم إلى الاثنين:

ـ اعذروني أمام هذا السخاء، فقد شردت للحظة. اعتقدت لهنيهة استشفاف كل المنفعة التي ستكون لمحفلنا فليكن في خدمته أخوة أزليون، كل الخير الذي سيكون عندئذ بمقدورهم أن يقدمونه لأمثالهم. إلا أنكم أنتم محقون بتقديم بضع جرعات من التعقل لرأسي، هذه المهمة سوف تقع على عاتق أخينا «الأول» فقط.

يبتسم باينس أيضاً بانفتاح، أكثر وضوحاً ويضيف:

ـ لا يمنع أن قائدنا مثلنا يرقد حالياً في التراب! ومع أننا كنا نفكر أنه قادر على النهوض منه، بفضل الإكسير، لو قمنا بنفخ مقدار من الحياة الضرورية، فإننا نكتفي حالياً بالانتظار.. انتظار ماذا، أخوتي؟

ـ أنت تشوشنا! يصيح فيرّير.

ـ أنا آسف لذلك، يجيب باينس دون اقتناع كبير، كنت أحلم فقط أمام هذا الإناء الصغير الذي يحوي واحداً من أكثر عجائب الطبيعة الفائقة للوصف.

ـ كنت تحلم؟

ـ نعم يا أصدقائي الطيبين. نعم كنت أحلم بعالم ملؤه الحب.

شيلوميت يزيد من ضغط ذراعه على كتفي باينس ويقول:

ـ كنت سأسيء الظن حول حلمك.

ـ يسأل باينس. هل تخيلت معنى آخر له؟

ـ طبعاً، يمكن للأزلية أن تولد أكبر الانفعالات والشهوات. وإذا كان حب الجار، وهو أمر نموذجي مثالي، واحداً منها، فهناك آخر سيليق بك مثل طبيعة بشرية أخرى.

ـ ماهو؟

ـ الثأر يا باينس! إمتلاك الأزلية بهدف الثأر أيضاً حلم! أن تثأر من الكنيسة، من حراس الدم.

باينس يمسك يد شيلوميت التي يشدها بقوة ويفصل بوضوح كل مقطع كما لو أنه كان يقول تعهداً وقوراً ويعلن:

ـ فعلاً سأثأر من أولئك الذين يستحقون ذلك. ثم سأعقد سلاماً مع الكنيسة، لأن لنا رسالة أخوة وحيدة يجب أن نتقاسمها،سيخدم المحفل الأول سراً أخته الكنيسة ما دامت هذه الأخيرة ستحترم مبادئ معلمنا جميعاً، يسوع المسيح.

ـ هكذا نحب دائماً سماعك، يختم شيلوميت كلامه. فلتعمل السماء على تمكينك من الوفاء بعهدك!

8
سفر مورين

كعادتهم، نهض الرهبان دونيس وماتيو باكراً بعد تلاوة صلوات الصباح وبعد شكرهما الله بأن أبقاهما على قيد الحياة طوال الليل،

تناولا طعام الإفطار الذي هو عبارة عن كوب من اللبن الرائب، وشريحة من الخبز المغطاة بالعسل، واللوز المجفف. فيما بعد اهتموا برعاية بعض الحيوانات التي يملكانها، الكلب مورف بين أقدامهم ينبح على الدجاجات أو يلتطم بالجدران تحت استهزاءات وسخرية دونيس اللطيفة.

ما أن أنجزا كل الأعمال حتى ذهبا إلى مخبرهما، وأعادا إشعال النار في المدخنة وشرعا بالعمل.

جلس دونيس خلف طاولته منكباً على كتبه المتعلقة بالطلاسم متابعاً أبحاثه المتعلقة بالأشكال الثلاثة التي طلب منه البابا دراستها.

عاد ماتيو إلى مستحضراته فقد كان مكلفاً بتحضير لصاقات، دهون، مراهم ومنقوعات وطاردات للديدان.

الضجيج يملأ الغرفة التي ينتشر فيها الدفء ببطء.

مطر خفيف ناعم بدأ بالتساقط على الجلود المنشورة على النوافذ مصدراً فرقعات لدى كل رشفة.

فجأة، يسأل ماتيو:

ـ هل كنت تنتظر أحدهم؟ ثمة فارس يدخل باحة الدير. ألم تسمع حوافر جواده؟

ـ الواقع، أنا مستغرق جداً في مطالعتي. إنه دون شك أحدهم من بيت البابا الذي يستدعيني إليه.

وبعد لحظات يقرع الباب، دونيس ينهض ليفتح.

الرجل الذي يقف على عتبة الباب يخفي وجهه تحت قبعة، ذلك ما لا يروقه للكاهن، فأس قاطعة تحت حزامه.

- هل أنا حقاً عند الكاهن دونيس العطار؟

- إنه أمامك، أيها الغريب، بماذا أستطيع ان أفيدك؟

- يتقدم الرجل خطوة إلى الأمام. يرفع ماتيو رأسه عن مرجله.

- يمكن إسداء خدمة كبيرة لي بموتك! يقول المجهول

- عفواً؟

- فـي هذا يمكنني مساعدتك!

أخرج الفأس بسرعة وقوة من تحت حزامه وانهال بها محدثاً صفيراً وهو يسقط على دونيس، لتدخل فـي أعماق صدره ممزقة اللحم وكاسرة العظام ثم تنسحب بنفس السرعة تاركة جثمان الكاهن الذي ينطوي حول نفسه منهاراً ببطء فتتوقف حركته برخاوة، والبطن نحو أرضية الغرفة.

صرخ ماتيو بصوت حاد خرش بلعومه وهو يرتمي على جثة صديقه،

- بحق السماء، لماذا قتلته؟ من أنت؟

- أنا ذلك الذي يمحو الهرطقة، أيها الراهب الصغير!

وبحركة أخرى، واسعة، سريعة وخفيفة يقطع رأس ضحيته الثانية.

- لا أثر، لا إثبات يجب أن يبقى خلف طريقي. أنا من يعمّد بالموت والنار، لقد اخترت طريق الحقيقة.

عندها يمسك بقنديل يعمل بالزيت ويرمي به على قطعة ورق القضيم والكتب التي تملأ الطاولة ينتظر حتى ترتفع ألسنة اللهب العميقة ليتأكد أن هذه الأخيرة ستنتشر قريباً إلى كامل المخبر، ينفحها الهواء الذي يدخل الكوخ، ثم يخرج، ويمتطي جواده، يجتاز الباحة تحت نباح مورف القلق. يبتعد عن المكان ماراً بشارع ضيق، يجتمع برفاقه الثلاثة ويعلن إليهم ضاحكاً:

- هذا النهار يستحق بركة الله! سننتهي من أجل مجده. سنكون قد قمنا بمهمتنا هذا المساء يا أصدقائي. قال لي النجار روجمورد:عليه أن يسلم بعد ظهر هذا اليوم آخر حمولة من العوارض الخشبية والثقيلة فـي غابة الشرق. وسيكون باينس حاضراً كالعادة فـي هذه الأيام الأخيرة مع ابنه.. نعم، حقاً إنه لنهار جميل! سبحان الله الذي نقدم له حياتنا وأرواحنا، يا أصدقائي!

استأنفت الجماعة طريقها تحت المطر. والصراخ بدأ يدوي من ورائه. حريق معمل الكاهن دونيس نبّه الجيران، الذين دقوا الجرس طالبين النجدة، وداعين إلى تشكيل سلسلة من دلائهم وسطولهم.

*

* *

فيما بعد، عندما سيتذكر باينس هذا النهار، سوف يلعن نفسه، لأنه طرد حدساً مسبقاً كان قد أظلم ذهنه منذ نهوضه من النوم.

الليل كان ألطف مما هو في العادة. كان مورين ينام والنافذة في غرفته نصف مفتوحة، غراب يدخل الغرفة بينما كان الطفل نائماً، إنه باينس، جاء ليوقظ ابنه، الذي أزعجه الطائر، لقد حلق الأخير بشكل مضطرب، دون العثور على منفذ، مصطدماً بالجسور والجدران مع حفيف جناحيه على زجاج النوافذ قبل التمكن من الهرب.

تذكر باينس أن أمه كانت تقول له أن الغراب في البيت علامة مأساة كبيرة!

غير أن الفارس حمحم ورفض هذا الحكم المريع مثل كلب مبلل ليتخلص من الماء البارد الذي يبلل وبره.

ورشة غابة الشرق تنتظره مع ابنه مورين الذي كان فخوراً أمامه باكتشاف تقدم الأعمال.. لقد أعطى نبرة من الفرح لصوته لكي يطمئن الطفل الذي أرعبه الطائر.

ثم نسي الغراب.

*

* *

باينس ومورين يجدان إيليفاس أمام الكنيسة الصغيرة، طاولة عمل نُصبت على ركائز خشبية، سرادق من قماش كبير تقي المهندس من المطر.

الرجل العجوز خلف عدساته السميكة، يستشعر رسوماً منجزة يتفحصها للمرة الألف، شاكاً بحساباته أو معيداً تلك التي تركها آرسيس دوبريين.

ـ ماذا تخشى؟ يسأله باينس، يوحي شعوري أن الأشغال ستنتهي قريباً ومع ذلك فإنك لا تتوقف عن مراجعة هذه المخططات!

ـ أنت تعرفني.. انهض حتى في الليل لمراجعة بعض العمليات أو إعادتها... إنها ظاهرة قوة الدفع التي ما زالت تقلقني. تصور أن آرسيس وأنا لم نأخذ بعين الاعتبار بعض القوى أو أننا قدرنا بشكل خاطئ أو غير كاف كمية الماء التي سيكون علينا إسالتها لكي تغرق القبر! قوى الدفع، قلت لك.. سيل من الماء متحرك بقوة،أو غير متحكم به،أو مخفف بشكل غير كاف بواسطة الأبواب المتحركة، سيسبب ضغطاً كبيراً جداً على الجدار المزدوج للبئر ما يعرضه للانفجار.

ـ لا أفهم أشياء كثيرة فـي هذا المجال يا إيليفاس: أكتفي بالثقة بك لما فعلته بالنسبة الى أرسيس. لا أشك فـي أن ذكاءك تمكن من إبعاد كل الأفخاخ الفيزيائية.

التفت إيليفاس نحو مورين:

ـ أترى يا أخي الأصغر، أبوك معرض أحياناً لمبالغات فـي الثقة! خاصة عندما يحكم على أصدقائه.. إنه يمنحهم ثقة عمياء.

مورين مجيبا بابتسامة:

ـ لقد قال ذلك لك، أيها المعلم إيليفاس، إنه يتصرف بهذا الشكل لأن الأمر يتعلق بمجال غير ضالع فيه. فـي الحالة المعاكسة ـ وعليك أن تعرفه بقدر ما اعرفه ـ لديه ميل بالأحرى لممارسة سلطة ملحة بشكل مبالغ فيه!

ـ أنت تكبر بسرعة كبيرة، يرد باينس بمزاج مرح واضح. ها أنت تسخر مني كما لو كنت من أقراني فـي العمر!

ـ أنا أخوك، أليس كذلك يا أبي؟

قهقه إيليفاس. «هذا الصبي يروق لي بالتأكيد. ذهنه متقد منفتح، فهو مستعد دائماً لمتابعة المشادات الكلامية البليغة بروح النكتة...بلى، إنه إيليفاس رفيق ظريف ومع ذلك حزين جداً! الدموع دائماً فـي حواف عينيه..

مستعيداً جديته، ومنظفاً زجاج نظارته بطرف كمه. يسأل باينس:

ـ هل ظهر البابا؟

ـ ليس بعد. دون شك إنه متعجرف الى درجة لا يتنازل معها ويطلب منا الدواء لمرضه! أو أنه لم يصب كفاية؟ لننتظر، سيتصل بنا.

يرفع المهندس المعماري ياقة ثوبه المغطاة بالفرو، يعدل من وضعية قبعته.

ـ تعاليا، وبإنتظار قدوم المعلم روجمورد، سأريكما تقدم الأشغال. انظرا، لقد انهينا من حفر كل القنوات، التي جمعنا فيها مياه المستنقعات المجاورة الأكثر أهمية.

ـ كل السدود الصغيرة قد رُفعت، يقول باينس مخاطباً مورين.

ـ سننتهي من وضع الأبواب المتحركة التي بفضلها، سوف نغرق القبر.. أبواب الإغلاق المشهورة هذه تمنعني من النوم! قوة الدفع! هذه القوة المشؤومة..

*

* *

أربعة فرسان بمعاطفهم الفضفاضة، الرأس والوجه محميان من المطر تحت قبعات كبيرة، يتقدمون من مصنع المعلم النجار روجمورد. يساعد هذا الأخير، ستة رفاق مع ابنه

نيزيير، ينقلون على عربة كبيرة القطع الأخيرة التي أوصى بها إيليفاس، الصوت مرتعد، يقول نيزيير بصوت عال:

ـ لقد عادوا يا أبي!

ـ من هم هؤلاء الفرسان؟ يسأل أحد النجارين.

ـ لا تهتم لذلك، يقول روجمورد، أنهم عمال أنهوا الحمولة.

وصل الفرسان الأربعة إلى مستوى العمال، قفز الرجل ذو الفأس من على مطيته متوجهاً إلى روجمورد، ممسكاً إياه من ذراعه:

ـ اتبعني إلى عزلة في مصنعك يا لانديريك. لدي خدمة سأطلبها منك وأنا متأكد أنك لن تقوى على رفضها. أنت رجل راشد سليم العقل على ما أعلم.

ـ هذا يتعلق بالخدمة، يمهد النجار نفسه في الإجابة وهو يتبع القاتل بأسف.

ـ سوف تقبل! خاصة لأنك أب قلق على سعادة ابنه. أرى من جهة أخرى أن نيزيير قد تعافى من جرحه، وسيكون مغضوباً عليه من جديد خاضعاً للعقاب.

لم يوقف الرفاق عملهم، غير أنه لا يمكنهم منع أنفسهم من التساؤل:

ـ هل لاحظتم؟ معلمنا ظهر مرعوباً لدى رؤية أولئك المجهولين.

ـ ونيزيير أكثر من ذلك أيضاً..! انظر كيف يرتعد...

في المعمل، عارفاً ما يفرضه عليه الرجل ذو الفأس، روجمورد يشجب على الفور ويتمرد:

ـ كلا، سيدي أبداً لن أفعل ذلك للفارس باينس.. كلا حباً لله لا يمكنني خيانته أكثر مما سبق أن فعلت، كانت نصوص اتفاقنا تتطلب أن أعلمكم عن تقدم الأشغال في الورشة، ولقد تقيدت بذلك. هنا أنت تجبرني على نصب فخ وتجعلني متورطاً في قضية إجرامية.

ـ مع ذلك ستتصرف كما آمرك به، وتقوم بدورك بشكل طبيعي قصد أن لا يحس بأي شيء غير طبيعي. ابنك سيبقى هنا مع أحد رجالي. سيكون الضمانة لطاعتك. أقسم لك أنك ستجده حياً لو قمت بمهمتك حسب مخططي.

يهز النجار رأسه الضخم الصهب مغلوباً على أمره، والعينان مغرورقتان بالدموع.

ـ إذن أليس لديك أي ذرة من الرحمة والشفقة؟

ـ لو كانت تلك حالتي، لقطعت رأس نيزيير. إذن ما هو ردك؟

ـ نعم سأطيع.. من أجل نيزيير، لكن فليغفر لي الله!

ـ كنت متأكداً من ذلك!

يعود الرجلان ويخرجان عندئذ من المصنع وينضمان إلى رفاقهم. نيزيير يرمي

أبيه بنظرة قلقة. هذا الأخير يرد عليه بابتسامة يائسة.

بعد ذلك بقليل، يقود المعلم روجمورد العربة عبر القرية ويسلك الطريق التي تقوده إلى غابة الشرق، هو وثلاثة فرسان سيحسبون من الرفاق النجارين: إنهم الرجل ذو الفأس واثنان من حراس الدم التابعين له.

ما أن وصلوا إلى الكنيسة الصغيرة، حتى أعطى إيليفاس الأمر لبعض عماله بالمساعدة في تفريغ العربة و نقل القطع الأخيرة من الهيكل فوراً إلى الجزيرة المحاطة بسياج من القصب العالي.

حيا باينس النجار بحرارة، مهنئاً إياه لأنه احترم تقيده بالمهل التي حددت له. يجهد المعلم روجمورد بالظهور لطيفاً، لكنه لم يتوصل أبداً لإخفاء انزعاجه وارتباكه بشكل كامل.

ـ سوف أدفع لكم مقابل ما فعلتم، يقول باينس، لقد استحقيتموه بجدارة.

يندهش مورين لعدم رؤية نيزيير، ويوجه الملاحظة:

ـ نيزيير ليس معكم؟ مع أنه قد وعدني بأن يرافقكم.

يلقي النجار نظرة من فوق كتفه باتجاه حراس الدم الثلاثة الذين يشاركون في تفريغ العربة.

ـ هو معذور يا مورين.. فعلاً! إنه يشكو من ألم في حلقه بسبب ريح باردة كانت تعبر مصنعنا. أنا فضلت أن يبقى في الدفء.

ـ ليعتن بنفسه جيداً، يقول باينس. اقترب أيها المعلم روجمورد، دراهمك تنتظرك، ستدفع لرفاقك ما يستحقونه وتشكرهم على عملهم.

ـ سوف لن أنسى بأن أنقل إليهم ثناءك يا سيدي.

سوف يتلقون أجورهم حسب الأسس العادلة لمهنتنا.

تسلل الرجل ذو الفأس خلف مورين الذي يقف الآن قليلاً على انفراد. الطفل لم يلاحظ شيئاً. ترك حارسا الدم الآخران العربة واقتربا من سيدهم.

فتح باينس صندوقاً، وأخرج منه كيساً مليئاً وقدّمه إلى روجمورد، طالباً منه التوقيع على وثيقة تؤكد أنه تلقى ماهو منصوص عليه في هذا العقد.

ـ ألم يظهر خدمك الكثير من الفضولية فيما يتعلق بطبيعة المهمات التي طلبت منهم القيام بها؟ تساءل باينس بقلق.

ـ لقد أفهمتهم بسرعة أنه لن يفيد بشيء أن يسألا بهذا الخصوص، لقد احترموا رغبتي. وعملنا يتم بتوافق وتعاون تامين.

ـ أمدح نفسي بأنني جعلتك تشترك معنا في ورشتنا يا صديقي.

ـ شكراً، سيد باينس.

«النجدة يا أبي».

الفارس وإيليفاس يلتفتان، صوت رفرفة أجنحة غراب تمزق فكر باينس. ظل أسود يغطي للحظة عينيه ويرى واحداً من الرفاق يخفض قبعته يشد مورين إليه، وخنجر موضوع على رقبته. في الحال تعرف باينس على القاتل بسبب ندبته وعينيه الشفافتين. لانديريك يجمع يديه بحركة مضحكة غبية مثيرة للشفقة.

ـ الرجل ذو الفأس! يصرخ باينس. لقد أدخلته إلى الورشة، روجمورد! أنت القاضي في نقابتك! وقسمك ماذا فعلت به؟

ـ أيها السيد.. يرتبك النجار وهو يفرك أصابعه:

ـ لقد أخذوا ابني نيزيير رهينة! لقد وعدني بألا يقتله فيما لو خدعتك و.. أتوسل طالباً مسامحتك ورحمتك.

يخطو باينس بضع خطوات نحو القاتل الذي يبتسم مثل طفل تعب. رجلان، خلفه تماماً، أخرجا سيفهما.

ـ أنت إذن لا تحارب إلا باستخدام النساء والأطفال؟ صاح الفارس. هل أنت جبان بهذا القدر لكي تجابه أعداءك وجهاً لوجه؟

ـ الرعب هو أحد أسلحتي يا سيدي. لا يهم جنس الضحايا وعمرهم فيما لو توصلت إلى أهدافي، لدي واجب يجب أن أقوم به، أجهد في ذلك بتصميم من أجل الله!

ـ دع أبني يذهب ولنتبارى الواحد ضد الآخر.

ـ يبدو أنك لم تفهم: سأخرج من هنا مع الخاتم الأخير من الخمسة. مجابهة فيما بيننا قد تتحول إلى غير صالحي، هذا سيكون خسارة، بعد كل الجهد الذي عانيته وقدمته.

ـ لقد بتر اصبع نيزيير، ينوح روجمورد، هذا المجنون قادر على أسوأ الأشياء.. أجهل لأي سبب يطلب خاتمك، لكن أطعه وابنك مثله مثل ابني، ستمطى له الحياة.

ـ اصمت يقول باينس. لا أريد أبداً سماعك وأنت تنوح! الرجل ذو الفأس يمارس بخنجره ضغوطاً على رقبة مورين الذي يقطب وجهه، خيطين من الدم يسيلان على جلد الطفل.

ـ لقد حصدت الكثير من الحيوات لدرجة أن حياة ابنك لن تشكل وزناً إضافياً على ضميري أكثر من الأخريات. هل تريد أن تصفي حسابك؟ أصدقاؤك: آرسيس دوبريين، باسيل لوهارني، جوفروا دو سانت ـ أومير.. زوجتك، ابنتك، أسقف شالون.. وقد يكون الكونت هوغ لائحة طويلة، أليس كذلك؟ كلهم موتى بسبب سلطة تمسك أنت بها مع كل أولئك الذين تسميهم أخوتك.

اقترب إيليفاس من باينس ليمسك بمعصمه.

ـ يتابع القاتل: خاتمك يا باينس. انتظر! حد خنجري بدأ يصبح ثقيلاً على عنق هذا الصغير.

ـ أطع، صديقي، يتوسل المهندس المعماري في أذن باينس. حراس الدم لا يملكون تعليمنا الشفهي، سوف لن يتوصلوا إلى كشف السرّ.

ـ لا اليوم.. ولا غداً. لن يصلوا إلى ذلك. لكن ماذا سيحدث بعد سنوات وقرون؟

يقوم الفارس بإخراج الخاتم من إصبعه. يأتي واحد من حراس الدم ليتسلمه ليقدمه في الحال إلى سيده الذي يأخذه بقوة.

ـ سأحتفظ بابنك سيكون جواز مروري لأخرج من هذه الورشة. وسأتركه بعيداً على الطريق، شرط أن لا يتبعني أحد. لا تتحرك من هنا قبل أن تنتهي من تلاوة أبانا الذي في السماوات وقانون الإيمان ببطء.

عمال وجنود تابعون للكونت يتساءلون. البعض استلوا سيوفهم. إيليفاس يوجه لهم إشارة تمنعهم من التدخل. ويتوجه إلى باينس الذي يضع يده على مقبض سيفه:

ـ لكن هذا سيكون في غاية الخطر، وسينتج عن ذلك خطر على حياة مورين.

ـ يجب عليّ أن أقتل في يوم من الأيام هذه الجيفة. سوف لن يحتمي دائماً خلف طفل! إذا حصل ولم يحترم كلامه.. وإذا أصاب مورين مكروهاً.

ـ قال أنه سيطلق سراحه، إنه يملك الآن الخاتم الأخير.

هذا كل ما جاء يبحث عنه، لنكن صبورين: ما أن يشعر حراس الدم أنهم في أمان، سوف يتركون مورين وسنرى هذا الأخير يظهر من جديد على الطريق. قليل من الثقة يا صديقي!

رفع الرجل ذو الفأس الطفل على رقبة الحصان الذي يمتطيه.

مورين ينظر دائماً إلى أبيه وكأنه يريد أن يحفظ صورة أبيه في فكره، أبيه الواقف تحت المطر، الكتف ملاصق لكتف إيليفاس الذي أصبحت نظراته واضحة بفعل عدساته السميكة.

الغراب، هذا الصباح.

يغادر حراس الدم الثلاثة الورشة، يغوصون في الغابة التي يغلفها الضباب ويختفون.

إيليفاس، صديقي القديم ضغط بقوة على يدي، كان يرتعد مثلي بينما كنا ننتظر عودة مورين. العمال توقفوا عن العمل، ينتظرون معنا، لم تكن الغابة سوى صمت وبرد.

ـ لا أصدق ذلك! صاح فجأة باينس وهو يندفع على الطريق الذي سلكه القتلة سابقاً. كان على مورين أن يعود منذ زمن طويل.

يجري الحقد والقلق حارقين صدره. كل خطوة هي ألم، كل تنفس هو تمزيق، قلبه بضرباته اللامنتظمة يضرب صدره بقوة، حتى كاد أن ينفجر.

توجه إيليفاس إلى الكنيسة، إلى جنود الكونت:

ـ فليأتِ خمسة منكم معي، ولنلحق به:

«الغراب، هذا الصباح..»

الطريق يتسلق بين أشجار السنديان التي تسيل منها قطرات الماء. على تلة صغيرة تلمع تحت المطر، هناك ساق تظهر على لون السماء الرمادي. جسد ممدد في الأعلى باينس يراه على الفور ينادي ابنه، يعلم أيضاً وسط رعب لامتناه، أنه لن يرد عليه.

ـ نحو الأسفل، أحد الحراس يقول بصوت عال ووجه شاحب

ـ هل سمعتم هذا العويل؟

إنه عويل أب ممزق.. يقول إيليفاس.

يسرِّع المهندس العجوز خطاه مع أنه بدأ يلهث حتى قطع الأنفاس. يلمح من بعيد جسد مورين الخالي من الحياة.

ـ الجنود هم أيضاً يبطئون سيرهم، مرتبكين بسبب الحزن الشديد.

وصل إيليفاس قرب الفارس الراكع في الوحل، يؤرجح الطفل الذي فرغ من دمه عبر فتحة كبيرة في الصدر.

ـ باينس يا أخي، دعني أرى. دعني أشاركك حزنك. الأب يرفع الوجه، يمد نظره التائه نحو المهندس.

ـ لقد أقسم أنه لن يقتله، لقد قال ذلك.. كنت أعرف أنه كان الشيطان. إيليفاس، إنه التجسيد للشر المطلق!

إيليفاس يسقط على ركبتيه، محطّماً بدوره. يمرر يداً في شعر أخيه الأصغر الذي لم يعش إلا الوقت اللازم لاكتشاف المصيبة والبؤس.

«بذرة طيبة صالحة».

ـ ألا تحسبه نائماً. يندهش باينس. يبدو هادئاً جداً.

ـ إنه كذلك بالفعل سوف ينام هكذا في ذراعك حتى نهاية الأزمنة.

9
نية البابا

لم تكن ريمس مستثناة من المطر، الذي يبدو أنه غطى كامل منطقة شامبانيا واستقر فيها لفترة طويلة.

ما أن حل المساء على القصر الإسقفي،حتى دخل دوم مستراني دون استئذان شقة البابا الذي كان يعالجه أحد رجال الدين. الحبر الأعظم المشغول أصلاً بألمه لا يبدو منزعجاً لهذا الدخول العنيف.

ـ آه، دوم مستراني، إن حالة الجروح تتحسن كثيراً والكاهن دونيس لم يأت ليعاينني!

ـ هو لن يعود أبداً يا قداسة البابا.

ـ لماذا؟

ـ الكاهن قُتل بالفأس، وكذلك مساعده. حانوتهم الخاص بالعقاقير دُمّر بفعل النيران. هذا الاغتيال المزدوج متوقع!

بحركة غير صبورة وعنيفة، يقوم البابا بصرف رجل الدين. ما أن غادر هذا الأخير، يضيف دوم مستراني:

ـ يوجد أسوأ من ذلك: نجار من تروي أشاع خبراً مفاده أن ابن باينس قتل في غابة الشرق. القاتل رسم صليباً على جبين ضحيته الصغيرة.

ـ القاتل من حراس الدم! لقد تعمد قتل الطفل لكي ينال من الأب. لكن أي نوع من الوحوش هو ذلك الرجل؟ لايمكن للكنيسة أن تتغاضى على هذا القدر من الهول والرعب!

فجأة ينهض البابا، يبعد دوم مستراني الآتي لمساعدته حتى يكاد أن يسقطه.

ـ أنا مذنب بقدر ذلك القاتل، يرد باسكال. لقد تغاضيت عن جرائمه لأنني كنت أظن أنني أقاتل من أجل الإيمان المسيحي، للإبقاء على العقيدة.

ـ دون شك يملك حراس الدم الآن الشارات الخمس والخاتم الأخير. الحرب انتهت.

وقف البابا أمام مرآة، ناظراً إلى نفسه على نور الشمعة. كامل الجزء الأيمن من جسمه بأكمله منتفخ متآكل ومنخور.

ـ استحق المرض الذي أشكو منه، يقول باشمئزاز، أنظر إلى جسدي إنه صورة لنفسي وروحي إنه مقزز، مجدّر، متعفن!

ـ لنبدأ بالإعداد لعودتنا. ما أن يسمح لك القاتل بنسخ آخر الإشارات المقدسة، سننطلق عائدين.

ـ حتى الساعة لا أريد العودة إلى قصري. أطلب إعداد عربتي وأبقِ على ستة من الجنود سنذهب فوراً إلى تروي.

ـ إلى تروي؟ يندهش دوم مستراني، تريد القول أن. .؟

ـ لا تناقش، دوم مستراني، لدينا طريق طويل يمكننا قطعه حتى بلوغ قصر هوغ دو شامباني

10
القبلة

«سهرت على مورين في كنيسة القديس يوحنا في قصر هوغ. قلبي وعقلي لم يكونا سوى حجارة متجمدة...».

في الباحة، يقف فيرّير وشيلوميت وإيليفاس تحت المطر ثم يتوجهون الى داخل الكنيسة. خلف زجاجها السميك الملون البسيط، شمعات متمايلة تنشر نوراً خفيفاً.

ـ شكا المهندس: مضت ساعات عديدة وهو وحده مع جثمان مورين.

ـ قال فيرّير: لا اجرؤ على الذهاب لإزعاجه، لكنني أخشى من أن يفقد عقله تحت حمل ألم وحزن كهذا.

ـ لماذا استثنى القاتل ابن المعلم روجمورد وليس ابن صديقنا؟ يسأل إيليفاس:

ـ دون شك لقد فهم حراس الدم، أن مورين كان واحداً من سلالة الوثنيين تكهن شيلوميت أن يكون كهنتهم قد تمكنوا من فك رموز بعض الأساطير التي تلمح إلى الفرع المباشر ليسوع المسمى بهذا الاسم. لهذا السبب قتل. صراخ يأتي من الخلف. شكوى مؤلمة. الرجال الثلاثة يلتفتون.

خرج الكونت هوغ من شقته مترنحاً، فرو سميك على صدره العاري، القدمان محتذيان بسرعة دون اتقان، النظر تائه متمايل. تحاول كونستانس الإمساك به، عبثاً يتقدم الفارس دون رؤية أي شيء..

ـ أنت لا تكاد تتمكن من الوقوف يا عزيزي. ولا تضع شيئاً على جسمك لتنام، أرجوك.

يتابع هوغ تقدمه مثل رجل آلي، موشكاً على السقوط عند كل خطوة متوجهاً نحو الكنيسة. كونستانس عاجزة، تتمسك به دون فائدة.

ـ أريد رؤيته.. تقبيله..

لا أحد يمكنه إيقاف الكونت الذي يبعد أصدقاءه الثلاثة، المجبرين على التنحي ليسهلوا مروره.

توقفت كونستانس، مدركة أنها لن تتوصل أبداً إلى إمساكه.

ـ لقد اقترفت خطأ كبيراً بإعلامه الخبر المريع عندما استيقظ، شرحت قائلة. كان علي انتظار الفجر. لقد فقد وعيه عندما أعلمته، ثم، ما أن استعاد وعيه، حتى قفز خارج سريره مثل المجنون.

وصل هوغ إلى باب الكنيسة، يطرق بابها بيده السليمة، مثل رجل ثمل، قرع دون انقطاع بقبضته.

ـ باينس، افتح لي.. افتح! هذا أنا، هوغ!

بعد قليل من الوقت، ينفتح الباب على وجه باينس الشاحب وخدوده الهزيلة.

ـ هوغ.. كيف يمكن البقاء على قيد الحياة مع هذه المصائب الكثيرة؟

ـ يتم لنا ذلك عن طريق السماح لأصدقائه بأخذ جزء منها على حسابهم.

يتسلل الكونت إلى الكنيسة. ويعاد غلق الباب من ورائه.

الاعتياد على الظلمة.. تمييز جثمان مورين الممدد على المذبح، سيف والده على بطنه.

تقدم.. القدمان تغرزان فـي الحجر المتجمد للبلاط كما لو كان فـي رمل موحل، تقدم ونظر لهذا الطفل الذي ينام، الخدان مستديران، الأجفان شفافة، لون شعره الذهبي الأصهب يتماوج فـي نور الشموع الضعيف.

ـ لقد ضممت يديه إلى سيفي، مثل فارس.. وعدته بأن أعلمه الضربات الجدية، حركات تجنب الضربات. كان تعباً من التمرين على التمثال المصنوع من القش.

ـ صديقي صديقي الحنون.. ماذا سأقول لك بالكلمات؟

أخذ هوغ صديقه باينس بين ذراعيه،وضمه الى صدره فيما لفّ ما بقي من ذراعه حول رقبته. انهما غريقان يتمسك الواحد منهما بالآخر،صدر كل منهما يضغط على صدر الآخر، مازجين خفقات قلبيهما.

بقيا هكذا لمدة طويلة فـي دفئهما.

ـ لتنبادل القبل يا أخي، يقول هوغ.

يضمان شفاههما.

بينما هما يبتعدان عن بعضهما، يضيف الكونت:

ـ ولنبكِ أيضاً.

ـ لا أريد أبداً البكاء، هوغ. أريد أن أقاتل! أن أقتل.. أن أقتل حتى أكون مغطى بالدم!

ـ لقد سقطنا يا باينس.. لقد اقتلع منا الحراس جميع أولئك الذين كنا نحبهم وسرقوا منا الإشارات المقدسة. معركتنا منتهية.

ـ كلا! إنها فـي بدايتها. هذا السيف مُكرَّس بدم ابني. به سوف أبقر بطن الرجل ذي الفأس وخاصرته.

يسحب باينس بلطف وحذر السيف من يدي ابنه ويرفعه فوقه قائلاً:

ـ يملك المحفل الأول جسد يسوع، وإيليفاس لا يظن أن سرّ الـ I.N.R.I قابل للكشف بسهولة. أعداؤنا بعيدون عن امتلاك المعارف التي تركها التقليد لنا. لكن فيما لو لم تكن تلك هي الحالة، وفيما لو توصل حراس الدم يوماً ما من الاستيلاء على جثمان المسيح أو اقتربوا من سره، فإن هذا السيف سوف يقضي عليهم.

ـ أنت تخيفني يا باينس.. أنت تهذي. نحن لسنا سوى أناس فانين يجهلون كيف سيتصرف أخوة المحفل الأول فـي المستقبل.

من الممكن أن التقليد سيختفي مع مرور الزمن.

«عند الفجر، كنت سأتابع دائماً سهري مع هوغ الذي كان يغفو أحياناً، منهكاً بسبب العقاقير المسكنة التي تناولها».

11
ثلاثة صلبان من الدم

«قطع تأملي قرع ضربات على الباب...».

ـ السادة هوغ وباينس، هنا مسافر مجهول يتمنى التحادث مع الكونت. لديه رسالة يريد أن يسلمه إياها، ويقول له أنه لدى رؤيته له سيفهم. شقّ باينس فتحة الباب. أحد الحراس يسلمه رسالة.

ـ معذرة لإزعاجكم، سيد باينس، لكن المسافر يلح مؤكداً أن زيارته هي ذات اهمية عالية. خذ. غادر الكونت مقعده وتقدم من صديقه وهو يتمايل، العينان منتفختان بسبب نوم سيء ومتقطع.

ـ معذرة، علي الخلود إلى النوم. ماذا يجري؟

باينس يناوله الرسالة المستعجلة.

على ورقة القضيم المثنية على طويتين رسمت الإشارات الأربعة المقدسة.

ـ أقسم بالقديس يوحنا، يتعجب هوغ، هل لاحظت؟

ـ نعم، إنه البابا، طبعاً. افتح رسالته بسرعة..

ينفذ الكونت بحماس وتعثر، ثم يقرأ عالياً:

ـ إنني آت إليكم نادماً أخضع هذا اليوم إلى حكمكم بكل تواضع. يا باسكال.

يخرج الرجلان من الكنيسة. الحبر الأعظم في دار الكنيسة مرتدياً ثوباً أسود ومعطفاً عادياً من القماش الخام. ينتعل صندلين، وقد صبغت برودة الصباح أصابع قدميه بلون بنفسجي.

لاحظ الرجال في الحال أن البابا قد ضعف ونقص وزنه، أسفل خديه المتهدلين انسدلا وتدليا مثل كيسين فارغين، ومحجرا عينيه تجوفا، وأصبحا داكنين، تلمع فيهما عينان

محمرتان. اليدان منضمتان إلى صدره ترتجفان. اليمنى مغطاة بما يشبه الجذام البشع.

لم يكن باسكال يتصور أنه يمكن لرجلين أن يعبرا عن هذا المقدار من الحقد بنظراتهما. بغض شديد موجه إليه، يصيبه في قلبه، مثيراً في داخله ندماً حارقاً ورغبة جامحة بالتوبة والإقرار بالذنب.

يسقط على ركبتيه عند أقدام ضحاياه ويحني رأسه.

ـ أركع أمامكم كنادم يا سادتي. أتخلى عن مناهضتكم أقوم بعمل تعزية وندامة من الآن، أتعهد بأن لا تعذبكم الكنيسة مطلقاً.

يضرب ثلاث مرات على صدره قائلاً:

ـ ارحموني، أشفقوا علي.

باينس يتقدم خطوة، يصفع الحبر الأعظم صفعة عنيفة قوية مفاجئة، تفقده توازنه، مجبراً إياه على وضع يده على الأرض لكي لا يسقط جانباً.

يقف البابا والدموع تملأ عينيه، يرفع ذقنه.

ـ استحق حقدكم وعقابكم، سيد باينس لقد فقدت عائلتك في هذه الحرب في حين أنني فقدت روحي، هذا ما هو قليل! لكن أؤكد لك أنني أتيت لأتكلم عن السلام.

ـ السلام؟ يرد باينس بصوت قاسٍ، سأصدقك فيما لو وافقت على إعطائي ضمانة على صدقك.

ـ اطلب، سأعطيك إياها.

ـ سندخل إلى هذه الكنيسة حيث يرقد جثمان ابني سأبسط يدك اليمنى فوق قلبه وستقول لنا ما نريد معرفته.

ـ أتبعكم..

وصلا أمام المذبح حيث الطفل مسجّى يبدو كأنه نائم، أصيب باسكال بوهن، لكنه تماسك في الحال، شاحباً، يطيع أوامر باينس ويضع يده اليمنى على قلب مورين. استند هوغ إلى إحدى الدعائم.

ـ نريد أن تسلمنا حارس الدم، يقول باينس، هذا القاتل الذي يحطم ضحاياه بضربة فأس.

«بعد ذلك بقليل، خرجنا من الكنيسة والبابا ينتظر عند عربته لنطلب له الدواء الشافي لتسممه. لقد عقدنا اتفاقاً مقدساً.

ثم غادرت بدوري وحيداً. تركت مورين على مذبح الكنيسة. طلبت أن يُسهر عليه أثناء غيابي.

هيلين وكونستانس ظنتا أنني أصبت بالجنون لأتخلى عن ابني بهذا الشكل. هذا ما كنت عليه من الجنون ذلك الصباح، مجنوناً بسبب الحقد والأخذ بالثأر.

اخترت عن قصد ثوباً ومعطفاً أبيض لأني أعرف أنني سألطخه بدم الرجل ذي الفأس».

*
* *

لدى عودة البابا إلى المقر البابوي صعد فوراً إلى شقته، يتبعه دوم مستراني صامتاً.

نافذة مفتوحة. باسكال يتنفس، غارقاً وخاشياً في آن معاً من وجود القاتل في غرفته.

لقد تسلل إلى غرفتي، كالمعتاد مثل قط هالك يوم السبت.

لكن الرجل ذو الفأس ليس في الغرفة ولا في غرفة العمل.

ـ انظر يا قداسة البابا.

على الطاولة، غرس خنجر لكي يثبت ورقة القضيم... باسكال يدنو منها.

ـ لم ينتظرني. أنظر يا دوم مستراني. لقد نسخ بنفسه الإشارة الأخيرة وأضاف جملة «من اجل الحياة الأزلية»... هذا الشيطان لا تنقصه الصلافة والوقاحة.

ـ أنت إذاً تنسحب. قال دوم ميستراني متظاهراً بالدهشة.

جعد البابا الرسالة بغضب عارم وحولها إلى كرة وألقاها في النار.

ـ لقد اتفقت مع الشامبانيين. سوف لن يكشفوا سر يسوع ما دامت الكنيسة ستتركهم بسلام. آمل من خلفائي البقاء على هذا التحالف، وألا يصغوا أبداً إلى حراس الدم، عالمنا لا يتعلق إلا بهذا التوازن الهش. الناس بحاجة إلى الإيمان. لم يكونوا ليتقبلوا قدرية الموت المريعة لو لم يكن الله موجوداً، ولو لم يكن هناك من أمل!

ـ تعاليم المسيح القائم من بين الأموات، إيماننا به، ثقافتنا كل هذا يجعلنا متمدنين.

ـ أحسد إيمانك يا دوم مستراني، إنه إيمان راسخ في الجسد، بسيط وجلي، بعيداً جداً عن إيماني، الفاسد بالحسابات والمخططات السياسية!

بينما هو يتكلم، يخرج البابا من تحت معطفه قارورة صغيرة من الزجاج مسدودة بالفلين يشدها حبل رفيع جداً.

ـ ما هذه الزجاجة يا قداسة البابا.

يجيب باسكال بنوع من التهرب وهو يرفع القارورة إلى مستوى شفتيه:

ـ آه، هذا؟ إنه الترياق الذي سلمني إياه باينس سأتمكن من الشفاء خلال أسبوع.

ـ وأنت، ماذا قدمت له لقاء ذلك؟

باسكال يرسم ابتسامة صغيرة رفيعة.

لقد سلمته من دمر حياته وكذلك ضمانة للمستقبل، حيث سيتعلم كل من المحفل الأول والكنيسة أن يتعايشا.

«بينما كنت ممتطياً الجواد باتجاه مقر دير هوتفيللر، حيث كنت أعرف أين أجد القاتل، فكرّت بالبابا الذي أعلمني بما كنت أرغب في معرفته، وتعهده بتوقف الكنيسة عن مضايقة إخوة المحفل الأول، فقد بكى طويلاً على جثمان مورين قبل أن يركع من جديد ويقبل يدي اليمنى. كانت دموعه تغرق بين أصابعي. شرع بالصلاة بصوت منخفض.

كان يطلب العفو من الله. الله الذي سيحاسبه».

كان الدير مشيد وسط القرية، مبني على سفح تلة تطل على نهر المارن، بعض أشجار الكرمة تملأ أرضاً كلسية تجابه غالباً بغابات صغيرة داكنة وكثيفة.

لقد جرف المطر التراب، وحفر فيه أخاديد عميقة، في البعيد يتماثل الضباب في قعر الوادي، حيث تدوي نباحات الكلاب وبعض أصوات الطيور.

قفز باينس عن جواده وربط عنانه إلى حلقة مثبتة في جدار ضخم من الحجر. ثم طرق على الباب الثقيل المصنوع من الخشب الأسود.

لم ينتظر أبداً قبل أن يأتي الراهب ليفتح منظار الباب ويظهر رأساً متجعداً مثل تفاحة قديمة ذابلة.

ـ نعم، سيدي؟

يضع الفارس وثيقة تحت أنفه.

ـ هل تعرف هذا الختم؟ إنه ختم البابا باسكال. إقرأ الرسالة وأطع أمره.

ـ الواقع، إنه لشرف كبير لراهب عادي أن يقرأ رسالة من البابا!

يفرك الرجل عينيه ويفك رموز الرسالة محركاً شفتيه مثل الأرنب.

ـ نعم، نعم.. أفهم.

فتح الباب. تنحى الراهب جانباً ليسمح للفارس باينس بالدخول، يضيف الكابوشيني: ـ ستجده في الكنيسة، لقد أخذ متاعه وتهيأ للمغادرة. قال لنا أنه يرغب بأن ندعه يصلي قبل مغادرته. أما ذهابه ففي الواقع لن يصعب علينا! إنه شخص غير لطيف، باينس لم يعد يصغي إليه. وتحت نظر بعض الرهبان الذين يتساءلون، وهم يرونه يعبر الحديقة وسيفه بيده، يتقدم بخطوات واسعة، راكضاً تقريباً، الجسد والذهن متوتران بفعل الحقد.

معطفه الأبيض يتحرك من حوله وهو يصفق، ثقيلاً من كثرة المطر ووحل الطرقات.

فـي الكنيسة، الرجل ذو الفأس ممدداً وجهه نحو الأرض. ذراعاه على شكل صليب، أمتعته وسلاحه عند أسفل صليب كبير من الخشب، غير بعيد عن المذبح.

ـ ليحفظ دم يسوع المسيح روحي من أجل الحياة الأبدية. آمين. شفتاه تتمتمان فـي الغبار البارد الذي يغطي البلاط ملامساً لسانه لفترة طويلة ومخدشاً نفسه.

هذه المداعبة تسخنه وتحميه، ومذاق الدم فـي فمه يجلب اللذة.

عيناه مغمضتان تضاعفان من قوة قبلته، متلذذاً لدرجة سماعه يتنهد بينما شيء من التلذذ ينبش خاصرتيه.

ـ «اعمل على أن يعيش قلبي فيك، وفيك دائماً يجد نعيمه».

كم يحب هذا الحجر الذي صبغته أحذية الرهبان! ذلك الحجر الذي يضغط عليه نفسه أفضل مما يفعله على جسد امرأة.

ـ «ليغسل دمك، الذي يمكن لقطرة منه أن تمحو كل خطايا العالم، وتغسل القذارات والدنس الموجود في روحي».

أي امرأة تمكنت من أن تجلب له نشوة بهذا القدر؟ النادرات اللواتي احتضنهن لم يتركن له سوى ذكريات من رماد ومن إذلال وخُزي.

عضوه الذكري، قادر على الانتصاب لدى سماع صلاة أو ترتيل عال، وتحت جلدات السياط، ولسعات البرد والصيام، لم يتصرف إلا بشكل يدعو للشفقة أمام جسد حار متلهف للذة.

ما زال يسمع أيضاً أولئك الفقيرات الحمراوات الوجوه، ما زال يسمع سخرية الخنجر اليائس المذهل المروع الذي يتدلى بين فخذيه!

كان عندئذ يقوم بضربهن، وبقمع تهكماتهن، وبخنقهن، من أعناقهن البيضاء، يشبعهن ضرباً، عندما لا يقتلهن وعندما لا يبقر بطونهن.

يتذكر تلك التي كان جمالها الفتان قد منعه من الأول فـي أي مظهر من مظاهر الرجولة. بكى أمام عجزه الذاتي، دموعه زادت من احتقار تلك العاهرة التي كان ثدياها العاريين يتحركان فـي قهقهات لا نهاية لها.

أقدم على فتح بطنها بضربة فأس وحضر موتها البطيء، أحشاؤها كانت تخفق ممتدة على فخذيها المضرجين بالدم.

عينا الفتاة الزرقاوان الواسعتان، المرعوبتان فـي البداية غرقتا ببطء فـي قبول لمصيرها، محدقة بعينيه.

تلك النظرة كانت تروق له. ذلك الغوص فـي روحها الذي كان يبتعد بهدوء، شبيهاً بنسمة صيف فـي نهاية يوم قائظ.

تفارق المرأة الضحية الحياة، جالسة على الأرض المرصوصة لمنزله.

هنا، أحس بالنشوة واللذة.

يا الله، لماذا ذاكرته تذكره اليوم بكل هذه الصور؟ لماذا ينفتح باب الكنيسة بهذا العنف لكي يفسح المجال لظهور شبح طويل ونحيل أبيض حوّله النور من خلفه، وللحظة، إلى ملاك؟

ينهض، يتجلس، يركع ويفرك عينيه.

ـ باينس؟ إذن لقد خانني البابا!

ينهض، يتراجع. يجب عليه أن يمسك فأسه.

باينس يتقدم.

ـ الواقع أن البابا وشى بك. هذا هو الشيء الأفضل الذي فعله في حياته! لقد أدرك كل الهول بتحالفه مع حراس الدم... مع وحش من أمثالك.

ـ لقد جئت لتقتلني وتنتزع مني الإشارات المقدسة. لقد وصلت متأخراً، فقد أودعتهما لدى أحد رجالي في طريقه إلى روما.

ثم، أمسك بقبضة فأسه.

ـ حتماً، لقد كنت عديم الحظ في هذه القضية، أيها الفارس يا للشفقة: سأفكر وسأصلي من أجلك بعد أن أقتلك.

باينس يتقدم أيضاً، نهاية سيفه تخدش الأرض مصدرة زمجرة حادة.

ـ لقد قطعت وعداً إلى ابني: أن أمزق صدرك بسيفي وألطخ ثيابي بدمك، روحه لن تكون بسلام إلا بعد أن تكون قد غادرت هذه الدنيا..

ـ طفل تعيس لن يكون أبداً مرتاحاً.

ينقض على الفارس، وفأسه يدور فوق رأسه. بين ثانية وأخرى، تحول وجهه من البراءة إلى القساوة، مشوهاً شفتيه الشهوانيتين إلى تشنج فاحش، ملهباً عينيه الشاحبتين بشعلة عدوانية.

استبق باينس الهجوم متهيئاً لتلافيه، يتجنب بمهارة ويلتف بمرونة، متجنباً شفرة الفأس الثقيلة، التي تنهال على المذبح محطمة المنضدة لتتناثر المرصعات والمذهبات شظايا هنا وهناك.

انبثق سيف الشامباني ليصيب القاتل عند وسطه، لكن هذا الأخير يتجنب الهجوم بخطوة جانبية سريعة ومرنة.

لأول وهلة يتحدى الرجلان بعضهما بالنظر، قليل من العرق يبدأ بالتصبب على جبين القاتل.

ـ بمن تفكر يا باينس؟ يقول: بأخوتك، بابنك؟ أم بزوجتك وابنتك؟ لأي منهم تشعر بالألم أكثر من الآخرين.

باينس سياف ماهر لا يترك جسده يفقد توازنه جرّاء هذه الوخزات. لم يبلغ الصوت العسلي هدفه ولم يؤجج غضبه.

ـ إنه الحقد، الحقد هو الشيء الوحيد الذي يجب أن يكنه الفارس ليقتل ويذبح خصمه.

فهم الرجل ذو الفاس أن تهكماته كانت عبثية. يهرع في هجوم جديد أعنف من الأول، وأكثر قوة وهو يصرخ. باينس يحني ظهره، تمر الفأس فوق قمة جمجمته تماماً، يشعر بها وهي تلامس شعره بينما كان القاتل يتهيأ للضرب من جديد دون أن يرى سيف الفارس يخرج فجأة ويصيب كتفه الأيسر.

ـ قليل من الدم، يلاحظ وهو يلقي نظرة على جرحه.

ـ يقول باينس، إنها البداية فقط، لقد جئت أبحث عن كل دمك.

سأجعلك تنزف مثل خنزير. سأفرغك من الدم!

تغير شكل صوت الشامباني. قام الرجل ذو الفأس بخطوة إلى الخلف كما لو أن الصوت ادهشه...

ـ سأخرج من هنا وأنا راضٍ تماماً لأنني قمت بواجبي، يتابع باينس بصوته الذي تبدو نبراته الحنجرية تتزين بصدى مبهم.

«هل هذا فعلاً صوته؟» يتساءل القاتل الذي لا يتمكن من السيطرة على رعبه، عضلات فخذيه تتشنج، يداه تثقلان.

إنه يشلّني بصوته! يسمم ذهني! ماذا يقول الآن؟ أسمعه لكنني لا أفهمه. أي لغة يستعمل؟

شفتا باينس تلفظان مقاطع رخيمة تتوالى بارتجاعات صدى لا متناهية.

يبحث الرجل ذو الفأس عن استعادة قواه، يستنشق جرعة كبيرة من الهواء، يشد أصابعه على قبضة الفأس. أرغمت إرادته الكاملة حواسه على التخلص من الفخ الذي نسجه هذا المشعوذ الشامباني من حوله.

مع ذلك، هذا الصوت..

ـ يا إلهي إنه ليس صوتاً!ليس اثنين! يا إلهي!

رعب شائن، دبق، ينتشر في عروقه، ويعكر قلبه.

ـ كم؟

لأن القاتل فهم لتوه لماذا لم يكن يفهم ما ينشده باينس، يعرف الآن سبب اختلاف النبرات في صلواته..

عبر فمه يتكلم الأموات! عبر فمه يعبر موتاه!

آرسيس دوبريين، باسيل لوهارني، جوفروا دو سانت ـ أومير، تيفان، إيميلين، مورين.. لقد رافقوه ودعموه في مهمته للثأر.

«ما يقال عن الفارس كان صحيحاً إذن؟ ساحر عراف ومناج للموتى ـ يا إلهي!

إنه من ذرية المسيح)!.. يشعر الرجل ذو الفأس أن نصل السيف يدخل في خاصرته

اليمنى، يسمع العظام تنكسر، واللحم يتمزق، يخرج ليعود فـي الحال وينغرز فـي صدره ثم فـي عنقه الذي يغلي فـي الحال.

- باسم اخوتي! يقول باينس بصوته العائد. باسم عائلتي! باسم المسيح الحقيقي!

القاتل الشاب مسمر على شكل صليب، الفولاذ اخترقه من جهة إلى أخرى. لم يبقَ منه سوى جراح ودماء.

صفير. صدمة على رسغه الأيمن. يده مبتورة تنفصل وتسقط عند قدميه، الفأس يسقط على البلاط.

جسده المشوه يبصق كل دمه مثل مزراب. رغم الألم لم يتمكن من إخفاء دهشته وذهوله. مخدراً، يدع نفسه ينزلق على طول الصليب، دمية محطمة، مقطوعة الأطراف، منهارة. أصبح ثقيلاً، مضحكاً لم يتوقف عن السقوط، ظهره يتمزق على شظايا الصليب. سقوط دون نهاية، أصابه خلاله شعور بقلق مريع. يمسك به مثل مخالب طير جارح، جاذباً إياه إلى هوة حيث تدوي أصوات ضحاياه.

لم يتوقف عن السقوط...

عويل، صراخ، لعنات.

تشنج إضافـي. حركة مضحكة من ذراعه المبتورة التي تنزف الدم بقوة باتجاه الفأس. ردة فعل أخيرة لمحارب مهزوم.

باينس تفوق عليه، نظر إليه للحظة طويلة وهو يتقيأ المرار الأحمر قبل أن يخترق قلبه بحركة وجيزة وهو يقول:

- باسم الحقيقة!

المشلول المضرج بالدم يسقط على نفسه، جنين عملاق يعود إلى الجحيم الذي ولده.

يضع الفارس ركبة على الأرض وبسبابته المبللة بدم ضحيته، يرسم مثلثاً على جبينه.

- أخيراً باسمي! ها أنت بدورك تحمل علامة على جبهتك إشارة المحفل الأول!

فيما بعد، اليدان مبللتان بشكل كامل بالدم، يرسم باينس صليباً أولاً على صدره، وآخر وثالث على كل واحد من كتفيه.

ينهض، منهكاً وراضياً، وأخيراً ذهنه محرر من كتلة الغضب والحقد اللذين كانا يختنقان فـي صدره.

- من الآن، سيحمل الأخوة فـي المجمع الأول هذه الصلبان على معاطف بيضاء طويلة كذكرى لأخوتهم الثلاثة المضحى بهم: آرسيس دوبريين، باسيل لوهارني وجوفروا دو سانت - أومير: كذكرى لمعركته الظافرة ضد التعصب! تيفين، إيميلين وموريين، فيما يعنيهم، سيبقون فـي قلبه.

إلى الأبد...

12
المستقبل

في المساء دفنا مورين في مقبرة ملكيتي إلى جوار أمه وأخته، على بضع خطوات من قبر يسوع المؤقت. لم نكن سوى خمسة: إيليفاس، شيلوميت، فيرّير، هوغ وأنا، مرتدين أثواباً بيضاء كنا قد رسمنا صلباناً حمراء على الكتفين والصدر.

كان إيميريك قد سافر قبل ذلك إلى غابة الشرق لكي تبقى الورشة تحت المراقبة من قبل أخ من المحفل الأول.

شكّلنا المحفل للاحتفال بالطقس وتلوت الجملة التقليدية:

- بما أن الساعة قد أزفت وأننا بلغنا العمر اللازم، لنفتح أعمالنا. لم أتمكن من المتابعة لأن حزني كان عميقاً جداً. أدار هوغ الاحتفال مكاني بينما كنا نقف على شكل حلقة حول جثمان مورين، وأيدينا متحدة.

توقف المطر عن السقوط منذ زمن طويل. نهاية نهار مشمس أيقظت الروائح اللطيفة للعشب والتراب، رائحة طيبة حلوة كان الليل باقترابه يكشفها ببرودته.

عطر أرضي...

سيأتي الصيف! إيميريك سيهتم بأعمال الحقول مع العمال الموسميين الذين كنت أستخدمهم عادة. طلبت من امرأة من القرية المجيء لتحضير الوجبات لضيوفي..

كنت أعرف مسبقاً أني افتقدت عائلتي بشكل مؤلم وأن كل حركة سأقوم بها ستذكرني بهم. هذه الحركات اليومية التي كنت سأرسمها في الفراغ الخالي لوحدتي. مورين لم يعد يجري خلف الدجاجات ليسلي إيميلين. تيفين لم تعد ترافقني إلى كرم غروين، إلى قطاف العنب، ابنتي الصغيرة لم تعد تسألني عن كل شيء، دائماً فضولية ولا تكتفي بأجوبتي على الإطلاق.

هوغ كان يتكلم، لم أكن أسمعه. كنت أصغي إلى ضجيج المساء، صغيرة في معظمها، مستمرة مثل ضجيج الجراد، رتيبة ومتعبة مثل أصوات ضفادع المستنقع الموحل الممتد حول الإصطبلات، ثم النداءات القصيرة لبومة الدوق الكبير التي رأيتها أحياناً تغط على غصن منخفض من شجرة التفاح العجوز، أصوات نباح كلابي، أصوات قوقأة الدجاجات، ونخير الخنازير.

كنت أدع ألمي يتأرجح بتلك الموسيقى الفوضوية، لكنني أخرج من أوهامي الكئيبة عندما سمعت هوغ يقول أنه حان وقت وضع جثمان مورين في القبر.

سعيت لذلك بمساعدة فيرّير.

شيلوميت أمسك فيما بعد رفشاً وبدأ بردم الحفرة. بعد أن أنهى صديقي ذلك لفظ إيليفاس: ـ باسم الـI.N.R.I الطبيعة ستجدد نفسها كاملاً.

عدت لأفكر بالسائل الأسود الذي يترسب في وعاء بالمخبر في تروي، دم المسيح! أسفت لأنه لم يبلغ بعد درجة تصعده. هل كان فعالاً، هل كنت سأدخله في جسد مورين! لأن شيلوميت شرح لي بأي طريقة علينا أن ندخله في الأوردة. أنبوب صغير وسيكون السائل قد عمّ كامل دم ابني لكي يعيد له الحياة.

ـ سنبقى معك، يقول لي هوغ.

ـ وجودكم سيكون لي فعلاً إراحة حقيقية، أجبت مع اعتراف بالجميل.

أمضينا الليلة في السهر مثيرين ذكرى مرحومينا، شربنا كثيراً، لا شك أنه بسبب حالة السكر التي كنت فيها عند الفجر اتخذت القرارات غير المعقولة.

المستقبل.. كنت أقذف نفسي في المستقبل، واعداً إخوتي الأربعة أن المحفل الأول سوف لن يُمحى أبداً عن سطح الأرض متنبئاً لهم أنه سيتمتع بوجود أزلي.

طبعاً، كيف تمكنت من الشك بينما بناء على طلبي، سيعقد في تروي مجمع مسكوني بعد سبعة عشر عاماً؟ وأنه في تلك المناسبة سيعترف البابا هونوريوس الثاني رسمياً بمنظمة أهل الهيكل. التي سأكون المعلم الكبير الأول فيها..؟

فيما بعد!

ماذا سيصبح هذا الوجه الأسطوري، مؤسس إحدى أكبر الملاحم الإنسانية العجيبة...

*

*   *

لقد عاد البابا. حزيران ينتهي بالنور الساطع للصيف، لم تعد تمطر منذ شهر أيار وبدأت الأرض تتكسر حول مستنقعات غابة الشرق.

أمر إيليفاس بقطع الأشجار التي كانت تحيط بالجزيرة، وحفر البئر التي تقود إلى الناووس (مدفن تحت الأرض) حيث كنا سندفن ذخائر يسوع الأخ الأول.

كنا صرفنا جميع العمال، بينما الكونت كلف حفنة من الرجال الموثوق بهم لحراسة المكان. هكذا كنا آمنين، دوريات متنقلة لمراقبة السدود وجوار الورشة. البابا لم يكن يجهل أن يسوع سيرقد في هذه الغابة لكنه أقسم لي أنه لن يقوم بأي شيء بحثاً عن القبر. صدقته. وقال أنه لن يحاول الشروع بالبحث، لكنني كنت أخشى أن يتجاوز حراس الدم أوامر الكنيسة ويقررون متابعة معركتهم..

اخترنا تاريخ الرابع والعشرين من حزيران لدفن المسيح: يوم عيد القديس يوحنا المعمدان، الذي عمّد يسوع بعد أن أعلن عن مجيئه للمقربين منه.

في المساء، سلك موكب مكون من إيميريك، هوغ، إيليفاس، فيرّير، شيلوميت وأنا طريقاً ضيقة ملتوية عبر الغابة، ووضعنا جسد المسيح في عربة مغطاة.

إيليفاس أتم مهاراته، فقد أنجز في قليل من الوقت الدرج اللولبي ـ الذي صمّم آرسيس جزءاً من مخططاته ـ سامحاً بالوصول إلى المقر الجنائزي الذي سيرقد فيه الأخ الأول. مددناه في نعش من الحجر الذي ما أن يُغطّى بواسطة بلاطة ضخمة، حتى يغلق تماماً.

بقينا طويلاً أمام القبر، متأملين المغامرة التي وجدت خاتمتها هنا.

كم كان ينقصني وجود مورين إلى جانبي!

كّونا سلسلة الاتحاد وقلت:

ـ ما هو في الأسفل مثل ما هو في الأعلى. كما في السماء كذلك على الأرض.

يضيف هوغ:

ما هو فوق هو كالذي تحت، إنجاز العجائب لشيء واحد.

جملتان من طقس المحفل الأول.

قبل إغلاق النعش بالحجر، وضعت على صدر المسيح وصيته محمية في كيس من الجلد.

يقول إيميريك:

ـ من سيتمكن من اكتشاف هذا القبر بعد أن نغرق هذا الجزء من الغابة؟

ـ حراس الدم لن يقروا بخسارتهم، هذا ما لاحظته. من الخشية أنهم سيبحثون عنه دون كلل.

إيليفاس يطمئننا:

ـ أولئك الذين قد يدنسون هذا المكان، سوف يسقطون في الفخ الذي نصبته لهم. آلية صممتها من أجل قبة حفرة المدفن تنغلق بعد قليل من انفتاحها، وللتوصل

إلـى الدخول إلـى هـذا المكان يجـب علـى الـزائر أن يستخدم الحـلقة.

شرح لنا إيليفاس أنه صمم منظومة جهاز سيشغلها عندما نغادر القبر ونكون قد أغلقنا نهائياً مدخله.

كان الأمر يتعلق بمنظومة تداخل دقيقة وحده وزن الحلقة يمكنه تشغيلها. يكفي وضعها فـي عنق دائري مشابه فـي القطر. ستتلقى الحلقة صحناً من البرونز الذي سيعمل تحت تأثير وزنها وتحت تأثير ثقلها فقط. الصحن سينخفض حتى يصل إلى دولاب يسيّر الآلة التي صممها إيليفاس.

ـ تبقى أمامنا مهمة أخيرة يجب إتمامها، قلت حينها.

علينا أن نصعد إلى السطح ونأخذ فيرّير وشيلوميت إلى السدود بعد أن نكون قد جهزنا أنفسنا بمطارق ضخمة. ويأخذ كل واحد منا موقعه أمام السِكر.

أخوتنا الآخرون سيذهبون إلى حافة المستنقع.

ـ سيكون أمامنا وقت قصير لنضع أنفسنا فـي مأمن ما أن تفتح الأبواب الميكانيكية، قلت ذلك لفيرّير وشيلوميت: هل أنتما مستعدان؟

ـ أعط الإشارة يا باينس.

كنا نحن الثلاثة متباعدين عن بعضنا البعض بأكثر من ثلاثين خطوة.

ـ هيا افتحوا، صحت قائلاً.

ـ ضربت بكل ما أعطيت من قوة على الوتد الذي كان يبقي السكر مغلقاً، خرجت قطعة الخشب من مكانها، وانفتح السكر بقوة. قام رفاقي بما يلزم. الماء الموجود فـي المستنقعات المستخدمة كخزانات يتدفق فـي الحال بقوة كبيرة إلى الحوض حيث حفرنا البئر.

فيرّير، شيلوميت وأنا ركضنا لننضم إلى أصدقائنا على الحافة، فـي قليل من الزمن، ستكون السدود مملوءة بمياه المستنقعات، المحبوس منذ زمن طويل بحواجز الماء فـي جناح الورشة، يدخل فـي القبر ويغمر البئر.

قريباً لن يكون هناك سوى بحيرة كبيرة راكدة خالدة: كانت تتلألأعلى سطحها أواخر أشعة الشمس التي رأيناها تُمحى ببطء وصمت.

خطرت لي رؤية يسوع مستريحاً منذ الآن فـي قبره قرب أخينا جوفروا، محمياً بمياه غابة الشرق، يسوع بين الحياة والموت، فـي هذه الحالة العجيبة التي كانت تحفظ قليلاً من جسده ووعيه، وروحه.

هل كان ينام؟ هل كان يعيش؟

كنت أعرف فقط أنه كان ينتظر.

*

* *

لقد حدث هذا منذ زمن بعيد، بعيد جداً لدرجة أنني لم أعد متأكداً من تذكر بقية الأحداث بدقة. يحصل لي أحياناً الخلط بين الوقائع وعدم معرفة وضعها فــي الترتيب الزمني الصحيح.

لذلك أخذت عادة كتابة صحيفتي. وطبعاً، لن أنشرها أبداً، لأنني واعٍ أنهم سيعتبرونني دجالاً أو إبليساً.

أعيش دائماً فــي ملكيتي قرب ترويس، منزلي لا يشبه أبداً منزلي الأولي. غير أنني احتفظت بالمقبرة الصغيرة وكنيستها، وأذهب يومياً إلى قبر تيفين، إيميلين ومورين.

نزهاتي تقودني غالباً إلى غابة الشرق التي لم أعد مالكها. أمضي ساعات أمام البحيرة الصغيرة حيث يأتي الأطفال فــي الصيف ليسبحوا. أحب سماعهم ورؤيتهم لأنهم يذكرونني بابنتي وابني. هل يندهشون من حضوري الحزين والصامت؟ هل يتساءلون بخصوص هذا الرجل الغريب الذي يروق له رؤيتهم وهم يلعبون؟

بعد انطلاقهم أبقى وقتاً طويلاً على حافة البحيرة محاولاً تذكر صور الورشة...أتذوق مجيء الليل الذي يخدرني ببرودته ويسكّن آلامي.

لقد أضحت الغابة عزلتي التامة. أعرف فيها أقل حركة وأقل هبة نسيم. إنها فــي داخلي، مثل روح ثانية، غارزة جذورها العديدة فــي جسدي.

دمي يغذيها، أحلامي تحميها، إنها تكلمني. صوت الريح، حفيف الأوراق، الفرقعات والإنكسارات، صوت الأموات الذي يتردد فيها، وأنا الوحيد من يسمعها.

لقد فقدت النوم، أضحت ليالي عبارة عن مشاعر تخل رباني حيث يتوه ويضيع عقلي.

فيرّير، شيلوميت، إيليفاس، هوغ، وأنا كنا قد غيرنا أسماءنا. اليوم أنا أدعى هنري باينس، أنا مؤرخ وكاتب. بعد أن مارست العديد من المهن! قبل أن أمارس المهن الأخرى..

إيميريك المخلص لم يعد على قيد الحياة ، فقد رفض التحالف الذي عرضناه عليه. فضّل العيش حسب قانون الطبيعة ومات. لم يبق على قيد الحياة سوى خمسة منّا.

هوغ خصني بحبه، وسابقاً دفن كونستانس بحزن لم أر أبداً مثله عند أي رجل، حزنٌ يفوق طاقة البشر.

السيدة هيلين توفيت عن عمر يناهز السبعة والسبعين عاماً لقد بكيناها طويلاً قبل أن تأخذ بهدوء مكانها بين أشباح ذاكرتنا.علي الإقرار أنني نسيت نبرة صوتها، شكل وجهها وبريق عينيها.. بينما بعد عدة سنوات من الترمل كنت معجباً بها!

حياتنا تشبه خريفاً طويلاً. انتظار أزلي لأننا أصبحنا رجالاً دون عمر، أنضجهم صبر بليد متراخ.

نحضر كشهود غير متحركين لامبالين بقفزات هذا العالم المربك المشوش حيث الأخ لا يتوقف عن مناهضة أخيه. منهكين لأننا حلمنا طويلاً بالحب والأخوة، لقد جعلنا من خيبتنا صديقنا الأخير. هذه الرفيقة الجافة والعقيمة غلفت قلوبنا بقوقعة أو قالب معدني.

لم نعد نبكي أبداً.

لم نعد سوى خمسة.

خمسة حراس. سدنة الهيكل الخمسة الأخيرين، حراس قبر المسيح.

وفـي عروقنا يسيل دم أزلي، هو «دم المسيح».

هنري باينس، فـي 20 كانون الأول 2007

اعتذارات

لقد اجتزأت بعض الوقائع التاريخية عن قصد أو فسرت بحرية لفائدة النسج الروائي.

ـ بعض الشخصيات وجدت أن مصيرها قد تغير شكله لتلعب أدواراً مفروضة من قبل المؤلف.

هناك تاريخان: التاريخ الرسمي، الدجال، ثم التاريخ السري، حيث توجد الأسباب العقلية الحقيقية للأحداث.

(هونوريه دو بلزاك)

فهرست

الجزء الأول

الرحلة إلى القدس

الجزء الثاني

القائمة الحمراء

الجزء الثالث

قبر الشرق

الجزء الرابع

من أجل الحياة الأزلية



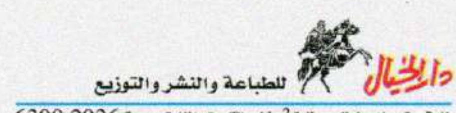
فرسان هيكل يسوع الخمسة ـ الجزء الثاني

هذا الكتاب إنذار خطير يدخلنا في عالم من الشك بالمعرفة المتوارثة للتعاليم التي بنيت عليها الكنيسة المسيحية. إذ يقدم لنا المؤلف مجموعة كبيرة من الأسرار الخطيرة التي، ستزرع الشك في الكثير من المفاهيم، والأسس التي بنيت عليها الكنيسة، وحياة المسيح.

عام 1104 كان قبر السيد المسيح قد اكتشف قبل ذلك بسبعة قرون، لكن ثمة قبراً آخر كانت الكنيسة تبحث عنه في القدس... قبراً ما زال مجهول الهوية يلاحق ذاكرة بعض المطّلعين، ومرد ذلك إلى أسطورة تقول: إن السيد المسيح لم يصلب، وأن من صلب كان توأمه توما، وأن يسوع المطارد من الرومان كان قد اختبأ طوال ثلاثة أيام بلياليها في المثوى الأخير الذي يرقد فيه توأمه... وأنه قام خلال ذلك برسم خمس إشارات على الكفن من أكثر أسرار البشرية غموضاً... يعتقد أنها معادلة الخلود!

هنا تدخل الكنيسة وحراس الهيكل في حرب خفية طويلة لم يحفظ منها التاريخ سوى القليل من الأحداث. فمن منّا يعرف في أيامنا هذه أن ميليشيا البابا المسماة «حراس الدم» ستعذب وتضطهد كل أمناء سرّ يسوع؟ وأن قاتلاً عنيداً تحت إمرة الحبر الأعظم باسكال، جاء إلى شامبانيا ليطارد آخر أحفاد هوغ دو باينس. مؤسس المنظمة! كان حراس الهيكل وحدهم يعرفون بالـ (I.N.R.I) التي تخفي شهادة الحب لدى يسوع. والتي تحمل معرفة رائعة يمكن أن تقدم للبشرية أكثر الهدايا كرماً وسخاءً: معادلة سر الخلود.


ISBN 9953-82-104-6
9789953821047


دار الخيال للطباعة والنشر والتوزيع
بناية يعقوبيان. بلوك ب طابق3. شارع الكويت. المنارة. بيروت 6308 2036
لبنان. تلفاكس: 009611-740110 E-mail.alkhayal@inco.com.lb
www.darelkhayal.com